



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيقِ الْقِزْبَاوِيِّ

المجلد التاسع والثلاثون





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

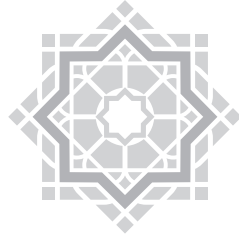
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

دار الشَّامِيتِ

للطباعة والنشر والتوزيع



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظِيَّائِي



الْمَجُورُ الثَّلَاثُ

الْفَقِيرُ وَالصَّوْلِيُّ

فِقْهُ السُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ

٨٢ المراقبة والمحاسبة

٨٣ الصبر والشكر

٨٤ الأذكار والأدعية

المستحبة للمسلم

٨٥ ابتهالات ودعوات



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الثالث

الفقه وأصوله
(فقه السلوك والأخلاق)



المراقبة والمحاسبة

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾

[البقرة: ٢٣٥].

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ

لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريلُ فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» متفق عليه.

عن معاذ رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أوصني. قال: «أتق الله حيثما كنت» أو «أينما كنت». قال: زدني. قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». قال: زدني. قال: «خالق الناس بخلق حسن». رواه أحمد والترمذي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». رواه الترمذي.

عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». رواه الترمذي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، هو الذي خلقنا، ويحيط بنا، ولا يبعد عنه شيء، وإن قل ودق من شؤوننا، كما قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

هو القائم على كل نفس بما كسبت، والمُجازي لها بما عملت، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والصلاة والسلام على من بعثه رحمة للعالمين، وحُجَّة على الناس أجمعين، فقد كان يُحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، ويَزِنُ أعماله قبل أن تُوزن عليه، ويُراقِبُ نفسه وعمله قبل أن يُراقِبَهُ رَبُّهُ، ويُراقِبَهُ خلقه، والذي بلغ أعلى مقامات الإحسان.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على هذا النبيِّ الكريم، وعلى آله وصحابته، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي

أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عنهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فإن تزكية النفس من الفقه في الدين، الذي شغل عنه الناس، ولم يعتبروه منه، ولكن سمّوه باسم آخر أبعد عن الفقه الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ»^(١).

وهو في رأيي وفي رأي كثير من علماء الدين قديمًا وحديثًا: من صميم علوم الدين، ومما يعدُّ المرء للصالح في الآخرة، ويحضره لدخول الجنة، ويبعده كثيرًا عن النار.

ولذا فعلى كل مسلم أن يهتم بهذا الجانب، ويمهد له في القلب والعقل والسلوك، ويدخل تعاليمه وأحكامه إلى أعماق نفسه وحنايا ضميره.

وهو الذي عرفه الناس باسم «التصوف»، وهو الذي يرسم طريق السلوك إلى رضوان الله تعالى وإلى جنّته، التي أعدها لعباده المتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وأنا منذ سنين بدأت أكتب في هذا الجانب من جوانب التفقيه والتثقيف والدعوة والتربية، وهو ما يسمّونه «التصوف». وقد صدر لي في هذا الجانب عدة كتب، هي: «الحياة الربّانيّة والعلم»، و«النّيّة والإخلاص»،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الكسوف (١٠٣٧)، عن معاوية.

و«التوكل»، و«التوبة»، و«الورع والزهد»، وهذا الكتاب الذي أقدم له اليوم، وهو «المراقبة والمحاسبة».

وهي أمور لا بدّ للنّاس منها، وأن يكتبها العلماء الرّاسخون العارفون بخبايا الأنفس وشوائبها، واللّذين يستقي منهم العلماء في سائر البلاد، وفيما يأتي من الزمان.

وقد كتب حُجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد الغزالي كُتُبًا عدة في تصوّف، وفيها نظرات جيدة، ووقفات رائعة، وموازن سليمة، ومع هذا لا تخلو من غلو وشطحات، تبعت غُلُوات الصوفية، وما جرت به سفنهم إلى غير برّ، وبغير بَوْصلة، وأحيانًا يفتقدون الدليل، فالواجب والأولى أن ندع كل سبيل انحرف أو شذّ، أو ابتعد قليلاً أو كثيراً، ونتبع ما جاءنا من القرآن والسُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يجب ألاّ نحيد أو نعرض أو نزور عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، حين نكتب عن «الصراط المستقيم»؛ صراط الأمة الذي تسلكه أفراداً وأُسُراً وجماعات وحُكّاماً ودُولاً باسم الإسلام، وتحت مظلّته، عاملين بعقائده وشرائعه، وقِيَمه وأخلاقه، وعباداته ومعاملاته، في كل شؤون الحياة دينية ودنيوية، فردية واجتماعية، سياسية واقتصادية، محلية ودولية، وبذلك نهتدي للتي هي أقوم، ونهتدي إلى التي هي أبرُّ وأقسط. اللهم آمين.

وقد كان أخي الحبيب الشيخ مجد مكي قد نظر في هذا الكتاب، واقترح عليّ اقتراحات مهمة، وأضاف إليه إضافات نافعة، تقبلتها منه بيد

الشُّكر؛ لأنني لا أستكثر ما يُضيفه إخواني إليّ، ولا ما ينقله إخواني عليّ، وأنا والله أرحب بكل من يُهدي إلي من عنده ما يصوّبني إذا أخطأت، أو يُقرّبني إذا باعدت، وكلُّ أحدٍ يؤخذ منه ويردُّ عليه. والمعصوم من عصمه الله تعالى.

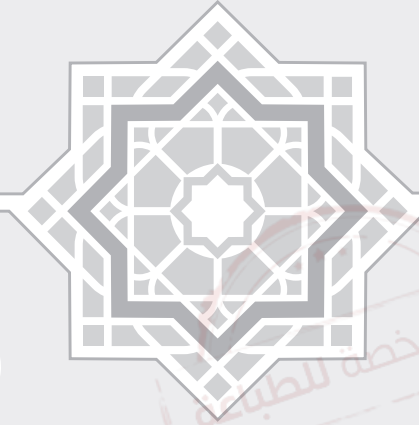
وأرجو الله أن يوفّقني الله للكتابة فيما بقي من أعمال القلوب أو في فقه السلوك، وأن يهدينا إلى ما فيه خير الإسلام وخير المسلمين، وأن يسدّد أقلامنا وأفهامنا لنكتب ما ينفع الأمّة، ويرشد سيرتها، ويسدّد خطاها إلى طريق الخير والنور.

الخميس ١٦ من جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

٢٥ من فبراير ٢٠١٦م



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



تمهيد

المراقبة والمحاسبة



(١) خصائص الطريق إلى الله.

(٢) كلمة عن النفس البشرية.





خصائص الطريق إلى الله

المراقبة والمحاسبة، كلتاهما منزلةً من منازل السَّائرين والسَّالِكين في الطريق إلى الله جلَّ شأنه.

فهذا الطريق له صفاته وخصائصه، التي يجب أن يراعيها السَّالِك، حتَّى يمضي فيه على بصيرة، ويعرف ما فيه من عقبات وأشواك، وما فيه من مزالق ومطبات، وما يمكن أن يعترضه من قُطَاع الطريق، أو يشوش عليه من الشركاء المشاكسين، وما يحتاج إليه في الطريق من غذاء للأرواح، أو دواء للأدواء، أو أدوات مساعدة، أو أعوان مساندين، ومسهلين لاستمرار السَّير في سلاسة وسلامة.

ومن خصائص هذا الطريق:

١ - أنه طريقٌ طويل، ولهذا يحتاج إلى صبر، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٢ - أنه مليء بالعقبات، مفروش بالأشواك، مضرَّج بالدماء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

٣ - أنه مليء بالصّادّين عنه، والقاطعين له، فلا بدّ من التسلّح لملاقاتهم والتغلب على قطاع الطريق، وهم الذين جمعهم قول الشاعر:

إِنِّي بُلَيْتُ بِأَرْبَعٍ يَزِمِينَنِي بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ!
إِبْلِيسُ وَالْدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْوَرَى يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخُلَاصِ قَدِيرٌ^(١)!

• فهناك الشيطان الذي أقسم أمام الله ليضلنّ الإنسان عن طريق الله، وليضعنّ فيه العوائق، ما وجد إلى ذلك سبيلاً: ﴿قَالَ فِيمَا آغَوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۖ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

• وهناك الدنيا بزخارفها ومتاعها وزينتها، وما تغرّ به الخلق، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

• وهناك النفس وما فيها من غرائز ودوافع، مثل حبّ البقاء، وحبّ الخلود، وحبّ الاستعلاء، والغريزة الجنسية، وغيرها من الدوافع الفطرية، التي غرسها الله في الإنسان، لحكمة عمارة الأرض، ولكنها إذا تُركت وحدها دون وازع من الإيمان، فإنها تأخذ الإنسان بعيداً عن سواء الصراط. ولذا قال تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في قصة يوسف: ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

(١) ذكرهما القرطبي ولم ينسبهما لأحد. انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٨٨٠، تحقيق د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، نشر مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

• وهناك الخلق، ولا سيما شياطينهم من الإنس، الذين يشاركون إبليس وجنوده في إضلال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وكثير من الناس يؤثر عليهم آباؤهم أو رؤسائهم، ليقلدوهم، ويسيروا في ركبهم: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وبعضهم يؤثر عليهم أصدقاؤهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].



كلمة عن النفس البشرية

المراقبة والمحاسبة، وما يتبعهما تدور حول «النفس الإنسانية» ونوازعها ودوافعها الفطرية والمكتسبة، الخيرة والشريرة، الطيبة والخبیثة.

ولقد حدّثنا القرآن عن هذه النفس، فتبيّن لنا: أنها ثلاثة أنواع، وإن شئتَ فقل: إنّها ثلاث حالات لهذه النفس.

١ - النفس الأمّارة بالسوء:

أولاهها: «النفس الأمّارة بالسوء»، وهذا هو الأصل فيها إذا تركت لغرائزها أو لدوافعها ونزعاتها وحدها، ولم تهتدِ بهُدى الله، الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ليهديها إلى الصراط المستقيم، وليربيها على المنهج القويم، ويوجّه ما فيها من تطلّعات ورغبات إلى الحق والخير، ويعاملها بالترغيب والترهيب حتّى تستقيم على الجادة، وتقف عند حدود الله، ولا تتعداها.

والنفس مستعدّة للفجور وللتقوى، ولعل استعدادها للفجور أقوى، لذلك قدّم الله الفجور على التقوى، فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، إذا تركت لأهوائها، فإنّها تميل إلى الفجور.

ومطلوب من الإنسان أن يقوم بدور في تركيتها، أي: في تطهيرها وتنميتها، حتّى يعلو تقواها على فجورها، وحتى يُفلح صاحبها، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩]. أي: طهرها من الشرك، ومن المعاصي، ومن الرذائل، وحلاها ونمّاها بالتوحيد والطّاعات والفضائل.

لا بدّ من تخلية ومن تحلية، لا بدّ من هدم ومن بناء، لا بدّ أن تهدم الشرّ في نفسك، وأن تبني الخير على أنقاضه. هذا ما ينبغي للإنسان المؤمن أن يفعله.

والنفس - كما يقول علماء التزكية - دابة حرون^(١) لا تُترك لأهوائها وشهواتها. هي كما قال الإمام الغزالي: إنّها عند الشهوة بهيمة، وعند الغضب سبّع، وعند النعمة تراها فرعوناً، وعند المصيبة تراها طفلاً صغيراً، وعند الجوع تراها مجنوناً، وعند الشبع تراها مختالاً فخوراً.

كحمارِ السُّوءِ إنّ أشْبَعْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقَ^{(٢)(٣)}

الصفات المذمومة في الإنسان:

ومن هنا وصف القرآن الإنسان بعدد من الصفات المذمومة في ذاتها، ما لم يتداركها بالتربية والتزكية والمجاهدة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(١) قال في مختار الصحاح: فرس حرون: لا ينقاد، وإذا أشتدّ به الجري وقف. مادة (ح. ر. ن).

(٢) البيت لصالح عبد القدوس، انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي ص ١٢٢، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) منهاج العابدين ص ١٧٩، ١٨٠، تحقيق د. محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي: بخيلاً وشحيحاً، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] أي: إن الإنسان لنعم ربه وخالقه ورازقه وممده بعباءاته لكفور جحود، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الإنسان لو ترك لطبعه وحده لبغى وطغى، كما قال المتنبي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النَّفُوسِ، فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِفَّةٍ، فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ^(١)!
لهذا كانت النفس في أمس الحاجة إلى الهداية من الرحمن، وإلى التزكية والمجاهدة من الإنسان.

ووصف النفس بأنها «أمارة بالسوء» جاء في القرآن في قصة يوسف على لسان امرأة العزيز، بعد أن حقق معها في قضية يوسف ودخوله السجن واتهامه بالباطل، وبعد أن برأته من كل تهمة ونقيصة، قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وواضح من السياق أن الكلام لامرأة العزيز لا ليوسف، فقد انقطع كلامه من قبل، وكأن بعضهم استنكر أن يكون هذا الكلام من المرأة، فزعم أنه ليوسف عليه السلام.

ووصف «أمارة» جاء بصيغة المبالغة بمعنى أنها كثيرة الأمر بالسوء؛ لأن ذلك لا يكون منها مرة أو مرتين ثم تكف وتنتهي، بل هي مستمرة على ذلك، فتدفع الإنسان إلى الخطايا، بفعل المحظور أو ترك المأمور.

(١) انظر: ديوانه ص ٥٧١، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

أول خطيئة وقعت في الأرض:

كما وجدنا أول خطيئة وقعت في الأرض، وهي قتل أحد ابني آدم لأخيه ظلمًا وعدوانًا، حين قَرَّبَا إلى الله قُربَانًا ﴿فَقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠].

فالذي دفع الأخ الشرير إلى قتل أخيه الصالح إنما هي نفسه الأُمارة بالسوء، طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، ولم يكن في ذلك الوقت مجتمع، ولا تأثير مجتمع، كما يقول العلماء الاجتماعيون اليوم.

هذه النَّفْسُ الأُمارة هي التي سَوَّلَتْ لِأَبْنَاءِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، أَبْنَاءِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، أَنْ يَصْنَعُوا بِأَخِيهِمْ يَوْسُفَ مَا لَا يُتَصَوَّرُ، أَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ، وَرَمَوْهُ فِي تِلْكَ الْبُيْرِ الْمَهْجُورَةِ، ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ بَكَاءَ التَّمَاثِيلِ وَدُمُوعَ التَّمَاثِيلِ، يَخْتَلِقُونَ الْأَكَاذِيبَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٦ - ١٨].

فماذا قال يعقوب عليه السلام؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. أفهمهم الأب النبي: أن تسويل أنفسهم الأُمارة بالسوء هو الذي دفعهم إلى هذه الجريمة، وإلا فهل حين أراد الذئب أن يأكله خلع قميصه ليظل سليماً ثم أكله؟!!

السامريُّ الَّذِي أَضَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَار، صُنِعَ مِنَ الْحَلِيِّ ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، فَأَضَلَّ الْقَوْمَ وَعَبَدُوا الْعَجَلَ فِي غَيْبَةِ مُوسَى. ولما جاء موسى وسأله عن هذا الضلال الَّذي

صنعه، قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦]. هكذا اعترف السامري بكل صراحة: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

٢ - النَّفْسُ اللَّوَامَةُ:

والنَّفْسُ الثَّانِيَّةُ، أو الحالة الثَّانِيَّةُ لِلنَّفْسِ هي «النَّفْسُ اللَّوَامَةُ»، التي ذكرها القرآن في سورة القيامة، حين قال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿[القيامة: ١، ٢]. وَاللَّوَامَةُ: هي التي تكثر اللوم والعتاب، وربما التوبيخ لصاحبها، بدليل صيغة المبالغة وهي «فَعَالَةٌ»، أي: «النَّفْسُ اللَّوَامَةُ» فهي في مقابلة «الأمارة بالسوء» في الأخرى.

فهي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في الواجبات، بل تفريطه في المستحبات، كما تلومه أشد اللوم على ارتكابه للمُحَرَّمَات، وتلومه بدرجة أقل عند اقتحامه للشبهات، أو تناوله للمكروهات.

وقد تلومه إذا ارتكب ما هو خلاف الأولى، على حَسَبِ درجته في الصَّلاح والالتزام في المراتب الثلاث، أهو ظالم لنفسه أم هو مقتصد أم هو سابق بالخيرات بإذن الله؟^(١)

يقول الحسن البصري في تفسيره «النَّفْسُ اللَّوَامَةُ»: لا يُلْقَى المؤمنُ إِلَّا يُعَاتَبُ نَفْسَهُ، ماذا أردتُ بأكلتي؟ ماذا أردتُ بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه^(٢)!

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٤)، تحقيق مصطفى بن علي بن عوض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

وقال الحسن أيضًا: المؤمن قَوَّام على نفسه، يحاسبها لله، وإنما خَفَّ الحساب على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة^(١).

وقال ميمون بن مهران: المؤمن أشدَّ حسابًا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريكٍ شحيح^(٢).

الضمير الحي:

وهذه «النفس اللوامة» هي التي يعبرون عنها في عصرنا بـ «الضمير الحي»، وهو الوازع الذاتي الذي لا يبرح يلوم الإنسان عند ارتكاب المخالفات، أو التفريط في الواجبات.

بل قد يشتدُّ هذا الوازع ويقوى حتَّى يعاقب صاحبه على تفريطه أو تعدّيه، فيلدغه لدغًا من داخله، بل قد يكويه كيًّا، كلما رقَّ حجابيه، وغلب إيمانه على هواه، وانقادت نفسه الأمانة لنفسه اللوامة.

فالنفس إذا قمت بتزكيتها وراقبتها وحاسبتها، تنتقل من الأمانة إلى اللوامة. أما النفس التي لا تلوم صاحبها، بفعل محذور، أو ترك مأمور، فهي النفس الميتة، لا تبالي بأي شيء، سيّان عندها الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وهناك من ماتت أنفسهم، كما نقول بالتعبير العصري: ماتت ضمائرهم، ولا يحشّون بأنهم موتى.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٥٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٥٧/٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩).

قالت إحدى الفنانات التائبات بعد أن هداها الله، وقد سُئِلت: كيف تشعرين الآن؟ قالت: أشعر كأني حَيِّتٌ من جديد، وكنتُ قبل ذلك من الموتى. وهذا تعبير صحيح.

هناك أناس ميّتون وهم أحياء؛ لأنّ الحياة ليست حياة الأبدان، الحياة حياة القلوب: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إذا رُزق الإنسان هذه النفس اللوامة، أو هذا القلب اليقظ، أو هذا الضمير الحي، فقد رُزق خيراً كثيراً؛ لأنه قلب أوتي الحكمة من الله. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٣ - النفس المطمئنة:

والنفس الثالثة أو الحالة الثالثة للنفس هي «النفس المطمئنة»، وهي التي اطمأنت برّبها وإلى ربّها.

كيف تطمئن النفس؟

وإنّما تطمئن النفس بالرسوخ في العلم، الذي يمنحها اليقين، ويزيل عنها كل ريب، ويزيل عنها كل زيغ، ويمنعها من أن تهب عليها رياح الفتنة، فتزلزلها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[آل عمران: ٧].

كما تطمئنُ النَّفسُ بالإيمان الذي ينزل عليها السكينة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، وكما قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وكذلك تطمئنُ النَّفسُ بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد اختلفوا في معنى الذكر المراد هنا: أهو التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والدعاء والاستغفار؟ أم هو القرآن الذي سمّاه الله الذكر في عدد من الآيات، فهو ذكرٌ بمعنى أنه تذكيرٌ من الله، وهو ذكرٌ بمعنى أنه تذكيرٌ بالله؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ففيه الرأيان المذكوران، وإن رجّح ابن القيم وغيره أنّ المراد بـ «ذكرى» في الآية: القرآن، بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦].

فإذا اطمأنت النَّفسُ بالعلم الرَّاسخ، وبالإيمان الصادق، وبالذكر الناطق، أمست أهلاً؛ لأن يخاطبها الله جلَّ شأنه بقوله: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

هذه النَّفسُ لا يعترها شكٌّ، ولا يصيبها قلق، ولا يمسُّها اضطراب، ولا تدخلها خيرة، ولا تُزلزلها مصيبة، ولا تستخفُّها نعمة، ولا يسحقها عدوٌّ، ولا يلعب بها صديق، ولا تغرُّها طاعة، ولا تؤسِّسها معصية. بل هي



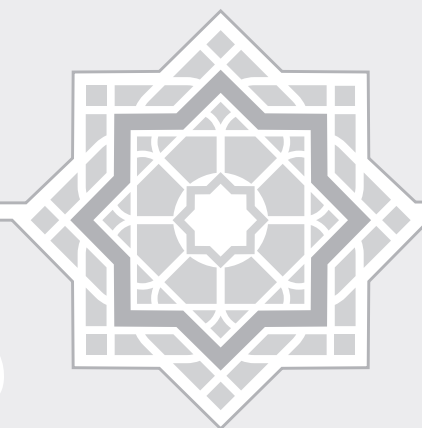
أبدًا مع الله، وبالله، ولله، ومن الله، وإلى الله، فهي ربّانية لحمًا ودمًا، قرآنية هدفًا وسبيلًا، محمدية محبة وأسوة، مُزجت بطعم الإيمان، حينما رضيتُ بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا.

ولا بدّ لهذه النَّفس من محطات لتهدئتها وكيفية ترويضها وتدريبها، وهي: محطات المراقبة والمحاسبة، اللتين سنتحدث عنهما بتفصيل يلائمهما.

* * *



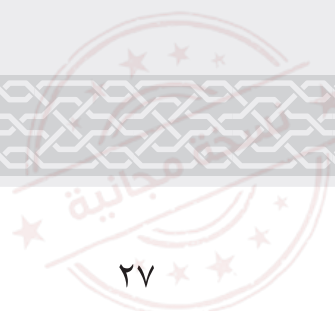
مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفصل الأول
المراقبة



- (١) المراقبة معناها وفضلها وأهميتها.
- (٢) حقيقة المراقبة ودرجاتها.
- (٣) مراحل المراقبة.
- (٤) مجالات المراقبة.
- (٥) من ثمرات المراقبة.







المراقبة معناها وفضلها وأهميتها

ما المراقبة؟

أما «المراقبة» فأصلها اللغوي من فَعَلَ: رَقَبَ يَرْقُبُ رَقَابَةً، بمعنى لحظ وتابع. ومنه نشأت المراقبات المختلفة في حياة الناس: المراقبة المالية، والمراقبة الإدارية، والمراقبة القانونية، والمراقبة التشريعية، والمراقبة على الصحف، والمراقبة الأمنية على حدود الأوطان.. وغير ذلك.

وفي عصرنا نشأت رقابة جديدة، تعرف باسم «الرقابة الشرعية» على المصارف والشركات، والمؤسسات المالية الإسلامية، وهي التي تلتزم في قانونها الأساسي بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية في كل معاملاتها.

ومن هذه المادة اشتقت صفة «رقيب»، وهو الذي يرقُبُ الأشياء ويتابعها بدقّة.

من أسماء الله الحسنى: الرقيب

ومن المعلوم أنّ من أسماء الله الحسنى: «الرقيب»؛ لأنّه يراقب أعمال عباده كلها، ظاهرها وباطنها، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها،

ولا يخفى عليه خافية منها، ولذا قال في كتابه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ومن هذه المادة أيضًا اشتقَّ الفعل الرباعي: رَاقَبَ يراقب مُراقَبَةً.

فكلمة «المراقبة» هي مصدر قياسيٌّ لفعل «راقَبَ يراقب»، وهو مأخوذ من مادة رَقَبَ الَّتِي تدلُّ على الانتصاب لمراعاة شيء، والمَرْقَبُ: المكان العالي يقف عليه الناظر. ومن ذلك اشتقاق الرَّقَبَةِ؛ لأنها منتصبَةٌ^(١).

المراقبة الذاتية من داخل الإنسان:

والمراقبة الَّتِي نتحدَّث عنها هنا ليست إدارة في وزارة أو مؤسسة، بل نعني بها «المراقبة الذاتية» من داخل الإنسان نفسه، فهو المراقب لها، وهو الرقيب عليها، وهو المتابع الملاحظ المُدَقِّق لحركاتها وسكناتها، وغدواتها ورؤُحاتها، ما كَبُرَ منها وما صَغُرَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ما استقام منها وما انحرف، يرقبه ويرصده ويتابعه، حتَّى إنه ليرصد حركات نفسه، وخطرات قلبه، وتقلُّبات نيَّته، وإن لم يره أحد من الخلق، ولم يحسَّ به مَنْ حوله، لديه تحكُّم أو: «كنترول ذاتي»، كما يقولون في عصرنا.

آفة الغفلة:

فالمراقبة أن يحيا الإنسان بقلبٍ يَقْظ، لا بقلب غافل، فَإِنَّ شَرَّ مَا يُصَاب به النَّاس هو: الغفلة، الغفلة عن أنفسهم، الغفلة عن ربِّهم، الغفلة عن مصيرهم، وأن يعيشوا لدنياهم ولا يتفكروا في آخرتهم، وألَّا يذكروا الجنة ولا النَّار، وألَّا يذكروا إلَّا حظوظ أنفسهم، غافلين عن حقِّ ربهم وَعَجَلٌ.

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (ر. ق. ب).

وقد جعل الله أصحابها حطب جهنم، ووقود النار، وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الذي جعلهم أضل من الأنعام: الغفلة، إنهم يعيشون في غفلة وفي نسيان، ذاهلين عن حقيقة أنفسهم ومهمتهم ورسالتهم في هذه الحياة، فعطّلوا الأجهزة التي منحهم الله إياها ليطلوا بها على الوجود من حولهم، ويرتحلوا من الكون إلى المكوّن، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الأثر إلى المؤثر.

لهم قلوبٌ ولكنهم لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ ولكنهم لا يبصرون بها، ولهم آذانٌ ولكنهم لا يسمعون بها، خرّبوا هذه الأجهزة؛ لأنّها لا تُستخدم لما خلقها الله له، لم ينظروا نظر المعبر، لم يسمعوا سماع المهتدي، لم يتفكروا تفكر المؤمن: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

المراقبة: أن يرزق الإنسان اليقظة والصحوّة. هذه التي تفتح عين قلبه على الحقيقة لينظر: ما هو؟ ما أنت أيّها الإنسان؟ أيّها الإنسان أنت لست إلهاً في هذا الكون، أيّها الإنسان لقد خلقت من عدم، وستنتهي إلى عدم، أنت تراب يمشي على التراب وسينتهي إلى التراب: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

أيّها المُحدّث الفاني، أيّها الإنسان الضعيف، انظر إلى نفسك، وانظر إلى ربّك، راقب نفسك، اعلم أنّ الله تبارك وتعالى مُطَّلِع على كلّ ما تعمله، على كلّ قول تقوله. على كلّ لفظ يصدر منك، على كلّ خطوة تخطوها، بل على كلّ خطرة تخطر ببالك.

أهمية الرقابة الذاتية:

هذه الرقابة الداخلية هي أهم من أيّ رقابة إداريّة، أو رقابة ماليّة، أو رقابة قانونيّة، لأنّ الإنسان يجعل من نفسه رقيباً على نفسه، رقابة ذاتية، والإنسان في حقيقته إنّما يقاد من داخله لا من خارجه، من باطنه لا من ظاهره، من قلبه لا من جوارحه، من عقله لا من أذنه.

هذه القيادة إنّما تأتي من هذه الرقابة الذاتية الناشئة من الإيمان واليقين والتّقوى والحياء من الله.

والقوانين وحدها لا تستطيع أن تصنع إنساناً صالحاً، ولا مجتمعاً صالحاً. كم من أناس تحايلوا على القوانين، بل إنّ بعض من يضعون القوانين هم أول من يخرقونها.

وماذا يصنع القانون فيمن يملك القوة، ويستطيع أن يسخر القانون لمصلحته؟!!

هناك من هو أعلى من القانون: القانون من داخل النفس، القانون الذي يجعل الإنسان يترك كلّ شيء، وهو قادر على أن يفعله، يترك الحرام خشية الله، بل يترك الشبهات، استبراءً لدينه وعرضه، بل يترك المكروهات، بل يترك بعض المباحات، حتّى لا يقع فيما هو شرٌّ منها، «لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين، حتّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به بأس»^(١).

هذه الرقابة أهم من هذه القوانين التي يصنعها الناس.

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقاق (٣١٩/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السعدي.

ما لم يُصنَع الإنسان المؤمن الذي يخشى الله تبارك وتعالى ويراقبه، يمكن أن تُستباح المُحرّمات، وأن تُنهب الأموال، وأن تُعطّل المصالح، وأن تؤكل الحقوق، وأن تُنهب ممتلكات النَّاس بالباطل، ما دام الإنسان قادرًا على هذا.

قديمًا قالوا: القادر فاجر، وقال في ذلك أبو الطيّب المتنبي:
والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم^(١)
الإنسان ظلومٌ جهولٌ إذا ترك وحده من غير شيء يلجمه ويلزمه
ويزجره.

فما الذي يجعل الإنسان يترك الظلم ولا يتعدى على غيره؟ لا بد من علة كما قال المتنبي، وأعظم العلل التي تطفم النفس عن شهواتها، وتلجم الإنسان بهذا اللجام الذي يمنعه عن كل شر هو: مراقبة الله تبارك وتعالى وتقواه. هذا أعظم من كل قوانين يفكر فيها الناس.

قال العلامة الشيخ رشيد رضا رحمته الله تعالى: «وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى، والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر مُعدٍّ للنفوس ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا ولسعادتها في الآخرة.
وكما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلّية بها لسعادة الآخرة، تؤهلها لسعادة الدنيا أيضًا.

انظر هل يُقدم من ثلابس^(٢) هذه المراقبة قلبه على غشّ النَّاس ومُخادعتهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلًا لأموالهم بالباطل؟ هل

(١) ديوان المتنبي ص ٥٧١.

(٢) لابس أي: خالطه واتصل به. الوسيط مادة: (ل. ب. س).

يحتال على الله تعالى في منع الزكاة، وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يحتال على أكل الربا؟ هل يقترف المنكرات جهاراً؟ هل يجترح السيئات ويُسدل بينه وبين الله ستاراً؟

كلا، إِنَّ صاحب هذه المُرَاقبة لا يسترسل في المعاصي؛ إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى، وإذا نسي وألَمَّ بشيء منها يكون سريع التذكر، قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] (١).

رقابة الله سبحانه على خلقه:

المؤمن يراقب نفسه من حيث إِنَّ الله جلَّ جلاله يُراقبها قبله، ويرى ظواهرها وخوافيها، ولا يغيب عنه شيء من دقائقها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن يَّجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال وَجَلَّ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣، ١٤]، إنه يعلم ما في الصدر، ما يكنه القلب، فكيف لا يعلم ما يُظهر اللسان، وإن كان بصوت خافت؟!

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. أي: ليس كمن هو ليس كذلك!

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]، وقال وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] أي: مراقباً لأعمالكم.. إلى غير ذلك من الآيات.

(١) تفسير المنار (١١٧/٢، ١١٨)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

المؤمن الحق يعلم أن الله محيط به، وأن علمه محيط به، لا يخرج عنه شيئاً قليلاً ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، مُطَّلِع على مكنون الضمائر، وعلى خفي السرائر، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. فهو يعلم أن الله ﷻ محيط به علماً وخبراً، يعرف ويعلم، ويطلع على كل ما يقوم به، بالليل أو النهار، في السر أو الجهار، لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه سر ولا علانية.

المؤمن الحق يراقب الله:

ولهذا فهو يراقب الله قبل أن يراقب الناس. وليس شأنه كالمنافق الذي يراقب الناس ولا يراقب رب الناس.

الناس يقولون: احذروا الشيطان لها آذان! يخشون أن يسمعهم أحد من وراء الشيطان، ولكن هناك قبل الشيطان وما وراء الشيطان من يسمع ويرى، يسمع ديب النملة على الصفاة، على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء! حيثما ذهب فإله معك، لو أغلقت على نفسك ألف باب وباب، لو اختفيت عن أعين الناس، لو استطعت أن تموه على الخلق، وأن تستتر عن أعينهم، فلن تستطيع أن تستتر عن عين الله ﷻ. عين الله لا تغفل ولا تنام، عين الله تبصر وترى.

فهذا ما ينبغي على الإنسان المؤمن: أن يراقب الله ﷻ، أن يعلم الإنسان بقرب ربه منه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، بمعنيته له: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

المؤمن يراقب ربه في كل كبيرة وصغيرة، في كل حركة وسكنة، لا يغفل عن ربه طرفه عين؛ لأن الله ﷻ لا يغفل عنه.

المراقبة التي تصنع القلب الحي:

إذا نظرت إلى شيء، فاعلم أنّ نظر الله إلى ما تنظر إليه أسبق من نظرك. لا بدّ أن تستحضر في نفسك هذه المراقبة.

هذه المراقبة هي التي تصنع القلب الحي، تصنع ما يسمّونه اليوم «الضمير». الضمير: هو ذلك القلب الحساس المرهف الحس، الذي يرضى الله تبارك وتعالى ويراقبه في كل أمر من الأمور.

ودنيا الناس اليوم رغم التقدم التقني ينقصها هذه الضمائر المؤمّنة، هذه القلوب الحية.

وقد جرّ الفساد على دنيا المسلمين قلّة هذه القلوب، وكثرة القلوب الغافلة عن الله، وعن المصير، وعن الحساب والجزاء، وعن الجنة والنار، ولهذا تمرّغ كثير من أبناء الأمة في أوحال الشهوات، وفي نجاسات الذنوب، ومشوا وراء الدنيا، لا يبالون أكلوا من حلال أم من حرام.

استحلّ الناس الحرام، وأصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وسار الناس في ركاب الظلمة والطاغين؛ لأنّ الناس فقدوا رقابة الله وعيّن.

الآيات والأحاديث الواردة في المراقبة:

لذا فالمتدبر في كتاب الله وسنة رسوله يجد أنّهما اهتمتا بموضوع المراقبة، وترسيخها في النفوس، وقد عقد الإمام النووي في كتابه النافع الذي لا يخلو كثير من بيوت المسلمين منه، كتاب: «رياض الصالحين»؛ باباً في المراقبة، وهو الباب الخامس، أورد فيه عدداً من الآيات تقدّم بعضها، ومما أورده ممّا لم يتقدم ذكره: قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ مُرْصِدٍ﴾ [الفجر: ١٤] أي: يرصد أعمال العباد لا يفوته منها شيء. قال الجوهرى: الراصد للشيء: الرقيب له، والمرصاد: الطريق^(١).

ثم أورد الإمام شرف الدين النووي تسعة من الأحاديث، نقتصر على بعضها، معلقين عليها وناقلين ما نراه مناسباً من كلام الشراح: قال رحمته الله تعالى: «وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ:

فَالأَوَّلُ: عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديداً بياض الثياب، شديداً سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد.. وفيه: أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

والمراد بالإحسان: إتقان العبادة بأدائها على وجهها المأمور به مع رعاية حقوق الله تعالى ومراقبته، واستحضار عظمته وجلاله ابتداء واستمراراً. وهذان الحالان: المشاهدة والمراقبة هما ثمرتا معرفة الله تعالى وخشيته»^(٣).

(١) انظر: الصحاح مادة: (ر. ص. د).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨)، وأحمد (١٨٤).

(٣) دليل الفالحين (٢٢٦/١)، تحقيق خليل مأمون شيخا، نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٤،

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

كلام قيم لابن القيم على قول رسول الله في الإحسان:

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام قيم عن علاقة الإحسان بالمراقبة ننقله هنا لفائدته.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» في سبب استيلاء السكينة الإيمانية: «مراقبة العبد لربه جلّاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة، أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب، وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه» فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه»^(١).

وقال ابن القيم في «رسالته لأحد إخوانه»: «مشهد الإحسان؛ وهو مشهد المراقبة، وهو: أن يعبد الله كأنه يراه.

وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا، أمرًا ناهيًا، يحب ويُبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له.

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١٥٥/٤، ١٥٦)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

فحُظُّ العبد من القرب من الله على قدر حُظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة، حتَّى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد»^(١).

اتق الله حيثما كنت:

وذكر الإمام النووي في «رياض الصالحين» أيضًا حديث أبي ذر جُنْدُب بن جِنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(٢).

قال شارح رياض الصالحين ابن كمال باشا: «قوله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»: أمرٌ بملازمة التَّقْوَى في جميع الأماكن والأحوال والأزمنة، وذلك لأنَّ «حيث» من ظروف المكان بمنزلة «حين» في الأزمنة، فمن اتَّقَى اللَّهَ في جميع الأمكنة، يكون متقيًا في جميع الأحوال والأزمنة»^(٣).

وقال ابن رجب: «المقصود أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لما وصَّى معاذًا بتقوى الله سرًّا وعلانية، أرشده إلى ما يُعِينُهُ على ذلك، وهو أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل ذي هيبة من قومه.

(١) من رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٣٨، تحقيق عبد الله بن محمد المديفر، نشر مطابع الشرق الأوسط، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٢) رواه أحمد (٢١٩٨٨)، وقال مخرَّجه: حسن. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في الإيمان (٥٤/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن معاذ بن جبل.

(٣) الفوائد المترعة الحياض في شرح كتاب الرياض (٣١٩/١)، تحقيق لجنة بإشراف نور الدين طالب، نشر وزارة الأوقاف، قطر، ط ١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

ومعنى ذلك: أن يستشعر دائماً بقلبه قرب الله منه وإطلاعه عليه، فيستحيي من نظره إليه.

وقد امثل معاذ ما وصّاه به النبي ﷺ، وكان عمر قد بعثه على عمل، فقدّم وليس معه شيء، فعاتبته امرأته، فقال: كان معي ضاغط. يعني: من يضيق عليّ ويمنعني من أخذ شيء. وإنما أراد معاذ ربّه ﷻ، فظنّت امرأته أن عمر بعث معه رقيباً، فقامت تشكوه إلى الناس^(١).

ومن صار له هذا المقام حالاً دائماً أو غالباً، فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم.

وفي الجملة: فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين.

وفي الحديث: «ما أسرَّ عبدٌ سريرةً، إلا ألبسه الله رداءها علانيةً، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ». روي هذا مرفوعاً^(٢)، وروي عن ابن مسعود من قوله^(٣).

وقال أبو الدرداء: ليتّق أحدكم أن تلعه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

(١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (١٧١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٩٠٦)، والكبير (١٧١/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٧٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه حامد بن آدم، وهو كذاب. عن جندب بن سفيان.

(٣) رواه أبو يوسف في الآثار (٨٨٦).

وقال سليمان التيمي: إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ، فيصبح وعليه مَذَلَّتُهُ^(١).

وقال غيره: إِنَّ الْعَبْدَ لِيَذْنُبُ الذَّنْبَ فيما بينه وبين الله، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى إِخْوَانِهِ، فيروُنَ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ^(٢).

وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار، فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد النَّاسِ بسخط الله عاد حامده من النَّاسِ ذامًّا له.

قال أبو سليمان: إِنَّ الْخَاسِرَ مِنْ أَدَى لِلنَّاسِ صَالِحَ عَمَلِهِ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد^(٣).

احفظ الله يحفظك:

الحديث الثالث الذي ذكره الإمام النووي حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»^(٤).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٥).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٤/١٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٤٠٩/١ - ٤١١)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٤) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال:

حسن صحيح.

والمراد: «احفظ الله» أي: احفظ أمر الله بمراقبته وملازمة تقواه، واجتناب نواهيه، وما لا يرضاه، فلا يراك حيث نهاك. «يحفظك» في نفسك وأهلك، ودنياك ودينك؛ إذ الجزء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

«احفظ الله تجده تُجاهك» أي: تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة حيثما كنت، فتأنس به، وتغنى به عن خلقه، فهو كالتأكيد لما قبله. فالمعنى - كما قال ملا علي قاري - أنك تجده حينئذ كأنه حاضر تلقاءك وقُدَّامك، وتشاهده في مقام إحسانك وإيقانك وكمال إيمانك كأنك تراه، بحيث تغنى بالكلية عن نظرك ما سواه، فالأول: حال المراقبة، والثاني: مقام المشاهدة^(١).

مراقبة الصحابة:

الحديث الرابع: عن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(٢). وقال - أي البخاري - : «الموبقات»: المهلكات.

أي: تعملون أعمالاً من الذنوب، وتحسبونها هينة، وتظنونها من الصغائر، وكنا نعدّها من الموبقات التي هي عند الله عظيمة.

وفي الحديث شدّة مراقبة الصحابة لله تعالى، وكمال استحيائهم منه، حتّى إنهم يرون تلك الأمور التي استهون غيرهم الوقوع فيها مهلكات لهم، لعظم شهودهم جلال الله تعالى وعظمته.

(١) مرقاة المفاتيح لملا علي القاري (٣٣٢٣/٨)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢).

وفي الحديث أيضًا: أَنَّ الإنسان ينبغي له أن يحذر من صغار الذنوب، فلعلها تكون المهلكة له في دينه، كما يحترز من يسير السموم خشية أن يكون فيها حتفه.

أحاديث نبوية أخرى عن المراقبة:

وهناك أحاديث كثيرة أخرى تتصل بالمراقبة سوى ما اختاره النووي في «رياضه» في باب المراقبة، ومنها:

١ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفرٍ يمشون، أخذهم المطر، فأووا إلى غارٍ في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل. فانطبقت عليهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرخت عليهم^(١)، حلبتُ، فبدأتُ بوالدي فسقيتهما قبل بنّي، وإنه نأى بي ذات يومٍ الشجر، فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجنثُ بالحلاب، فقمْتُ عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون^(٢) عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، نرى منها السماء. ففرج الله منها فرجةً، فرأوا السماء.

(١) فإذا أرحت عليهم: أي إذا رددت المشية من المرعى إليهم.

(٢) يتضاغون: أي يصيحون ويستغيثون من الجوع.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها. فأبت حتى آتيتها بمائة دينار. فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئت بها، فلما وقعت بين رجلها^(١) قالت: يا عبد الله، اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه^(٢)! فقمْتُ عنها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجةً. ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي! فعرضت عليه فرقه، فرغب عنه. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها، فجاءني، فقال: اتق الله. ولا تظلمني حقي. قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعاءها، فخذها. فقال: اتق الله، ولا تستهزأ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك. خذ ذلك البقر ورعاءه. فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي. ففرج الله ما بقي^(٣).

٢ - وعن أبي هريرة رضي عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يُظْلَم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(٤).

(١) فلما وقعت بين رجلها: أي جلست مجلس الرجل للوقاع.

(٢) لا تفتح الخاتم إلا بحقه: الخاتم كناية عن بكارتها. وقوله بحقه: أي بنكاح لا بزنى.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢١٥)، ومسلم في الرقاق (٢٧٤٣).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.



وتلك المراقبة الدقيقة، وهي أن ينكف المؤمن عن معصية الله، وإن كان لا يراه أحد، وأن يقوم بطاعة الله، وإن كان لا يشاهده أحد، كمن «دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله. وكمن تصدّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فاستحقّا أن يكونا من السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله».

٣ - وعن معاذ رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، أوصني! قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدّد نفسك من الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كله!» قال: «هذا». وأشار بيده إلى لسانه^(١).

٤ - «الحياء من الإيمان»^(٢).

قال المناوي: «من الإيمان» أي: من أسباب أصل الإيمان وأخلاق أهله، تمنع من الفواحش، وتحمل على البر والخير كما يمنع الإنسان صاحبه من ذلك، فعلم أن أول الحياء وأولاه الحياء من الله، وهو ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك وكمالهما إنما ينشأ عن المعرفة ودوام المراقبة»^(٣).

٥ - عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «استحيوا من الله ﻋَجلَ حقّ الحياء» قال: قلنا: يا رسول الله، إننا نستحي

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٦٦)، والطبراني (١٧٥/٢٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٧٨): رواه ثقات، إلا أن أبا سلمة لم يدرك معاذًا، ورواه البيهقي في كتاب الزهد من رواية إسماعيل بن رافع المدني عن ثعلبة بن صالح. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤٤): حسن لغيره.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

(٣) فيض القدير (٤٢٦/٣)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ.

والحمد لله. قال: «ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حقَّ الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، وليحفظ البطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله وعجل حقَّ الحياء»^(١).

قال المناوي في «التييسير» في شرحه لقوله ﷺ: «فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء»: «أي أورثه ذلك الفعل الاستحياء منه تعالى، فارتقى إلى مقام المراقبة الموصول إلى درجة المشاهدة.

قال بعضهم: فمن استحيا من الله حقَّ الحياء، ترك الشهوات، وتحمل المكاره والمشاق، حتى يصير نفسه مدموغة، فعندها تظهر محاسن الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء في قلبه، ويغزر علمه بالله، فيعيش غنياً به ما عاش»^(٢).

وقال المناوي في «فيض القدير»: «فحق الحياء أن يُستحيا منه، ويصون جوارحه عما يعاب فيها. وأصل ذلك ورأسه: ترك المرء ما لا يعنيه في الإسلام، وشغله بما يعينه عليه، فمن فعل ذلك أورثه الاستحياء من الله. والحياء مراتب: أعلاها الاستحياء من الله تعالى ظاهراً وباطناً، وهو مقام المراقبة الموصول إلى مقام المشاهدة»^(٣).

(١) رواه أحمد (٣٦٧١)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٨)، وقال: هذا حديث غريب. وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٦١)، والحاكم في الرقاق (٣٢٣/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (١٤٦/١)، نشر مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) فيض القدير (٤٨٧/١).



من أقوال السلف في المراقبة:

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى. فسأله عن تفسيرها، فقال: كن أبداً كأنك ترى الله وَعَجَلٌ^(١).

وقال عبد الواحد بن يزيد البصري: إذا كان سيدي رقيباً عليّ، فلا أبالي بغيره^(٢).

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظمي. فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك، لقد اجترأت على أمرٍ عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممّن يملك الوفاء، وعليك بالحدز ممّن يملك العقوبة^(٣).

وقال الإمام العابد الحافظ الحجة الفقيه أبو عبد الله، محمد بن المبارك بن يعلى، القرشي الصوري القلانسي: علامة الحب لله: المراقبة للمحبوب، والتحرّي لمرضاته^(٤).

وقال أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي: أفضل ما يُلزم الإنسان به نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم^(٥).

(١) إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر هذه الآثار في إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤، ٣٩٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٩١/١٠)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٥) هذا القول نقله القشيري سماعاً عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول. فذكره.

أي: يزن ما هو فيه بالعلم الشرعي.

وقال شيخ الشام في وقته أحمد بن عطاء الروذباري: أفضل الطاعات: مراقبة الحق تعالى على دوام الأوقات.

وقال أبو محمد أحمد بن محمد الجريري: أمرنا هذا مبني على أصليين: أن تلزم نفسك المراقبة لله وَعَلَيْكَ، ويكون العلم على ظاهره قائماً.

وقال أبو عثمان الجدي النيسابوري: قال لي أبو حفص عمرو بن مسلمة شيخ الجنيد: إذا جَلَسْتَ للناس، فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يَغُرَّنْكَ اجتماعهم عليك؛ فإنهم يُراقبون ظاهرك، والله رقيبٌ على باطنك^(١).

وقال رجل للجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَمَ أَسْتَعِينُ عَلَى غَضِ الْبَصَرِ؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه^(٢).

وقال الجنيد أيضاً: إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِالْمِرَاقَبَةِ مَنْ يَخَافُ عَلَى فُوتِ حِظِّهِ مِنْ رَبِّهِ وَعَلَيْكَ^(٣).

حكايات عن المراقبة:

وحُكي أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ الْمَشَايخِ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ تَلْمِذٌ شَابٌ، وَكَانَ يَخْصُهُ وَيُكْرِمُهُ وَيَقْدِّمُهُ وَيَقْبَلُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْبَلُ عَلَى غَيْرِهِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: كَيْفَ تَكْرُمُ هَذَا وَهُوَ شَابٌّ وَنَحْنُ شَيْوخٌ؟! فِدَعَا بَعْدَهُ

(١) الرسالة القشيرية (٣٣٠/١، ٣٣١)، تحقيق الإمام الأكبر عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة. وإحياء علوم الدين (٣٩٦/٤، ٣٩٧).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

(٣) الرسالة للقشيري (٣٣٠/١)، بلفظ: مَنْ تَحَقَّقَ فِي الْمِرَاقَبَةِ خَافَ عَلَى فُوتِ حِظِّهِ مِنَ اللَّهِ وَعَلَيْكَ.

طيور، وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا، وقال: ليذبح كلُّ واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد، ودفع إلى هذا الشاب مثل ذلك، وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبحًا، ورجع الشاب والطائر حي في يده! فقال له: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: أمرتني أن أذبحه حيث لا يراه أحد، وأنا لم أجِد موضعًا لا يراني فيه أحد، إذ الله مَطَّلِع عليّ في كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة، وقالوا: حُق لك أن تكرم^(١).

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جاريةً عن نفسها، فقالت له: ألا تستحيي؟ فقال: مِمَّن أستحي؟ وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: ويحك فأين مكوبها^(٢)؟!

وحكى ابن عساكر أنَّ عمر بينا هو يُعُشُّ بالمدينة، أعياء، فاتكأ على جدار، فإذا امرأة تقول لا بنتها: قومي إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء. فقالت: يا أمَّته، وما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته؟ قالت: نادى مناديه: لا يُشَاب اللبن بالماء. فقالت لها: يا بنتاه، قومي فامدقيه. فإنَّك في موضع لا يراك عمر، ولا منادي عمر. فقالت الصبية: ما كنت أطيعه في الملاء، وأعصيه في الخلاء. وعمر يسمع كلَّ ذلك، فقال: يا أسلم، علِّم الباب، واعرف الموضع. ومضى في عَسَّه. فلما أصبح قال: يا أسلم، امضِ إلى ذلك الموضع، فانظر من القائلة والمقول لها، وهل لهم من بعل. فإذا أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها، ليس لهم رجل. فأخبر عمر، فجمع ولده، وقال: فيكم من يحتاج

(١) إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٨٥٢).

إلى امرأة أزوجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء؛ ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فزوّجها من عاصم، فولدت له أم عاصم، فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان؛ فولدت له عمر بن عبد العزيز^(١).

وعن نافع أن عبد الله بن عمر لقي راعيًا بطريق مكة، قال له: بعني شاة؟ قال: ليست لي. قال له: فتقول لأهلك أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟! قال: اسمع، وافني هاهنا إذا رجعت من مكة، ومُرّ مولاك يوافيني هاهنا. فلما رجع لقي رب الغنم واشترى منه الغنم، واشترى منه الغلام، فأعتقه ووهب له الغنم^(٢).

كلام الحارث بن أسد المُحَاسِبِي عن المراقبة:

سئل أبو عبد الله المُحَاسِبِي عن المراقبة، فقال: أوّلها: علم القلب بقُرب الرب تعالى^(٣).

وقال المُحَاسِبِي: المراقبة دوام علم القلب بعلم الله وَجَلَّ في السكون والحركة علمًا لازمًا مُقْتَرِنًا بصفاء اليقين^(٤).

وقال المُحَاسِبِي أيضًا: والمراقبة في ثلاثة أشياء: مراقبة الله في طاعته بالعمل، ومراقبة الله في معصيته بالترك، ومراقبة الله في الهمّ والخواطر، لقول النبي ﷺ: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٥).

(١) تاريخ دمشق (٢٥٣/٧٠)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) رواه أبو داود في الزهد (٢٩٣)، والبيهقي في الشعب (٤٩٠٨).

(٣) إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

(٤) الوصايا للمحاسب ص ٣١٣ بتصرف واختصار، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الكتب

العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) عن أبي هريرة.

ومراقبة العبد لله وَعَلَى أَشَدُّ تَعَبًا عَلَى البدن من مكابدة قيام الليل وصيام النهار وإنفاق المال في سبيل الله ^(١).

وقال بعضهم: المراقبة: مراعاة القلب لملاحظة الحق، مع كل خطوة وخطرة.

وقال الحكيم الترمذي صاحب «نوادير الأصول»: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نِعَمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال سهل التستري: لم يتزَيَّن القلب بشيءٍ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأنَّ الله شاهده حيث كان.

وسُئِلَ بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]: ذلك لمن خشي ربَّه؟ فقال: معناه: ذلك، أي الرضوان، لمن راقب ربَّه وَعَلَى، وحاسب نفسه، وتزوَّد لمعاده ^(٢).

وعن أبي عثمان الحنَّاط قال: سمعتُ ذا النون يقول: ثلاثة من أعمال المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عَظَّم الله، وتصغير ما صَغَّر الله ^(٣).

وسُئِلَ ذو النون: بِمَ ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها رَوَّغان، واجتهادٌ ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في

(١) رسالة المسترشدين ص ١٨١، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٣٩٧/٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٢٨).

السِّرِّ والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومُحَاسَبَةُ نفسك قبل أن تُحَاسَبَ.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا تَخْفِيهِ عَنْهُ يَغِيبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أُسْرِعُ ذَاهِبٍ وَأَنَّ غَدًا لِلنَّازِرِينَ قَرِيبٌ^(١)

قال أبو نعيم في ترجمة أبي عبد الله بن فاتك: وكان من المراقبين، ولزم الثغور، ملتزمًا للشهود والحضور، وقد سُئِلَ عن المراقبة، فقال: إذا كنتَ فاعلاً فانظرَ نظرَ الله إليك، وإذا كنتَ قائلًا فانظرَ سَمَعَ الله إليك، وإذا كنتَ ساكتًا فانظرَ علمَ الله فيك، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]^(٢).

وسئل أبو الحسن البوشنجي عن الفتوة؟ فقال: حُسْنُ المراقبة، ودوام المراقبة، وألا ترى من نَفْسِكَ ظاهراً يخالفه باطنك^(٣).

وقال أحمد بن جعفر: من لم يُحْكَمْ فيما بينه وبين مولاه التَّقْوَى والمراقبة، حُجِبَ عن الكشف والمشاهدة^(٤).

وقال أبو القاسم القشيري: المراقبة عند هذه الطائفة: أن يصير الغالب على العبد ذكره لربه بقلبه، مع علمه بأنه تعالى مُطَّلِعٌ

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه ص ٣٤، نشر دار بيروت، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) حلية الأولياء (٣٥٨/١٠).

(٣) حلية الأولياء (٣٨٠/١٠).

(٤) حلية الأولياء (٤٠٥/١٠).

عليه، فيرجع إليه تعالى في كل حال، ويخاف سطوات عقوبته في كل نفس، ويهابه في كل وقت، فصاحب المراقبة يدع من المخالفات استحياء منه وهيبة له، أكثر ممّا يترك مَنْ يدع من المعاصي لخوف عقوبته، وإنّ من راعى قلبه، عدّ مع الله أنفاسه، فلا يضيع مع الله نفساً، ولا يخلو عن طاعته لحظة، كيف وقد علم أن الله يحاسبه على ما قلّ وجلّ^(١).

وقال الإمام الغزالي في «الإحياء»: «المراقبة هي ملاحظة الرّقيب، وانصرافُ الهمِّ إليه، فمن احترز عن أمر من الأمور بسبب غيره، يقال: إنه يراقب فلاناً، ويراعي جانبه.

ونعني بهذه المراقبة: حالة للقلب، يُثمرها نوعٌ من المعرفة، وتُثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب»^(٢).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: الحقُّ وعِزُّ أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنّه عامل العبد معاملة الغائب عنه، البعيد منه، فأمر بقصد نيّته، ورفع اليدين إليه، والسؤال له.

فقلوب الجُهل تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحقّقت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفّوا الأكفّ عن الخطايا، والمتيقّظون علموا قربهم فحضرتهم المراقبة، وكفّتهم عن الانبساط^(٣).

(١) الكاشف عن حقائق السنن للطبيي (١٧٩٥/٦)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ومروقة المفاتيح لعلي القاري (١٥٧٦/٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١٠/٦).

(٣) صيد الخاطر ص ٢١٣، تحقيق حسن المساحي سويدان، نشر دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ -

وقال مرة: من وقف على صراط الاستقامة، وبيده ميزان المراقبة، ومحك الورع، يستعرض أعمال النفس، ويرد البهرج إلى كير التوبة، سلم من رد الناقد يوم التقبيض^(١).

وقال السهروردي في «عوارف المعارف»: «المراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه، فما دام هذا العلم ملازمًا لقلبه فهو مراقب، والمراقبة عين الذكر وأفضله»^(٢).

كلام ابن القيم في المراقبة:

قال الإمام ابن القيم في «المدارج»: «المراقبة: دوام علم العبد وتيقُّنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين، وهي - أي: المراقبة - ثمرة علم العبد بأنَّ الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، مطلعٌ على عمله كل وقت، وكل طرفة عين»^(٣) اهـ.

وما أحسن ما قيل:

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرَعَى خَوَاطِرِي وَآخَرَ يَرَعَى نَاطِرِي وَجَنَانِي^(٤)

(١) المدهش لابن الجوزي ص ٣٣٥، تحقيق د. مروان قباني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) عوارف المعارف ص ٢٣٠، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) مدارج السالكين (٦٥/٢)، تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٤) البيت للبحري، انظر: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (١٤٥/٦)، نشر سنة ١٣٩١هـ. وهو في ديوانه (٢٦٨٢/٥)، تحقيق حسن كامل الصيرفي، نشر دار المعارف ط ٣. وهو ضمن الشعر المنسوب للبحري.



وقال ابن القيّم في «المدارج»: «ومقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة»^(١).

ونقل عن الهروي: وتوبة الخواص من تضييع الوقت، فإنه يفضي إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدر عين الصحبة.

قال: وبدوام المراقبة والتمكن في مقام الإحسان تنقشع عن صاحبه سُحُبُ الغفلات، ولم تشغله عن تلك الحضرة الشواغل الملهيات.

وقال السفّاريني في «غذاء الألباب»: «من كان في مقام المراقبة في جميع حركاته وسكناته فكل حركاته وسكناته قربات وطاعات. فكم بين العارف المتيقّظ والجاهل الغفّال من البُعد والبون»^(٢).

وقال ابن عطاء في الحكم: إلهي عَمِيتَ عَيْنٌ لَا تَرَاكُ عَلَيْهَا رَقِيبًا^(٣).

* * *

(١) مدارج السالكين (١/١٥٧).

(٢) غذاء الألباب (٢/٣٦٠)، نشر مؤسسة قرطبة، مصر، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٣) الحكم العطائية وشرح الشيخ زروق عليها ص ٥٠٧، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.



حقيقة المراقبة ودرجاتها

ينبغي للمسلم إذا أراد مرضاة ربه أن يراقب الله تعالى في كل أعماله، إذا صلى، إذا قرأ القرآن، إذا قام بعمل ما، عليه أن يُراعي أن الله سبحانه يراه، كما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور، حينما سُئِلَ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

«أن تعبد الله كأنك تراه»: حينما يعمل الإنسان عملاً لمخلوق مثله، ويرى أن صاحب العمل واقف، ينظر إليه ويراقبه، فإنه يُجوّده ويتقنه ويُحكمه ويُحسنه ما استطاع؛ لأنه يريد أن يأخذ صاحب العمل أو ربُّ المؤسسة عنه فكرةً حسنة، عسى أن يرقّيه أو يعطيه علاوةً، أو نحو ذلك من كل ما يحرص الناس عليه من متاع الدنيا.

فكيف إذا كان الحاضر معك هو الله صاحب الخلق والأمر، ربُّك وربُّ العالمين؟

الإحسان بين المشاهدة والمراقبة:

إذن فالإحسان هو أن تعبدك كأنك تراه. هذه هي المشاهدة، وهذا هو الشُّهود.

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.



«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»: تنزل من مقام الشهود إلى مقام المراقبة. فإذا لم تستحضر رؤية الله وشهوده، فاستحضر أنه يراك ويطلع عليك. قال الإمام ابن جزي الكلبى الغرناطي في كتابه: «التسهيل لعلوم التنزيل» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]:

«إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف، أصله: علم وحال، ثم يثمر حالين:

أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه، ناظر إليه يرى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كل ما يخطر على باله.

وأما الحال: فهي ملازمة هذا العلم للقلب، بحيث يغلب عليه، ولا يغفل عنه، ولا يكفي العلم دون هذه الحال، فإذا حصل العلم والحال: كانت ثمرتها عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة: ترك المعاصي، والجد في الطاعات.

وكانت ثمرتها عند المقرّبين: الشهادة التي توجب التعظيم والإجلال لذي الجلال، وإلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله ﷺ بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»...

فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»: إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي المشاهدة الموجهة للتعظيم، كمن يشاهد ملكاً عظيماً، فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة.

وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»: إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة التي هي مقام المقرّبين، فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين.

فلما فسّر الإحسان أوّل مرة بالمقام الأعلى، رأى أنّ كثيراً من الناس قد يعجزون عنه، فنزل عنه إلى المقام الآخر.

المشارطة والمرابطة قبل المراقبة والمحاسبة بعدها:

واعلم أنّ المراقبة لا تستقيم حتّى تتقدّم قبلها المشارطة، والمرابطة، وتتأخر عنها: المحاسبة والمعاقبة.

فأمّا المشارطة، فهي اشتراط العبد على نفسه بالتزام الطاعة وترك المعاصي.

وأمّا المرابطة، فهي معاهدة العبد لربه على ذلك.

ثم بعد المشارطة والمرابطة أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره، وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه، فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله، حمد الله، وإن وجد نفسه قد حلّ عقد المشارطة، ونقض عهد المرابطة، عاقب النفس عقاباً بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك، ثمّ عاد إلى المشارطة والمرابطة، وحافظ على المراقبة، ثمّ اختبر بالمحاسبة، فهكذا يكون حتّى يلقي الله تعالى^(١). انتهى كلامه، وهو مقتبس من الإحياء بتصرف واختصار.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «لأبي عبادة البُحْثري في هذا المعنى أبيات حسنة، لكنّه أساء بقولها في مخلوق، وقد أصلحت منها كلمات حتّى استقامت على الطريقة:

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١٧٧/١) بتصرف، تحقيق د. عبد الله الخالدي، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَزْعَى خَوَاطِرِي
فَمَا أَبْصَرْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَرًا
وَلَا بَدَرْتُ مِنْ فَيِّ بَعْدَكَ لَفْظَةً
وَلَا خَطَرْتُ مِنْ ذِكْرِ غَيْرِكَ خَطَرَةً
إِذَا مَا تَسَلَّى الْقَاعِدُونَ عَنِ الْهَوَى
وَجَدْتُ الَّذِي يُسْلِي سِوَايَ يَشُوقُنِي
وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ سَمْتُ لِقَاهُمُو
وَبِالْبَعْضِ أَسْلَى عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّنِي

وَأَخَرُ يَزْعَى نَاضِرِي وَجَنَانِي
يَسُوءُكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ رَمَقَانِي
لِغَيْرِكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ سَمَعَانِي
عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا عَرَّجَا بَعْنَانِي
بَذَكَرِ فَلَانٍ أَوْ كَلَامِ فَلَانٍ
إِلَى قُرْبِكُمْ حَتَّى أَمْلَ مَكَانِي
وَعَضَضْتُ طَرْفِي عَنْهُمْ وَلِسَانِي
أَرَاكَ عَلَى كُلِّ الْجِهَاتِ تَرَانِي»^(١)

وقال الحافظ ابن رجب أيضًا في «فتح الباري»: «نهاية مقام الإحسان: أن يعبد المؤمن ربّه كأنه يراه بقلبه، فيكون مستحضراً ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجز عنه وشقّ عليه، انتقل إلى مقام آخر، وهو أن يعبد الله على أن الله يراه ويطلع على سرّه وعلايته، ولا يخفى عليه شيء من أمره.

وقد وصّى النبي ﷺ طائفة من أصحابه أن يعبدوا الله كأنهم يرونّه، منهم: ابن عمر^(٢)، وأبو ذر^(٣)، ووصّى معاذًا أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل ذي هيبة من أهله^(٤).

(١) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة (٣٣٢/١)، ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، تحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني، نشر الفاروق الحديثة للطباعة، ط ٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. وانظر ديوان البحري (٢٦٨٢/٥)، وهو ضمن الشعر المنسوب للبحري.

(٢) رواه أحمد (٦١٥٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، بلفظ: «اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل». وأصل الحديث في البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، بدون: «اعبد الله كأنك تراه».

(٣) رواه أبو نعيم الأصبهاني في الأربعين الصوفية (١٢)، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٤) رواه البزار (٢٦٤٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦٨٣): رواه البزار، وفيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقيّة رجاله ثقات.

قال بعض السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إيّاه فهو مخلص.

فهذان مقامان: أحدهما: مقام المراقبة، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه وإطلاعه عليه، فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله فيراقبه في حركاته وسكناته، وسره وعلانته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان.

والثاني: أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة، فيصير كأنه يرى الله ويشاهده، وهذا نهاية مقام الإحسان، وهو مقام العارفين.

وحديث حارثة هو من هذا المعنى، فإنّه قال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاونون فيها. فقال النبي ﷺ: «عرفت فالزم. عبدٌ نور الله الإيمان في قلبه»^(١).

فمن وصل إلى هذا المقام، فقد وصل إلى نهاية الإحسان، وصار الإيمان لقلبه بمنزلة العيان، فعرف ربه وأنس به في خلوته وتنعم بذكره ومناجاته ودعائه، حتّى ربما استوحش من خلقه، كما قال بعضهم: عجبْتُ للخلقة كيف أنست بسواك؟! بل عجبْتُ للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣١٠٦٤)، والطبراني (٢٦٦/٣)، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٧٣)، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ص ١٥٧٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٩): فيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه، عن الحارث بن مالك الأنصاري.

وقيل لآخر: أما تستوحش؟! قال: كيف استوحش وهو يقول: أنا جليسٌ مَنْ ذكرني^(١). وقيل لآخر: أما تستوحشٌ وخدك؟ قال: ويستوحشٌ مع الله أحد؟^(٢).

حقيقة المراقبة:

اعلم أنَّ حقيقة المراقبة - كما يقول الإمام الغزالي رحمته الله تعالى -: هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهمِّ إليه. فمن احتَرَزَ من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال: إنه يراقب فلاناً، ويراعي جانبَه، ونعني بهذه المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب^(٣).

والإمام الغزالي يرى أنَّ كل مقام من مقامات الدين، هو معجون يتكون من عناصر ثلاثة متلازمة:

- ١ - عنصر عقليٍّ معرفيٍّ إدراكيٍّ.
- ٢ - وعنصر نفسيٍّ شعوريٍّ نزوعيٍّ أو إراديٍّ.
- ٣ - وعنصر حركيٍّ عمليٍّ سلوكيٍّ. وهذه الثلاثة موجودة في المراقبة.

أولها: العنصر المعرفي في المراقبة:

وأساسه: أن يعلم المكلف أن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه في ظاهره وباطنه، يعلم سرّه ونجواه، في خلوته وجلوته. ولا يخفى عليه خافية من أمره،

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٧/٨).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٢١١/١ - ٢١٤)، تحقيق محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين، نشر مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) إحياء علوم الدين (٣٩٨/٤).

فهو يعلم ويرى، ويسمع كل شيء، فهذه حقيقة الربوبية أو الألوهية أو الخالقية. كما نؤمن بها نحن المسلمين، ومن جحد ذلك فهو كافر، ومن أقر بذلك واجترأ على مبارزة الله بالمعاصي فهو عديم الحياء.

وآيات القرآن حافلة بهذه المعاني، وهي كثيرة وافرة في السور المكية والسور المدنية، اقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

واقرا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ [طه: ٧].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * [الزلزلة: ٦ - ٨].

إلى أمثال هذه الآيات في كتاب الله وهي كثيرة غزيرة معلومة.

ثانيها: العنصر النفسي الشعوري في المراقبة:

فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً، أعني أنها خَلَتْ عن الشك، ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته، فَرُبَّ علم لا شك فيه لا يغلب على القلب، كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب، استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب، وصرفت همه إليه، وأثمرت حالة نفسانية وجدانية هي مراعاة القلب للرقيب، وانشغاله به، والتفاتة إليه، وملاحظته إيّاه، وانصرافه إليه.

ثالثها: العنصر الحركي العملي السلوكي في المراقبة:

وكان لذلك أثره العملي في النفس، في سلوكها، وفي علاقتها بالله، وعلاقتها بالناس، ويستطيع العاقل أن يُمَيِّز بسرعة بين الإنسان الذاكر المراقب لربه، الحريص على دينه، والإنسان الغافل اللاهي

الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِي مَثَلِهِ: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

المراقبة على درجتين:

قال الإمام الغزالي: «والموقنون بهذه المعرفة هم المراقبون، وهم ينقسمون إلى الصّديقين، وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين:

درجة المقربين:

الدرجة الأولى: مراقبة المُقَرَّبِينَ من الصّديقين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب.

أمّا الجوارح، فإنّها تتعطل عن التلّفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحرّكت بالطاعات، كانت كالمستعملة بها، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السّداد، بل يسدّد الرعيّة من ملك الراعي كلية، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السّداد والاستقامة من غير تكلف.

وهذا هو الذي صار همّه همّاً واحداً، فكفاه الله سائر الهموم، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتّى لا يبصر من يحضر عنده، وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له، مع أنه لا صمم به، وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتّى كان بعضهم يجري عليه ذلك، فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحرّكني.

ولا تستبعد هذا، فإنَّك تجد نظير هذا في القلوب المعظَّمة لملوك الأرض، حتَّى إنَّ خدام الملك قد لا يحسُّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بهمهم حقير من مهمات الدنيا، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشى، فربما يجاوز الموضع الَّذي قصده، وينسى الشغل الَّذي نهض له.

استغراق الصالحين بمشاهدة الله تعالى:

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة! فما كان إلا سريعاً حتَّى دخل عُتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا. وكان طريقه على الشُّوق، فقال: مَنْ لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً^(١)...

وحكي عن بعضهم أنَّه قال: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدَّمت إليه، فأردتُ أن أكلمه، فقال: ذكرُ الله تعالى أشهى. فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي ومَلَكَاي. فقلت: مَنْ سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له. فقلتُ: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى، وقال: أكثر خلِقك شاغل عنك.

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى، لا يتكلَّم إلا منه، ولا يسمع إلا فيه، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه، فإنها لا تتحرَّك إلا بما هو فيه.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٣/٦).

ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف، فوجده ساكنًا حسنَ الاجتماع، لا يتحرّك من ظاهره شيء. فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سِتُّور (قطعة) كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد، رابطت على رأس الحجر لا تتحرك لها شعرة»^(١).

وقد قال العلامة الشيخ رشيد رضا في «تفسيره المنار»: «وقد عُهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها، ويحكى عن بعض كبار الصوفية أنه قال: تعلمت المراقبة من القط»^(٢). يشير إلى ما ذكره الغزالي عن أبي الحسين النوري.

درجة أصحاب اليمين:

أمّا الدرجة الثانية في مراقبة الله فهي درجة الورعين من أهل الحياء من الله، قال حجة الإسلام الغزالي: «الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم، وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، فلم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال، مُتَّسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة.

نعم غلب عليهم الحياء من الله، فلا يُقَدِّمون ولا يُخْجَمون إلا بعد التثبُّت فيه، ويمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مُطَّلِعًا عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) تفسير المنار (٢٠١/١).

وُتُعرف اختلاف الدرجتين بالمُشَاهَدَاتِ، فَإِنَّكَ فِي خَلُوتِكَ قَدْ تَتَعَاطَى أَعْمَالًا، فَيَحْضُرُكَ صَبِيٌّ أَوْ امْرَأَةٌ، فَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَطَّلَعٌ عَلَيْكَ، فَتَسْتَحْيِي مِنْهُ، فَتَحْسَنُ جُلُوسَكَ، وَتُرَاعِي أَحْوَالَكَ لَا عَنْ إِجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ، بَلْ عَنْ حَيَاءٍ، فَإِنَّ مُشَاهَدَتَهُ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُدْهَشُكَ وَلَا تَسْتَغْرَقُكَ، فَإِنَّهَا تَهَيِّجُ الْحَيَاءَ مِنْكَ. وَقَدْ يَدْخُلُ عَلَيْكَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ كَبِيرٌ مِنَ الْأَكْبَارِ فَيَسْتَغْرَقُكَ التَّعْظِيمُ، حَتَّى تَتْرَكَ كُلَّ مَا أَنْتَ فِيهِ شَغْلًا بِهِ لَا حَيَاءَ مِنْهُ. فَهَكَذَا تَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ الْعِبَادِ فِي مِرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

اختلاف الجزاء بين المقرَّبين وأصحاب اليمين:

وإلى تفاوت هاتين المرتبتين وما وعد الله أصحابهما من جزاء، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. قال الإمام ابن جزى الغرناطي في «تفسيره»: «الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل رسول الله ﷺ، فقال له: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

وذلك هو مقام المراقبة والمشاهدة، فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجَنَّتَيْنِ^(٣)، ويقوَّى هذا أنه جعل هاتين الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العَلِيِّ، وجعل جنتين دونها لمن كان دون ذلك، فالجنتان المذكورتان أولاً للسابقين، والجنتان المذكورتين ثانياً بعد ذلك لأصحاب اليمين، حَسَبَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، وَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ أَوْصَافَ هَاتَيْنِ

(١) إحياء علوم الدين (٣٩٩/٤).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٣) يعني المذكورتين في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

الجنيتين، أعلى من أوصاف الجنيتين اللتين بعدهما فقال هنا: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]. وقال في الآخريتين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]. والجزئي أشد من النضخ، وقال هنالك: ﴿مِنْ كُلِّ فَكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقال هنا: ﴿فَكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وكذلك صفة الحور هنا أبلغ من صفتها هنالك... ويفسر ذلك قول رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيتُهُمَا وَكُلُّ مَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أُنِيتُهُمَا وَكُلُّ مَا فِيهِمَا»^(١) ^(٢).

أقسام المراقبة:

وقد تحدّث أهل التربية وعلماء القلوب عن أقسام المراقبة ومراتبها ودرجاتها ووصفوا كل درجة من هذه الدرجات، ومن ذلك ما قال ابن عجيبة في تفسيره «البحر المديد» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]: «هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر.

فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص.

فأمّا مراقبة الظواهر، فهي: اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتج له الحياء من الله، فيستحيي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه..

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٨٠)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣٣١/٢).



وأما مراقبة القلوب، فهي: تحقيق العبد أنّ الله مطلع على قلبه، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعني، أو يدبر ما لا يفيد ولا يُجدي، أو يهّم بسوء أدب، فإن جال في ذلك استغفر وتاب.

وأما مراقبة السرائر، فهي: كشف الحجاب عن الرُّوح، حتّى ترى الله أقرب إليها من كل شيء، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار، فالتوبة لا تفارق أهل المراقبة مطلقاً.

فمَن لم يُحكّم أمر المراقبة، لم يذق أسرار المشاهدة، فالمراقبة مفتاح المشاهدة، والمشاهدة مفتاح المعرفة، والمعرفة هي الولاية، التي أشار إليها بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]»^(١).

* * *

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤٨٣/٢، ٤٨٤)، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر د. حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.



مراحل المراقبة

المراقبة المطلوبة من الإنسان: أن يراقب الله قبل العمل: هل يُقَدِّمُ عليه أو لا؟ ويراقبه أثناء العمل حتَّى يحسنه: «كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، تحاول أن تؤدي العمل أداء يرضيه وَجَلَّ وَعَلَّ.

وبعد أداء العمل، على المؤمن أن يسأل نفسه: هل تمَّ هذا العمل بإتقان؟ هل أدى حقه؟ هل أتم أركانه؟ هل حقق شروطه؟ هل وفى آدابه؟ كم يعطي نفسه من الدرجات: ستين في المائة؟ خمسين في المائة؟ عشرين في المائة؟ أو أقل أو أكثر.

المراقبة قبل العمل وبعده:

قال الإمام الغزالي بعد أن تكلم على درجتي المراقبة بين المقرَّبين وأهل اليمين: «ومن كان في هذه الدرجة (درجة أصحاب اليمين) فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخاطراته ولحظاته، وبالجملّة جميع اختياراته.

وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل.

المراقبة بالنظر قبل العمل:

أمّا قبل العمل، فليُنظر أنّ ما ظَهَرَ له وتحرَّك بفعله خاطره: أهو لله خاصّة أم هو في هوى النفس، ومتابعة الشيطان، فيتوقّف فيه ويتثبت،



حتَّى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله، وانكف عنه، ثمَّ لام نفسه على رغبته فيه، وهمَّ به، وميَّله إليه، وعرفها سوء فعلها، وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوة نفسها، إن لم يتداركها الله بعصمته»^(١).

قال الإمام العز بن عبد السلام في مراقبة النَّفس للفعل الحسن والقبيح: «إنَّما يفرق المريد بين الفعل الحسن والقبيح بالكتاب والسُّنة إن كان عارفاً بذلك، فإن التبس عليه الفعل الحسن بالقبيح فليكنف عنه، ولا يعزم على إقدام ولا إحجام، حتَّى يسأل عن ذلك من يعرفه من علماء الشريعة؛ لأن التباس المحرم بالمحلل مانع عن الإقدام على ما لا يعرف حلاله من حرامه»^(٢).

وقف مع النَّفس قبل العمل:

يجب على الإنسان أن يقف مع نفسه في كلِّ أمر يريده: إن كان رُشدًا أمضاه، وإن كان غيًا اجتنبه، وإن كان بين بين، أخذ بالأحوط، وابتعد عن الرِّيبة.

هذا هو شأن الإنسان الذي يراقب ربَّه وَعَلَّك. لا يهجم على الأمور هجمة من لا تهُمَّ العواقب، فالأمر ليس هيئًا، الأمر أمرُ جنَّة أو نار. فلا بدَّ للإنسان أن يضع النار نُصب عينيه، وأن يضع الجنة نُصب عينيه.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٠).

(٢) مقاصد الرعاية لحقوق الله وَعَلَّك للمحاسب ص ٢٠، نشر دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤١٦هـ -

١٩٩٥م.

وينبغي للإنسان أن يُراقب الله تعالى قبل العمل، يسأل نفسه: ما هذا العمل؟ ولماذا تعمله؟ أأمر أمرك الله تعالى به؟ أم هو هوى من أهواء النفس؟

ثلاثة أسئلة يسأل عنها الإنسان عند كل عمل: لماذا؟ وكيف؟ ولمن؟.

ثم هناك مراقبة عند العمل. ولذلك يقول رجال التربية والسلوك: إنَّ هناك ثلاثة أسئلة يسأل عنها الإنسان نفسه عند كل عمل:

لماذا تُقدِّم على هذا العمل؟ هل أمر الله به، أو أذن فيه؟

وإذا كان عملاً صالحاً، إذا كان طاعة من الطاعات، أو عبادة من العبادات، فلا بدَّ أن تسأل نفسك: كيف؟

كيف يتمُّ هذا العمل؟ لا بدَّ أن يتم على المنهج الشرعي، لا بدَّ أن يوافق السنَّة، لا بدَّ أن تلتزم فيه بحدود الله وَعَلَّك، فلا تُحدث، ولا تبتدع، ولا تغش، ولا تخن.

ثم بعد ذلك تأتي الإجابة عن السؤال الآخر: لمن؟

لمن هذا العمل الذي تعمله؟ أهو لمراعاة الناس؟ ألتكتسب الشهرة عند الخلق؟ أليحمدك النَّاس ويقولوا: فلان كذا وكذا؟ إذن قد ضعت وضيَّعت، وهَلَكْتَ وأهلكت.

إذا كان قصدك من عملك أن يحمَدَكَ الناس، ويتحدَّثوا عنك، ضاع هذا العمل، وإن كان صورته صورة العمل الصالح.

قد يكون صلاةً، وقد يكون زكاةً وصدقةً، وقد يكون حجًّا وعمرةً، وقد يكون إنفاقاً، وقد يكون جهاداً، وقد يكون علماً وتعليماً، وقد يكون ما شئت من ظواهر الطاعات والقربات.

ما لم يكن عملك خالصاً لله **وَعَجَلْ**، فإن الله لا يقبله. إن الله لا يقبل من أشرك به غيره. إذا أشركت الخلق في عملك، فاذهب، فخذ أجرك منهم، فإنه لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

لذا قال أحد العارفين: إن الله لا يقبل القلب المشترك، ولا العمل المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه^(١).

يريد أن يكون قلبك لله وحده، وعملك لله وحده، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

اعبد الله كأنك تراه:

التوقف قبل العمل واجب محتوم على أهل المراقبة:

وهذا التوقف قبل العمل لإصلاح النية وسؤال النفس عن هذه الأسئلة الثلاث واجب عند أرباب القلوب، حتى تستقيم للعبد المراقبة، قال الإمام الغزالي: «وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان: واجب محتوم، لا محيص لأحد عنه، فإن كل مكلف أمامه في كل عمل من أعماله ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: لم؟ والسؤال الثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟

ومعنى «لم» أي: لم فعلت هذا؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك، أو ملّت إليه بشهوتك وهواك؟

(١) حكم ابن عطاء الله ص ٣٦٠.

فإن سلم منه، بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه، سُئِلَ عن السؤال الثاني، فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإنَّ الله في كلِّ عمل شرطًا وحُكْمًا، لا يُدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم، فيقال له: كيف فعلت؟ أبعلم محقق أم بجهل وظنٍّ؟

فإن سلم من هذا جاء السؤال الثالث، وهو المطالبة بالإخلاص، فيقال له: لمن عملت؟ أوجه الله خالصًا وفاء بقولك: لا إله إلا الله، فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءة خلقٍ مثلك، فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة، فقد سقط أجرك، وحبط عملك، وخاب سعيك؟ وإن عملت لغيري، فقد استوجبت مقتي وعقابي، إذ كنت عبدًا لي، تأكل رزقي، وتترفع بنعمتي، ثمَّ تعمل لغيري، أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ويحك، أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؟!

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات، طالب نفسه قبل أن تُطالَب، وأعدَّ للسؤال جوابًا، وليكن الجواب صوابًا، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرك جفنًا ولا أنملة إلا بعد التأمل.

قال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة، نظر وتثبت، فإن كان لله أمضاه.

وقال الحسن: رحم الله تعالى عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر^(١).

(١) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (٨١/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: اتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ^(١).

وقال محمد بن علي: إِنْ الْمُؤْمِنُ وَقَفَ مُتَّانًا، يَقِفُ عِنْدَ هَمِّهِ، لَيْسَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ^(٢).

ضرورة العلم المتين بأغوار النفس وآفات الأعمال لأهل المراقبة:

وعلى العامل الذي يراقب ربّه أن يكون عارفاً بأن نفسه لن تُسلم له بسهولة، وأن لها أغواراً، ينبغي أن يعرفها حتّى لا يتوه في متاهاتها، فمن تمام الابتلاء للإنسان: أن سلّط عليه نفسه التي بين جنبيه، وهي أمّارة بالسوء، تحبُّ العاجلة، وتذرُّ الآخرة، وسلّط عليه عدوّه إبليس اللعين (الشیطان) وجنوده، وقد حلف أمام الله جلّ وعلا: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنِي إِلَّا يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]. وللشیطان مكاييد وشباك وفخاخ وجنود وجيوش من شياطين الإنس والجن، وهو لن يتركك وشأنك: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢ - ٦٥].

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٤)، والحاكم في الرقاق (٣١٧/٤)، وصحح إسناده، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٧٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات، احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده.

(٢) إحياء علوم الدين (٤٠٠/٤).

والذي يسلم الإنسان من هذا هو علمه بحبائل الشيطان، وبنفسه وأغوارها، وفي هذا يقول الغزالي: «فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يُخلص من هذا^(١) إلا العلم المتين، والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال، وأغوار النفس، ومكايد الشيطان.

فمتى لم يعرف نفسه وربّه وعدوه إبليس، ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميز بينه وبين ما يُحبه الله ويرضاه في نيّته وهَمّته وفكرته، وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ولا تظنّ أنّ الجاهل بما يقدر على التعلّم فيه يعذر. هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم؛ لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان، ومواضع الغرور، فيتقي ذلك.

والجاهل لا يعرفه، فكيف يحترز منه! فلا يزال الجاهل في تعب، والشيطان منه في فرح وشماتة. فنعوذ بالله من الجهل والغفلة، فهو رأس كل شقاوة، وأساس كل خسران.

الهم بالمعصية هو الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدفع:

فحكّم الله تعالى على كل عبدٍ أن يراقب نفسه عند همّه بالفعل، وسعيه بالجارحة، فيتوقّف عن الهمّ، وعن السّعي، حتّى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى النّفس فيتّقيه، ويزجر القلب عن الفكر فيه، وعن الهمّ به.

(١) أي مطالبة الله له بإخلاص العباد، وتوبيخه له إذا قصر فيه.

فإنَّ الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهمَّ، والهمُّ يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت.

فينبغي أن تُحسم مادة الشرِّ من مَبْعه الأول، وهو الخاطر، فإن جميع ما وراءه يتبعه.

الاستضاءة بنور العلم وعلماء الدين:

ومهما أشكل على العبد ذلك، وأظلمت الواقعة فلم تنكشف له، فيتفكَّر في ذلك بنور العلم، ويستعيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى.

فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه، فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرَّ من العلماء المُضِلِّين، المقبلين على الدنيا، فراره من الشيطان، بل أشد، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالمًا أسكره حبُّ الدنيا، فيقطعك عن محبَّتي، أولئك قطاع الطَّريق على عبادي.

فالقلوب المظلمة بحب الدنيا، وشدة الشره والتكالب عليها، محجوبة عن نور الله تعالى.

فلتكن همَّة المريد أولاً في إحكام العلم، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا، أو ضعيف الرغبة فيها، إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها، فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات، فليس له بصرٌّ ناقد في الشبهات.

ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإنَّ النَّاس كلهم قد هجروا هذه العلوم، واشتغلوا بالتوسُّط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتِّباع الشهوات، وقالوا: هذا هو الفقه. وأخرجوا

هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم، وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب، ليتفرغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه.

ولهذا توقّف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام، لما أشكل عليهم الأمر، كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم.

فمن لم يتوقّف عند الاشتباه كان مُتَّبِعًا لهواه، مُعْجَبًا برأيه، وكان ممّن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: «فإذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصّة نفسك»^(١).

التحذير من الخوض في الشبهات:

وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله ﷺ: «إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث»^(٢). وأراد به ظنًا بغير دليل، كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه.

ولصعوبة هذا الأمر وعظمته، كان دعاء الصّدّيق رضي الله عنه: اللهم أرني الحقّ حقًا، وارزقني اتّباعه، وأرني الباطل باطلاً، وارزقني اجتنابه، ولا تجعله متشابها عليّ فاتبع الهوى.

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٨)، وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤)، والحاكم في الرّفاق (٣٢٢/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) متّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم، وكشف الحق. والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم، ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، أي: العلم.

وقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

فإذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة: أهى لله أم للهوى... وأكثر ما ينكشف له في حركاته: أن يكون مباح، ولكن لا يعنيه، فيتركه لقوله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء: تركه ما لا يعنيه»^(١).

المراقبة عند الشروع في العمل:

النظر الثاني للمراقبة: عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه. وهذا ملازم له في جميع أحواله؛ فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون.

فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك، قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب.

فإن كان قاعداً مثلاً، فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة، ويراعي آداب الجلوس والمجالس.

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، واستغربه، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩١١)، وحسنه النووي في الأربعين (١٢)، عن أبي هريرة.

وإن كان ينام فينبغي، أن يُراعى آداب النوم مع سائر الآداب، فكلُّ ذلك داخل في المراقبة، بل لو كان في قضاء الحاجة، فمراعاته لآدابها وفاءً بالمراقبة.

المراقبة في الطاعة والمعصية والمباح:

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية، فمراقبته بالتوبة والندم، والإقلاع والحياء، والاشتغال بالتفكير.

وإن كان في مباح، فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، وبالشكر عليها.

أحوال العبد في المراقبة:

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة، لا بدّ له من الصبر عليها، ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

بل لا ينفكُّ العبد في كلّ حال من فرض الله تعالى عليه: إما فعل يلزمه مباشرته، أو محذور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه، ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى، ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه، وفيه عون له على طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة. فإذا كان فارغاً من الفرائض، وقدر على الفضائل، فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه، فهو مغبون، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، أي: لا تنس نصيبك من طاعة الله فيها.

الساعات ثلاث:

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهة، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه.

فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسّر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية، استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى.

الحذر من طول الأمل:

ولا يطوّل أمله خمسين سنة، فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري.

وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه، فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يُدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما ورد في حِكْم آل داود: لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث:

تزوّد لمعاد، أو مَرَمّة لمعاش، أو لَذّة في غير محرم^(١). وما روي عنه أيضاً في معناه: وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب^(٢). فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات.

ثم هذه الساعة الّتي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الّذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكّر فيه وفطن له، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح^(٣).

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (١٩٧٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٥٢)، عن

وهب بن منبه.

(٢) الأثر السابق.

(٣) إحياء علوم الدين (٤٠٠/٤ - ٤٠٣) بتصرف.



مجالات المراقبة

للمراقبة مجالات مُهمّة يجب الاهتمام بها، أو توجيه النظر إليها، وقد ركّز عليها علماء القلوب، ورجال التربية الإيمانية، علينا أن نرعاها في تعلّمنا وتعلّمنا، وألا نغفل عنها، ونوفيها حقوقها من التزكية والتربية.

١ - أن يراقب الله في أداء حقوقه سبحانه:

أول هذه المجالات: أن يراقب الله تعالى في أداء حقوقه عليه، مثل «حق التوحيد»، فعبده ولا نشرك به شيئاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومن حقّه تعالى، كونه الخالق الرازق المنعم بالنعيم الكبرى: أن يتجه النَّاسُ إليه بالعبادة، فهو تعالى لم يخلق النَّاسَ ليستأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليستعين بهم من وحدة على أمر عجز عنه، إنّما خلقهم ليوحّدوه ويعبدوه، ويركعوا ويسجدوا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

وإنَّ من شأن هذه العبادة أن يخضع العباد له في كل أمرٍ أمر به وأوجبه، وينتھوا عند نهيه في كل ما نهى عنه وحرمه، ف«الحلال بيِّن والحرام بيِّن»^(١)، وينبغي أن يتحرَّى الحلال، ويتعد عن الحرام وما فيه شبهه، حتَّى لا يقع في الحرام.

وعلى المؤمن أن يتجنب الحرام في كل ما يؤذي الناس، باليد أو باللسان، فالمسلم من سلم النَّاس من لسانه ويده، و«من أَمَنه النَّاسُ على دماءهم وأموالهم»^(٢). فهو سلامٌ وأمان لكل من حوله وما حوله، لا يتضرر منه إنسان ولا حيوان عن عمد. بل هو مصدر رحمة، وخير لكل الناس، ف«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السَّماء»^(٣).

والمسلم يراقب ربَّه دائماً، مراعيًا حقوقه تجاه نفسه، وتجاه كلِّ خلق الله تعالى.

وحسبنا أن نقرأ هذا الحديث عن مراقبة المسلم لصلاته، وهي من حقوق ربِّه عليه، يقول رسول الله ﷺ، عن ربِّ العزة سبحانه:

(١) رواه الجماعة: البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٤٤٥٣)، ثلاثتهم في البيوع، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، وأحمد (١٨٣٦٨)، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه أحمد (٨٩٣١)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في أبواب الإيمان (٢٦٢٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الإيمان (٤٩٩٥)، وابن حبان في فرض الإيمان (١٨٠)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٦٧١٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في البر والصلة (١٥٩/٤)، وقال بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

«قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدُنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١).

٢ - أن يراقب الله في أداء حقوق نفسه وحقوق خلقه:

ومن هذه المجالات: حق النفس التي وهبها الله للإنسان، فلا يجوز لأحد أن يعتدي عليها بغير حق، إلا إذا اعتدت على نفس أخرى، فهنا تستحق القصاص، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتجب حماية حق ما دون النفس، فكل ما دونه من أجزاء وأعضاء وحواس وأعصاب عزيزة على الإنسان، غالية جداً، لا يجوز أن يمس أي عضو أو جزء منها، ولو كان صغيراً أو ضئيلاً.

وعليه أن يراقب الله تعالى في حق العقل، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على عقله أو ما يؤدي إلى إهدار عقله، ولا يجوز له أن يضيع عقله بشرب مسكر، أو بتناول مخدر كالأفيون أو الحشيش أو غيرها من المواد المخدرة التي يزرعها بعض الناس، ثم يصنعونها حتى تباع بالجرام. فيا

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

عجباً لمن يشتري بالمال الكثير ما يضع به عقله الذي ميزه عن الحيوان الأعمى! ويا عجباً لمن يعيش في هذه الدنيا لكي يضع على الناس عقولهم التي خلقهم الله تعالى ليفكروا بها!

وعليه أن يراقب الله سبحانه في حفظ حقوق المال، الذي أنزل في حفظه أطول آية في القرآن، وتوعد من يأكله بالباطل بأعظم الوعيد، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ولا يظن البعض أن حقوق الخلق كبر الوالدين أو صلة الأرحام، أو إكرام الأيتام، أو الإنفاق على المساكين، أو الرحمة بالضعفاء والفقراء، ليست من الواجبات، بل هي من أوجب الواجبات، ومن الفروض الكبيرة، ولا يجوز لأحد الاستهانة بها.

٣ - أن يراقب الله في أداء ما بعد الواجبات:

وثالث هذه المجالات: أن يراقب الله تعالى في أداء ما دون الواجبات، مثل السنن المؤكدة في الصلوات، وتلاوة القرآن، والأدعية والأذكار، والنوافل القولية والعملية والمالية..

ويجب على المؤمنين الذين راعوا ما أوجب الله عليهم من حقوقه من الصلوات والزكوات والصيام والحج، وحقوق عباده من الصلة والإحسان، ألا يتهاونوا فيما يجب عليهم نحو الحيوان من الأنعام

والخيل والبغال والحمير الأهلية، أو المخلوقات الأخرى من الغزلان والحمير الوحشية ونحوها، أو الأسماك والحيوانات المائية، وكلها مخلوقات حية يجب الاعتناء بها، والعمل على تحقيق متطلبات حياتها التي لا بد لها منها.

ومثل ذلك جميع المخلوقات الصغيرة غير الضارة التي طلب القرآن العناية بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٤ - أن يراقب الله في ترك المحرمات: كبائر وصغائر:

ورابع هذه المجالات: أن يراقب الله تعالى في ترك المحرمات، كما راقبه في أداء المأمورات، فإن سعادة المكلف في أداء المأمور وترك المحذور.

والمحذور ينقسم إلى صغائر وكبائر، والكبائر لها خطرها، أما الصغائر فقلما يخلو المرء منها، ومع هذا ينبغي أن يجتنبها ما استطاع، ولكن الخطر كل خطر في الكبائر المؤبقة، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

والكبائر منها ما ذكره الله تعالى في كتابه كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ * وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقد حذر الرسول من السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف العاقلات المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف^(١).

كما حذر من عقوق الوالدين، ومن الانتحار، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والحكم بغير ما أنزل الله.

ويختلف الأفراد والمجتمعات في نظرتهن للذنوب والمعاصي وموقفهم منها، ومدى حساسيتهم في ذلك، فمنهم من يستعظم الذنب وإن كان صغيراً، كما قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت! وقد كان مجتمع الصحابة شديد الحساسية من المعاصي، وبعد رسول الله تغير نظرهم إلى هذه الأمور، وتغير ميزان حساسيتهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، كنّا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات. قال أبو عبد الله البخاري: يعني بذلك المهلكات^(٢).

وعن أبي سعيد، قال: إنكم لتعملون أعمالاً لهي أدق في أعينكم من الشعر، كنّا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(٣).

وعن ابن مسعود: المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا وهكذا^(٤). أي: أطاره بيده، فذهب يَمَنَّة وَيَسرة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٠.

(٣) رواه أحمد (١٠٩٩٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨).

ومرض بعض الصالحين من السلف، فعاده بعض أصحابه، فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة، فعجبوا لذلك، وسألوه: ما هذا البكاء، ولم نرك في حياتك قد اقترفت كبيرة، أو قصّرت في فريضة، أو ضيّعت حقًا؟ فكان جوابه: والله ما أبكي على فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها، ولا حق ضيّعته، ولكن أبكي، لأنني أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم^(١)!

وهو يشير إلى ما ذكره القرآن في سورة النور، في قصة أم المؤمنين عائشة، وكيف لاكت بعض السنة المسلمين حديث الإفك عنها، الذي أشاعه المنافقون، فتلقفوه بسذاجة وغباء، ونقله بعضهم عن بعضهم باستهتار، وبلا رهبة وتهيب، فجاء القرآن يعقب ويحذر وينذر ويقول: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *﴾ [النور: ١٢، ١٣] ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بَافْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *﴾ [النور: ١٥]. ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ *﴾ [النور: ١٦].

وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة! فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُرّجت بهاء البحر لمرّجته»^(٢).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦٥)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرجه: إسناده على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢)، وقال: حسن صحيح. عن عائشة.

٥ - أن يراقب الله في ترك الشبهات والمكروهات:

وخامس المجالات: أن يراقب الله تعالى فيما دون المحرمات، وإن كانت صغائر، فإن للشيطان خطوات يخطوها نحو الإنسان المؤمن، ليدخل إليه من أحقر المداخل، التي قد لا يبالي بها، ويرى أنها ليست بالأمر المهم، ولا يزال يهونها عليه، ويصفها بالقلة والصغر والقصر، من حيث الحجم والمساحة والمقياس ونحوها، ليهون على الإنسان وقعها، ويقول له: إن الله إنما يعذب الإنسان على الكبائر، وعلى الموبقات، أمّا صغائر الذنوب فهي مغفورة، وهذا ليس على إطلاقه، فإن من يرتكب صغائر الذنوب غير مبالٍ بتكرارها والاستمرار عليها هو في غاية الخطر، كما جاء في الحديث: «إِيَّاكُمْ وَمَحَقَّاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مَحَقَّاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِوَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مَحَقَّاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُوْخَذَ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»^(١).

٦ - راقب الله في أمورك كلّها:

راقب الله وَعَلَيْكَ في أمورك كلّها صغيرها وكبيرها. راقب الله في نفسك، وراقب الله في أهلك وأولادك: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

راقب الله فيمن حَوْلَكَ، مُرْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١) رواه أحمد (٢٢٨٠٨)، وقال مخرجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. والطبراني في الأوسط (٧٣٢٣)، وفي الصغير (٩٠٤)، وفي الكبير (١٦٥/٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٦٢): رواه أحمد عن سهل بن سعد ورجاله رجال الصحيح، ورواه (الطبراني) في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، غير عبد الوهاب بن الحكم، وهو ثقة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦)، عن سهل بن سعد.

راقب الله في عملك وأد له حقّه، راقب الله في اللقمة التي تدخل بطنك ومعدتك، راقب الله في الدرهم الذي يدخل جيبك. لا تأكل حراماً، ولا تدّخر حراماً، ولا يدخل بيتك حرام، ولا تطعم أولادك من حرام، ف «كلُّ جسمٍ نَبَتَ من حرامٍ فالنَّارُ أولى به»^(١).

راقب الله تعالى في أمورك كلّها، واستحضِرْ هذه الرقابة التي كانت شعار الصالحين، الذين كانوا يراقبون الله في السِّرِّ والعلن، والظاهر والباطن، والخلوة والجلوة.

(١) رواه أحمد (١٤٤٤١)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، عن جابر بن عبد الله.

من ثمرات المراقبة

مراقبة العبد لربه في السر والعلانية، وفي الخلوة والجلوة، وفي العسر واليسر، لها ثمرات تُجنى، وفوائد تُكتسب، في النفس والحياة، يظفر بها المراقب لله في الدنيا قبل الآخرة، وَفَقَ سَنَنَ اللَّهِ تَعَالَى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

١- الشعور بالسكينة والقوة:

من هذه الثمرات: الشعور بالسكينة والقوة، فصاحب المراقبة هادئ وإن اضطرب النَّاسُ من حوله، آمنٌ وإن خاف الناس، قويٌّ وإن ضعف الناس، يتسم وإن عبس الناس؛ لأنَّه يوقن ويحسُّ بمعية الله له، أعني المعية الخاصة، وهي معية الرعاية والحفظ، والنصر والتأييد، التي خصَّ بها عباده المؤمنين، والمتقين والمحسنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] وهذا بخلاف المعية العامة، التي هي للخلق جميعًا، أي: بعلمه وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَٰبِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

ألا ترى إلى موقف رسول الله ﷺ مع صاحبه في الغار، وقد وصل المشركون الباحثون، المتتبعون لأثرهما، إلى الغار الذي اختفيا فيه، ووقفوا أمامه على بابه، وقال أبو بكر للرسول: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]»^(١).

فانظر إلى هذا الجواب الذي نشعر معه بأن محمداً ﷺ مستحضر أبداً معية الله، فلا غرو أن يكون الله معه، فهو لا يغيب عن ربه طرفة عين، والله سبحانه مع عباده المؤمنين، ومع عباده المتقين، ومع عباده المحسنين، ومع عباده الصابرين، ومحمد ﷺ، في طليعة هؤلاء جميعاً، إيماناً وتقوى، وإحساناً وصبراً.

إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ:

وكذلك نجد موسى ﷺ، حين أدركه فرعون وجنوده، والبحر من أمامهم، والعدو من خلفهم، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّآ لَمُدْرَكُونَ﴾ * قَالَ كَلَّا * بهذه الثقة، وهذا اليقين، كان جواب موسى لأصحابه، وقد أصابهم الفزع، لما أدركهم فرعون أو كاد، قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

قال الإمام البقاعي: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ * ضعفاً وعجزاً، استصحاباً لما كانوا فيه عندهم من الذل، ولأنهم أقل منهم بكثير: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٣٨١)، عن أبي بكر الصديق.

أي: لأنهم قد وصلوا ولا طريق لنا، وقد صرنا بين سدين من حديد وماء، العدو وراءنا والماء أمامنا. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﷺ، وثوقاً بوعده الله، ناطقاً بمثل ما كلمه به ربه في أول القصة من قوله: ﴿كَلَّا﴾، أي: لا يدركونكم أصلاً؛ ثم علل ذلك تسكيناً لهم بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾. فكانهم قالوا: وماذا عساه يفعل وقد وصلوا؟ قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: بوعده مؤكّد عن قرب، إلى ما أفعل ممّا فيه خلاصكم»^(١).

وهنا أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى:

وإنما كان موسى واثقاً تماماً من معية ربه له، لأنه سبحانه حين أرسله وأخاه هارون إلى فرعون قال لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّتُنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٣ - ٤٦] وهكذا طمأنهما الله ﷻ بقوله الحق ووعد الصدق: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فهو قريب منهما، بل هو معهما، يسمع كل قول، ويرى كل فعل، ولا يغيب عنه شيء، ومن كان معه الواحد القهار، القوي العزيز، القادر على كل شيء، الفعّال لما يريد، كيف يخاف من عدوّه، ولو كان هو فرعون المتأله الجبار؟!

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٤/١٤)، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢ - إحصان العبادة وإتقان العمل:

ومن ثمرات المراقبة: إحصانُ العبادة لله تعالى، وإتقانُ كل عمل يُوكَلُ إلى الإنسان، دينيًا كان أم دنيويًا، وفي حديث جبريل المشهور: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَلَةَ أَسْئَلَةٍ مُهِمَّةٍ حَوْلَ أَصُولِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مِنْهَا سَوَالٌ عَنِ «الْإِحْسَانِ» بَعْدَ سَوَالَيْنِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَكَانَ جَوَابُهُ ﷺ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

مرتبتا الإحصان:

وكأنَّه يشير بجوابه إلى أَنَّ الإحصان - كما بيَّنَّا - على مرتبتين:

الأولى: أَنْ تُؤَدِّيَ العبادة لله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَلَيْسَ هَيِّنًا أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ بِالْعَمَلِ، وَهُوَ يَرَى رَبَّهُ بَعِينَهُ، فَكَمْ يَكُونُ إِحْكَامُهُ لِلْعِبَادَةِ، وَكَمْ يَكُونُ إِتْقَانُهُ لِلْعَمَلِ، وَكَمْ يَتَحَرَّى أَلَّا يَقَعَ فِيهِ أَيْ خَلَلٌ.

والثانية: أَنْ يُؤَدِّيَ العبادة، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَرَاهُ وَيَرِاقِبُهُ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ رَبَّ الْعَمَلِ يَرِاقِبُهُ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ فَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي إِرْضَاءِ صَاحِبِ الْعَمَلِ، وَاكْتِسَابِ ثِقَتِهِ^(٢).

وقد قال البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]: «ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا»، أَي: لَا زَمَوا التَّقْوَى إِلَى أَنْ أَوْصَلْتَهُمْ إِلَى مَقَامِ الْمُرَاقَبَةِ، وَهِيَ الْغِنَى عَنِ

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٢) انظر ما تقدّم من الحديث عن هاتين المرتبتين في مقام المراقبة.

رؤية غير الله، فأفهم ذلك أن من لم يبلغ رتبة الإحسان لا يمتنع أن يكون عليه جناح مع التقوى والإيمان، يُكفر عنه بالبلايا والمصائب حتى ينال ما قدر له ممّا لم يبلغه عمله من درجات الجنان، ومما يدلُّ على نفاسة التقوى وعزتها: أنه سبحانه لما شرطها في هذا العموم، حثَّ عليها عند ذكر المأكل بالخصوص.. فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨]، وهذا في غاية الحث على التورع في المأكل والمشرب، وإشارة إلى أنه لا يوصل إلى مقام الإحسان إلا به، والله الموفق.

ولما كان التقدير: فإنَّ الله يحب المتقين المؤمنين، عطف عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ أي: الذي له صفات الكمال: ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقال ابن جزي: «قيل: كرّر التقوى مبالغةً.

وقيل: الرتبة الأولى: اتقاء الشرك. والثانية: اتقاء المعاصي. والثالثة: اتقاء ما لا بأس به حذرًا ممّا به البأس.

وقيل: الأولى للزمان الماضي. والثانية: للحال. والثالثة: للمستقبل.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾، يحتمل أن يريد الإحسان إلى الناس، أو الإحسان في طاعة الله وهو المراقبة، وهذا أرجح؛ لأنه درجته فوق التقوى، ولذلك ذكره في المرة الثالثة، وهي الغاية.

ولذلك قالت الصوفية: المقامات ثلاثة: مقام الإسلام، ثم مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان^(٢).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٩٧/٦).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٤٣/١).

٣ - المراقبة أساس التقوى:

وينبغي أن يُعلم أن مراقبة الله تعالى، هي أساس التقوى، التي وصّى الله بها الأولين والآخرين من الأمم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

والتَّقوى هي سبب لكل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، فيها النجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

وبها دخول الجنة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وبها النجاة من عذاب الدنيا: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ [النمل: ٥٣].

وبها السلامة من كيد الأعداء: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وبها السّعة والبركة في الرزق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وبها الخروج من كل مأزق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيرزقه مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وبها تيسير كل أمر: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وبها الفرقان في المتشابهات: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وبها تُنال ولاية الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢، ٦٣].

كما أنه تعالى مع المتقين، وهو يحبُّ المتقين، إلى آخر ثمراتها الطيبة، وآثارها الجميلة، في الدنيا والآخرة، للفرد والجماعة.

سرُّ التقوى:

وسرُّ هذه التَّقْوَى في القلب، وهي خشية الله تعالى، ولهذا أشار النبي ﷺ إلى صدره، وقال: «التَّقْوَى هَاهُنَا» ثلاثاً^(١)، وأكد ذلك القرآن حينما أضاف التَّقْوَى إلى القلوب، فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومراقبة الله تعالى، في السرِّ والعلن هي أساس الخشية، التي هي أساس التقوى.

والتَّقْوَى أيضًا تثمر إتقان العبادة والعمل:

ولا غرو أن يُحسن التقيُّ عبادته كأنه يرى الله تعالى، أو يوقن بأن الله يراه ويطلع عليه.

وهو كذلك يُحسن عمله المطلوب منه في دنياه، سواء كان عملاً علمياً من أعمال العقل، أو عملاً مهنيًا من أعمال الجسم؛ لأن الله يحبُّ ذلك، والتقيُّ حريص على حب الله تعالى، ففي الحديث النبوي: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ»^(٢).

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني (١٩٩/١٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٨٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٢)، عن كليب الجرمي.

وهو يتخلّق بأخلاقِ الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]،
وَأَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾،
[النمل: ٨٨].

ولا سيما إذا عرف أنّ إتقان العمل فريضة إسلامية، كتبها الله على
المسلمين، ففي الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ»^(١). وهو من أحاديث الأربعين النووية التي حفظها الكثير
من المسلمين.

وهو يتقن العمل أو الصنعة أو العبادة، ابتغاء وجه الله وحده، الذي
يراقبه فيما يؤديه من عمل، ولا يراقب البشر، لأنّ عينه ترقبه في كلّ
حركاته وسكناته، ما ظهر منها وما بطن، ولا يحبُّ أن يرى الله منه
ما ليس حسناً، بل ما ليس أحسن، فقد قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

صلاة المراقبين لله تعالى:

ولذا نرى أحد هؤلاء المراقبين إذا أقام صلاته، لم يكن همُّه الجانب
الظاهري منها، بل يعلم أنّ روح الصلاة هو الخشوع، وحضور القلب،
ومراقبة الربّ، فربّ صلاة يؤديها صاحبها لا يكتب له منها إلا عشرها،
أو أقل من ذلك، بحسب حضور قلبه فيها.

فعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه أنّ عماراً صلّى
ركعتين، فقال له عبد الرحمن بن الحارث: يا أبا اليقظان، لا أراك إلا قد
خففتها. قال: هل نقصت من حدودها شيئاً؟ قال: لا، ولكن خففتها.

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١٣٩)، عن شداد بن أوس.

قال: إِنِّي بَادَرْتُ بِهِمَا السَّهْوَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصَلِّيَ وَلَعَلَّهُ أَلَّا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عَشْرَهَا، أَوْ تِسْعَهَا، أَوْ ثَمَنَهَا، أَوْ سَبْعَهَا» حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ^(١).

رووا أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا حَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ يَتَزَلَّزَلُ وَيَتَلَوَّنُ وَجْهَهُ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا: مَا لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: جَاءَ وَقْتُ أَمَانَةٍ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلْتُهَا^(٢).

ويروى عن عليِّ بن الحسين زين العابدين: أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ اصْفَرَ لَوْنَهُ، فَيَقُولُ لَهُ أَهْلُهُ: مَا هَذَا الَّذِي يَعْتَرِيكَ عِنْدَ الْوُضُوءِ؟ فَيَقُولُ: أَتَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ^(٣)؟!

ويروى عن حاتم الأصمِّ: أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ صَلَاتِهِ، فَقَالَ: إِذَا حَانَتِ الصَّلَاةُ، أَسْبَغْتُ الْوُضُوءَ، وَأَتَيْتُ الْمَوْضِعَ الَّذِي أُرِيدُ الصَّلَاةَ فِيهِ، فَأَقْعُدُ فِيهِ حَتَّى تَجْتَمَعَ جَوَارِحِي، ثُمَّ أَقُومُ إِلَى صَلَاتِي، وَأَجْعَلُ الْكُعْبَةَ بَيْنَ حَاجِبِيَّ، وَالصِّرَاطَ تَحْتَ قَدَمِيَّ، وَالْجَنَّةَ عَنْ يَمِينِي، وَالنَّارَ عَنْ شِمَالِي، وَمَلَكُ الْمَوْتِ مِنْ وَرَائِي، وَأَحْسِبُهَا آخِرَ صَلَاةٍ لِي، ثُمَّ أَقُومُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَأَكْبِرُ تَكْبِيرًا بِتَحْقِيقٍ، وَأَقْرَأُ قِرَاءَةً بِتَرْتِيلٍ، وَأَرْكَعُ رُكُوعًا بِتَوَاضُعٍ، وَأَسْجُدُ سَجُودًا بِتَخَشُّعٍ، وَأَتَّبِعُهَا الْإِخْلَاصَ، ثُمَّ لَا أُدْرِي أَقْبِلَتْ مِنِّي أَمْ لَا^(٤)؟!

(١) رواه أحمد (١٨٨٧٩)، وقال مخرجه: صحيح. وأبو داود في الصلاة (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى في صلاة السهو (٦١٤)، وابن حبان في الصلاة (١٨٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين (١٥١/١).

(٣) رواه أحمد في الزهد (٢١٣٨).

(٤) إحياء علوم الدين (١٥١/١).

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصرتان في تفكُّر، خير من قيام ليلة بقلب ساهٍ^(١).

فهذه صلاة المراقبين الذين أثنى الله عليهم في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿[المؤمنون: ١، ٢]، وليست صلاة الخطّافين، الذين ينقرونها نقر الديكة، كما جاء في الصحيح: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب قرص الشمس، حتّى إذا كانت بين قرني شيطانٍ - كناية عن قرب الغروب - قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(٢).

فما أعظم الفرق بين هذه الصلاة، وبين صلاة الذاكرين، الخاشعين المراقبين، التي ذكرناها من قبل.

عبادات أهل المراقبة:

وكلُّ عبادات أهل المراقبة، تجدها غاية في الإتيان، والتّصفية من الشوائب، في الزكاة والصيام والحج، نراها في دائرة «الإحسان» الذي يحبُّ الله أهله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

عن أبي بن كعبٍ قال: بعثني رسول الله ﷺ مُصَدِّقًا، فمررتُ برجلٍ، فلما جَمَعَ لي ماله، لم أجِدْ عليه فيه إلا ابنة مخاض، فقلت له: أَدَّ ابنة مخاضٍ، فإنها صدقتك. قال: ذاك ما لا لبن فيه ولا ظَهْر، ولكن هذه ناقةٌ فتيةٌ عظيمةٌ سميّةٌ فخذها. فقلت له: ما أنا بأخذ ما لم أؤمر به، وهذا رسولُ الله ﷺ منك قريبٌ، فإن أحببت أن تأتيه، فتعرض عليه ما عرضت عليّ، فافعل، فإن قبله منك قبلته، وإن ردّه عليك رددته.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٨٨).

(٢) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٩٨٧)، وأحمد (١١٥٦١)، (٥٠٧) عن أنس.

قال: فَإِنِّي فاعِلٌ، فخرج معي، وخرج بالناقة الَّتِي عَرَضَ عَلَيَّ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال له: يا نبيَّ الله، أَتَانِي رَسُولُكَ لِيَأْخُذَ مِنِّي صَدَقَةً مَالِي، وإيَّمُ الله ما قامَ في مالي رسولُ الله ﷺ ولا رسولُهُ قَطُّ قَبْلَهُ، فجمعتُ له مالي، فزَعَمَ أَن ما عَلَيَّ فِيهِ ابْنَةُ مُخَاضٍ، وذلك ما لا لَبَنَ فِيهِ ولا ظَهَرَ، وقد عَرَضْتُ عَلَيْهِ نَاقَةً فَتَيَّةً عَظِيمَةً لِيَأْخُذَهَا، فَأَبَى عَلَيَّ، وَها هي ذِهْ، قد جئتُكَ بها يا رسولَ الله خُذْها.

فقال له رسول الله ﷺ: «ذَاكَ الَّذِي عَلَيْكَ، فَإِنْ تَطَوَّعْتَ بِخَيْرٍ، آجَرَكَ اللهُ فِيهِ، وَقَبِلْنَاهُ مِنْكَ».

قال: فَها هي ذِهْ يا رسولَ الله، قد جئتُكَ بها فَخُذْها.

قال: فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَبْضِهَا، وَدَعَا لَهُ فِي مَالِهِ بِالْبَرَكَةِ^(١).

وَأَعْطَى بَعْضَهُمْ لِبَعْضِ الْمَسَاكِينِ شَيْئًا ثَمِينًا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَوْلَهُ: إِنَّ الْمَسْكِينِ لَا يَدْرِي قِيَمَةَ مَا أُعْطِيَتْهُ، فَلَوْ أُعْطِيَتْهُ شَيْئًا آخَرَ لَكَانَ أَوْلَى. فَقَالَ: إِذَا كَانَ الْمَسْكِينُ لَا يَدْرِي قِيَمَةَ مَا أُعْطِيَتْهُ، فَإِنَّ رَبَّ الْمَسْكِينِ يَدْرِي.

٤ - الأمانة ورعاية المسؤولية:

ومن ثمرات المراقبة لله: أداء الأمانات إلى أهلها، وإعطاء كل ذي حق حقه، قبل أن يطلبه، وعدم التفريط في أموال الناس وأملاكها، فهو أحرص ما يكون على ألا ينقص من أحد شيئًا، ولو كان حبة من خردل،

(١) رواه أحمد (٢١٢٧٩)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود (١٥٨٣)، وابن حبان (٣٢٦٩)، والحاكم (٣٩٩/١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٩٦/٤)، أربعتهم في الزكاة، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤١١).

وأن يراعي الضعيف قبل القوي، والفقير قبل الغني، فلا يظلم ولا يغش ولا يخون، ولا يطفّف في مكيال أو ميزان، وإن كان يصنع لأحد شيئاً راعى الله فيه.

وحين تسري هذه الروح في أُمَّة، تراها وقد صلّح حالها، واستقام أمرها، وأدّيت الحقوق إلى أهلها، وأُسند الأمر إلى مَنْ يستحقّه، ورُعيت الواجبات، فرُعيت بها الحقوق.

وبهذا نرى الأمير يعدل في رعيته، يأخذ من غنيّهم لفقيرهم، وينصف ضعيفهم من قويّهم، ويسوّي بين أبيضهم وأسودهم.

ونرى القاضي يعدل في حكمه، لا يُحابي الشريف لشرفه، ولا يجور على الضعيف لضعفه، بل يحكم بينهما بما أنزل الله من الحق والميزان.

ونرى والي المال يحفظ الأمانة، فيما اتّمن عليه من مال، فلا يُعطي منه إلا من كان له حقّ، لا يُحابي قريباً لقربته، ولا ذا جاهٍ لجاهه، بل يُؤثر الفئات الضعيفة على غيرهم، من اليتامى والمساكين، وابن السبيل، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] أي: اختصّت هذه الفئات الضعيفة المسحوقة بالعطاء من الفيء، حتّى لا يُمسي المال متداولاً بين الأغنياء وحدهم، كما هو شأن الرأسمالية الطاغية، فأهم ما يميزها: أنّ المال فيها دولة بين الأغنياء وحدهم، وليس للفقراء والمستضعفين منه نصيب.

وكلّ موظف في الدولة يؤدّي عمله بأمانة وإحكام، لأنه يخاف الله تعالى ويراقبه، قبل أن يراقب الخليفة أو السلطان أو الشرطة أو غيرها.

٥ - تجنب معصية الله:

ومن ثمرات المراقبة لله: بُعِدَ من يستشعر أنَّ الله عليه رقيب عن معصية الله، كبيرة كانت أو صغيرة، ظاهرة كانت أم باطنة، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾، [الأنعام: ١٢٠]، وذلك لأنه يوقن بأنَّ عين الله تراه، إذا غفلت عنه أعين الخلق، فهو يستحي أن يُبارز الله بالعصيان، ويخاف من حسابه وعقابه، فيمتنع عن المعصية، بل يحذر منها، شأن المتقين.

قال فرقد السَّبْخِي: إِنَّ المنافق ينظر، فإذا لم يرَ أحدًا، دخل مدخل السوء، وإنما يراقب النَّاسَ ولا يراقب الله تعالى^(١).

والتقي يخشى الله ويراقبه، فيحذر الاقتراب من المعصية، حتَّى لو وسوس له الشيطان بمعصيته، سرعان ما يتذكر رقابة الله تعالى عليه، وحسابه له، فيبصر الحق ويرجع عن الشر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهو يخاف من المعاصي، صغيرها وكبيرها؛ لأنه لا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى كبرياء من عصاه.

وروي أن عمر رضي الله عنه سأل أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى، فقال أبي: هل مشيتَ في طريق فيه شوك؟ قال عمر: نعم. قال أبي: فماذا صنعت؟ قال عمر: شمرت وحذرت. قال أبي: كذلك التقوى، تُشَمَّر وتُحذر.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٩٨).

وأخذ ذلك الشاعر فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ كَبِيرَهَا وصَغِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
واصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى^{(١)(٢)}

يوسف الصديق وامرأة العزيز:

وهذا موقف يوسف الصديق عليه السلام، حين راودته امرأة العزيز التي
﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ
إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

لقد أخفق معه سلاح الإغراء، التي استخدمته المرأة، وهي ذات
منصب وجمال، فجربت سلاحاً آخر، هو سلاح الوعيد والتهديد، فقالت
أمام النسوة وهو يسمع: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].
والمرأة يبدو أنها متمكنة، قادرة أن تقول وتفعل، وتهدد وتنفذ، ولكن
هذا السلاح فشل أيضاً مع يوسف، الذي اعتصم بربه، ولاذ بجنابه،
قائلاً: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ولو لم يكن يوسف من «أهل المراقبة»، وممن ﴿رَعَا بَرْهَنَ رَبِّهِ﴾
ساطعاً، لكان أسرع ما يكون سقوطاً في الفاحشة، ولا سيما أن كل
العوامل تساعد على الاستجابة لدعوة المرأة.

(١) هو ابن المعتز كما في ديوانه ص ٢٩، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) تفسير القرطبي (١/١٦١، ١٦٢)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب
المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

فهو شاب، والشباب شُعلة من الجنون.

وهو عزب، ليس له زوجة تعفُّه وتؤنسه، والعزب يُعذر ما لا يعذر المتزوج.

وهو غريب عن وطنه، والغريب لا يستحيي ممّا يستحيي منه المواطن المقيم في بلده.

وهو مملوك، والمملوك لا يطالب بما يُطالب به الحرُّ والسيد.

وهو لم يسعَ إلى الفاحشة، ولكن الفاحشة هي التي سَعَت إليه: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾.

وهي التي استخدمت الإغراء، واستخدمت التهديد، والحث على الفتنة.

وهو يتوقع أن يصاب بأذى، أو ضرر من قبلها، إنْ هو أصرَّ على الإباء والامتناع، فهي امرأةٌ قادرةٌ على أن تُنفذ ما تُهدد به، ولا سيما أنها مجروحة، فقد بذلت نفسها، وطلبت بلسانها، واستعانت عليه بصواحبها.

ومع هذا كله أبى يوسف، واستعصم، فأَيَّده الله، وصَرَفَ عنه السُّوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المُخلصين.

وفي الحديث الصحيح المتَّفَق عليه: «سبعةٌ يُظْلَمُ الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» عدَّ منهم: «ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله تعالى»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٤٢.



فوالله لولا الله تخشى عواقبه:

وقد ذكرنا فيما سبق قصة الشاب الذي راود فتاة عن نفسها، فامتنعت وأبت، فقال لها: لماذا ولا يرانا إلا الكواكب، فقالت: ويحك، وأين مكوبها^(١)؟!

ولا ريب أن الشعور برقابة الله تعالى هو الذي كان يسيطر على ضمير تلك المرأة المسلمة التي غاب عنها زوجها، وطال غيابه، ودخل عليها الليل وهي تشعر بالوحدة والوحشة، فأنشأت تقول:

لقد طال هذا الليل واسودَّ جانبه وأرَّقني أن لا حبيب أَلْعِبُهُ
فوالله لولا الله تُخْشَى عَوَاقِبُهُ لَحْرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

وقد سمعها عمر وهي تنشد الشعر، فهاله وأفزعه، فسأل عنها، فعلم أن زوجها غاب في الجيش، فسأل ابنته حفصة: ما أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: أربعة أشهر، أو ستة أشهر. فأمر ألا يغيب زوج عن زوجته أكثر من هذه المدة^(٢).

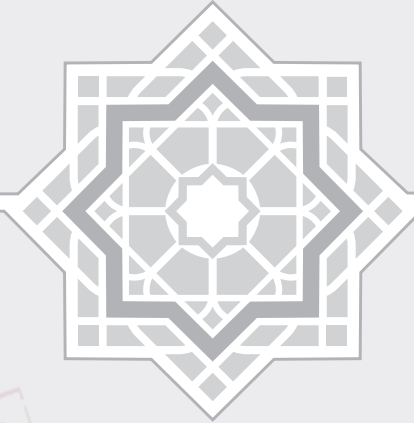
* * *

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٥٣).

(٢) رواه البيهقي في السير (٢٩/٩).



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفصل الثاني
المحاسبة



- (١) معنى محاسبة النفس وأهميتها
- (٢) كيفية المحاسبة
- (٣) مجالات محاسبة النفس
- (٤) فقه الأولويات في المحاسبة
- (٥) من ثمرات المحاسبة







معنى محاسبة النفس وأهميتها

ما المحاسبة؟

«المحاسبة» هي مصدر حَاسَبَ يُحَاسِبُ مُحَاسَبَةً وَحِسَابًا. ومن المعلوم في العربية أَنَّ (فَاعَلَ) مصدره القياس على وزن فَعَالٍ وَمُفَاعَلَةٍ.

ولم يَجِئ في القرآن الكريم المصدر من حاسب بصيغة المفاعلة (المُحَاسَبَةُ)، بل تَكَرَّرَت صيغة (فَعَالٍ)، ففي وصف يوم القيامة «يوم الحِسَابِ»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

كما جاء في سياق آخر، وهو إعطاء الرزق أو الأجر بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وكما جاء في حساب الزمن الذي يُعرف اليوم باسم الحساب الفلكي: ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥، الإسراء: ١٢].

كما جاءت في هذا المعنى بصيغة «فُعْلَان»: حُسْبَان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

قال العلامة الطاهر بن عاشور: «والمحاسبة مشتقة من الحُساب وهو العدُّ، فمعنى يُحاسبُكم في أصل اللغة: يُعْده عليكم، إلا أنه شاع إطلاقه على لازم المعنى، وهو المؤاخَذة والمُجازاة، كما حكى الله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشُّعْرَاء: ١١٣]، وشاع هذا في اصطلاح الشرع»^(١).

وقال أيضاً: «والمُحاسبة مستعملة في الجزاء على الفعل بما يناسب شدته من شديد العقاب، تشبيهاً لتقدير الجزاء بإجراء الحساب بين المتعاملين»^(٢).

وجاءت هذه المادة اسم فاعل «حاسب» في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ولا يخفى أن هذه المادة من حَسَبَ يَحْسُبُ، وهي غير حَسِبَ يَحْسَبُ وَيَحْسِبُ، بمعنى ظنَّ يظن مثل: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

وفي السُّنة جاء حديث: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ»^(٣). يقصد حساب الفلك والنجوم.

وفي عصرنا أصبحت «المحاسبة» علماً من علوم الإدارة والاقتصاد والتجارة، له أقسام وتخصّصات في الكليات الجامعية والمعاهد العليا،

(١) التحرير والتنوير (٣/١٣٠)، نشر الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

(٢) المصدر السابق (٣٣٤/٢٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، كلاهما في الصيام، عن ابن عمر.

وثنال به شهادات ودرجات أكاديمية، ويحصل فيه على بكالوريوس وماجستير ودكتوراه.

محاسبة النفس:

ولكن «المحاسبة» المقصودة هنا هي نقل هذا المفهوم الإداري والتجاري إلى ميدان النفس والسلوك، فيحاسبُ الناسُ أنفسهم كما يحاسبُ التجار والشركات في عالم المال والإدارة، وقد دخل فيه في عصرنا «الحاسب الآلي» أو «الكمبيوتر» الذي أصبح يُدقق في كسور الكسور، ولا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكشفها.

ف «المحاسبة» التي نبحثها في هذا الكتاب محاسبة من نوع آخر، هي محاسبة المرء نفسه في دنياه على أحواله وأعماله الظاهرة والباطنة، بل على خطراته ونيّاته قبل أن تتحوّل إلى عمل، يحاسب المرء نفسه قبل أن يحاسبه ربّه، ويسأل نفسه بعيداً عن الناس، قبل أن يصير السؤال إلى غيره، ويّزن أعماله بالميزان الشرعي الشامل، الذي يشمل أعمال الجسم وأعمال الرّوح، قبل أن توزن عليه بميزان حسّاس دقيق، لا يفلت منه مثقال ذرّة، ولا مثال حبة من خردل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذه المحاسبة - كالمراقبة - مقامٌ من مقامات المتقين، ومنزلةٌ من منازل السّالّكين إلى مرّضاة ربّ العالمين. ولهذا غني بهما رجال السلوك، وعلماء التصوف، لأهميتهما في مجال التربية الإيمانية، والتوجيه الخلقي، والدعوة الدينية، والتعبئة الروحية.

ضرورة المحاسبة لكل مسلم:

عرفنا من النَّاس من له عناية بالغة بجسمه وأعضائه، وبكل ما يتعلق بنظافته وصحته وزينته وجماله، وله برنامج لغذائه وشرابه، وعمله وراحته، ومناسباته المختلفة، وله طبيب يشرف عليه، ويعينه على سلامته. ولا بأس بذلك في حدود الاعتدال دون الغلو أو التقصير.

ولكن مع هذا لا بدّ لكل مسلم أن يكون له مواقف مع نفسه يحاسبها ويعاتبها، بل يعاقبها ليأمن شرها، ويتحكّم في قيادها.

الآيات والأحاديث في محاسبة النفس:

وقد وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح، في التأكيد على محاسبة النفس، وبيان أهميتها وآثارها النافعة المباركة في التزكية.

ومن هذه الأدلة:

١ - قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. قال الإمام بن القيم: هذه الآية تدلُّ على وجوب محاسبة النفس^(١).

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وانظروا ما ذا ادّخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.. واعلموا أنه عالمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية»^(٢).

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٨٤/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧٧/٨)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢ - وقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

قال مجاهد: اللّوامة هي التي تندم على ما فات وتلوم صاحبها^(١).
وقد أقسم الله بها وذكرها مع يوم القيامة دلالةً على شرفها ومنزلتها،
وبياناً لضرورة المحاسبة وأهميتها.

٣ - وقال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

فالإنسان بصير بعيوب نفسه، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه،
فلن ينفعه ذلك يوم القيامة، وهذه إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس
ومحاسبتها وكشف عيوبها قبل فوات الأوان.

ومن الأحاديث الواردة في محاسبة النفس:

عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه - وكان من كتّاب رسول الله ﷺ - قال:
لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة.

قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا
بالنّار والجنّة، حتّى كأنّا رأينا عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ
عافسنا^(٢) الأزواج والأولاد والضّيّعات، فنسينا كثيراً.

قال أبو بكر: فو الله، إنّنا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر، حتّى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق
حنظلة، يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله،
نكون عندك، تذكّرنا بالنّار والجنّة، حتّى كأنّا رأينا عين. فإذا خرجنا من
عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضّيّعات، نسينا كثيراً.

(١) أدب النفوس للإمام الآجري (١٩)، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) عافسنا: عالجتنا معاشتنا وحظوظنا.

فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكنْ - يا حنظلة - ساعةً وساعةً» ثلاث مرَّات^(١).

وعن شدَّاد بن أوسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ^(٢) من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأمانى»^(٣).

قال الإمام الترمذي: معنى «دان نفسه» أي: حاسبها في الدنيا قبل أن يُحاسب يوم القيامة. ويوم الدين: يوم الحساب. كما قال تعالى: ﴿أَيْنَا لَمَدِيُونٌ﴾ [الصفات: ٥٣]. أي: لمحاسبون.

من أقوال السلف في المحاسبة:

قال الحسن البصري رضي الله عنه: إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همَّته^(٤).

وقال الحسن: «المؤمنُ قَوَّامٌ على نفسه، يُحاسبها لله، وإنما خفَّ الحسابُ على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدُّنيا، وإنما شقَّ الحسابُ يومَ القيامة على قومٍ، أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، وأحمد (١٧٦٠٩)، عن حنظلة الأسيدي.

(٢) الكَيِّس: هو العاقل.

(٣) رواه أحمد (١٧١٢٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٢٨٠/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٥/٢).

ثم فسّر المحاسبة، فقال: إِنَّ المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول: والله إِنَّكَ لتعجبني، وإنَّكَ من حاجتي، ولكن هيهات، حيل بيني وبينك. وهذا حساب قبل العمل. ثُمَّ قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ماذا أردتُ بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله^(١). وهذا حساب بعد العمل.

وعن وهب بن منبه، قال: مكتوب في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها، فيما يحلُّ ويُحمد، فإنَّ في هذه السّاعة عوناً على تلك السّاعات، وإجماماً للقلوب. أي: راحة لها.

وحقٌّ على العاقل ألا يُرى ظاعناً إلا في ثلاث: زاد لميعاد، أو مرمة لمعاش^(٢)، أو لذة في غير محرّم.

وحقٌّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسّانه، مقبلاً على شأنه^(٣).

وقال السّريُّ بن المغلّس السّقطي: التوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب، والندامة على ما فرط من العيوب، والاستقصاء في المحاسبة مع النّفس بالاستكانة والخضوع^(٤).

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٥٧).

(٢) أي ما يصلح به معاشه. من رَم الشيء يَرُمّه إذا أصلحه.

(٣) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٣١٦/٨)، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد، قال: أنت يونس؟ قال: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتّى أرانيك، إني أريد أن أسألك عن مسألة. قال: سَلْ عَمَّا بدا لك. قال: ما غاية الورع؟ قال: الخروج من كلّ شبهة، والمحاسبة عند كل طرفة. - لأن الورع دائم المراقبة لمولاه، فلا يغفل عمّا أمره به، ولا يأتي ما نهاه عنه - قال: فما غاية الزهد؟ قال: ترك الراحة^(١).

وسئل الحارث بن أسد المُحَاسِبِي: بمَ تحاسب النفس؟ قال: بقيام العقل على حراسة جنابة النفس، فيتفقد زيادتها من نقصانها.

ف قيل له: وممّ تولد المحاسبة؟ قال: من مخاوف النقص، وشئْن البخس، والرغبة في زيادة الأرباح.

والمحاسبة تورث الزيادة في البصيرة، والكَيْس في الفطنة، والسرعة إلى إثبات الحجة، واتّساع المعرفة، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش.

ف قيل له: من أين تخلف العقول والقلوب عن محاسبة النفوس؟ قال: من طريق غلبة الهوى والشهوة؛ لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان^(٢).

وقال الحارث المُحَاسِبِي: المحاسبة والموازنة في أربعة مواطن: فيما بين الإيمان والكفر، وفيما بين الصدق والكذب، وبين التوحيد والشرك^(٣).

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٨٤٠).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٨/١٠).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٩/١٠).

وقال أبو العباس بن عطاء: تولّد ورع المتورعين من ذكر الذرّة والخردلة، وأن ربّنا الذي يحاسب على اللّحظة والهَمْزة واللّمْزة لمستقص في المحاسبة، وأشد منه أن يحاسبه على مقادير الذرّة وأوزان الخردلة، ومن يكن هكذا حسابه لحريّ أن يُتّقى^(١).

أركان المحاسبة:

قال ابن القيم رحمه الله: «قال صاحب المنازل (الهروي): المحاسبة أركان ثلاثة:

أحدها: أن تقايس بين نعمتك وجنائتك، يعنى أن تقايس بين ما من الله وما منك، فحينئذ يظهر لك التّفاوت، ومعلوم أنّه ليس إلّا عفوهِ ورحمته، أو الهلاك والعطب، وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النّفس وصفاتها وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الربّ بالكمال والإفضال، وأنّ كلّ نعمة منه فضل، وكلّ نقمة منه عدل.

ثمّ تقايس بين الحسنات والسّيّئات، فتعلم بهذه المقايسة أيّهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة.

وثاني هذه الأركان: أن تميّز ما للحقّ عليك من وجوب العبوديّة والتزام الطاعة واجتناب المعصية، وبين ما لك وما عليك، فالذي لك هو المباح الشرعيّ، فعليك حقّ ولك حقّ، فأدّ ما عليك يؤتّك ما لك.

الثالث: أن تعرف أنّ كلّ طاعة رضيّتها منك فهي عليك، وكلّ معصية عيّرّت بها أخاك فهي إليك؛ لأنّ رضاء العبد بطاعته دليل على حُسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبوديّة، وعدم عمله بما يستحقّه الربّ جلّ جلاله ويليق أن يُعامل به.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٨٣).

وحاصل ذلك: أنَّ جهله بنفسه وصفاتها وآفاتا وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به؛ يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العُجب والكِبَر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنى وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها.

فالأرضاء بالطاعة من رعونات النَّفس وحماتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عَقِيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه^(١).

المحاسبة سبيل لتزكية النفس:

قال الإمام الماوردي: «محاسبة النفس: أن يتصفَّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محمودًا، أمضاه، وأتبعه بما شاكره وضاهاه، وإن كان مذمومًا، استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل»^(٢).

وإنَّما يفعل المكلف ذلك إذا كان يقظًا لنفسه غير غافل عنها، يُحاسبها دائمًا، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو ذر: أنه ممَّا كان في صحف إبراهيم: ينبغي أن يكون للعاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكَّر فيها في صنْع الله ﷻ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب^(٣).

(١) مدارج السالكين (١٩٢/١) بتصرف واختصار.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٣٥٦، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

(٣) رواه ابن حبان في البر والإحسان (٣٦١)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف جدًا. وقد رواه عبد الرزاق في جامع معمر (١٩٧٩٠)، عن وهب بن منبه قال: وجدت في حكمة آل داود. ولعله أشبه بالصواب.

فينبغي أن يقسم الإنسان ساعاته، وأن يوزع أوقاته هكذا، فلا يدع الأمور «سبهلة»، لا يدع كل أوقاته تضيع عبثًا، لا، إن كان ولا بدّ فساعة لقلبك، وساعة لربك، أما أن تجعل ثلاثة وعشرين ساعة لقلبك، وساعة واحدة لربك، فهذا لا يجوز، والساعة التي لربك لا تُخلص فيها لربك، حتّى إنك إذا وقفت بين يديه مصليًا فإن قلبك ليس معك، قلبك في الدنيا، قلما تخشع، وقلما تطمئن، فماذا بقي لله تعالى من ساعاتك؟!

فالحزم والاحتياط أن تنظر لنفسك، فالدنيا ثلاثة أيام - كما روي في بعض الآثار -: يومٌ مضى لا تستطيع أن تسترجعه، ويومٌ آتٍ لا تعرف أدركه أم لا تدركه، ويوم أنت فيه، فهذا هو الذي ينبغي أن تهتم به^(١).

بل قال بعض الناس: الدنيا ثلاث ساعات: ساعة مضت، وساعة آتية ربما لا تدركها، وساعة أنت فيها فهي التي لك فبادر إليها^(٢). ولا يقصد بالساعة: الساعة الفلكية (ستين دقيقة)، ولكن يعني: اللحظة التي أنت فيها.

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ وَالْغُرُورُ الْغُرُورُ مَنْ يَجْتَبِهَا
مَا مَضَى فَاتٌ، وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا^(٣)

بل قال إمام الحرمين: الدنيا ثلاثة أنفاس: نفسٌ مضى، ونفسٌ آت، ونفسٌ أنت فيه^(٤). كانوا يحسبونها بالنفس، فربما تتنفس نفسًا ولا يدركك النفس الآتي أو لا تدركه: فالعمر إنّما هو أنفاس محدودة، ولحظات معدودة.

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٤٧٧)، عن الحسن البصري.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٩/٢) من كتاب الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز.

(٣) البيتان لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي، كما في المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي (٧٥٢/١٧)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(٤) فيض القدير (٥٠/٥).



كيفية المحاسبة

لا بدّ من محاسبة النفس، وذلك بأن تحاسبها قبل العمل، وتحاسبها أثناء العمل، وتحاسبها بعد العمل:

أولاً: قبل العمل:

قبل العمل هو نوع من المشاركة على النفس^(١)، تشترط ألا تُقدم على حرام، بل لا تُقدم على شبهة، بل لا تُقدم على مكروه. وكلما ارتقت زدت في حسابها.

فإذا أردت عبادةً فانظر ماذا أردت بها: أردت بها وجه الله أم وجوه الناس؟ وهل تؤدّيها على الوجه المشروع أو لا؟

إذا أردت عملاً من أعمال الدنيا فابحث قبل أن تُقدم عليه عن مشروعيتها: أحلالٌ هو أم حرامٌ؟ ألك حقٌّ فيه أو لا؟ وماذا تريد بهذا العمل؟ هكذا يصنع المحاسبون لأنفسهم.

ثانياً: تحاسبها في أثناء العمل:

فإذا كان من المأمورات كالصلاة والصيام والزكاة، يجب أن تؤديه على الوجه الشرعي، حتّى يُقبل عند الله تعالى، الذي خلق الناس

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣٩٦/٤) وما بعدها، المحاسبة قبل العمل.

ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وأحسن العمل - كما قال الفضيل بن عياض - أن يكون خالصاً صواباً، فإنه إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وخلوصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السنة^(١).

فلكلّ عبادة أركان وشروط، وآداب ومكمّلات، والناس يتفاوتون في أداء هذه الأمور، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ثالثاً: تحاسبها بعد العمل:

ثم بعد العمل لا بدّ أن تحاسب نفسك: هل أدّيته كما ينبغي أو قصرت فيه؟ هل أتقنته كما يحبّ الله تعالى؟ «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»^(٢)، «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٣). أم أدّيته مجرد أداء؟ هل راعيت وجه الله تعالى فيه أو لا؟ هل خنت عملك؟ هل غششت فيه؟ هل تعدّيت حدودك؟ هل تعدّيت على حقّ مخلوق آخر؟

ولا يزال الإنسان المؤمن يحاصر نفسه بالأسئلة المتلاحقة، حتّى لا يدع أي جزئية صغيرة دون أن يصيبها سؤال من قريب أو من بعيد.

(١) مدارج السالكين (١/١٠٤، ١٠٥).

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في الشعب باب الأمانات (٥٣١٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٧.

حقيقة المحاسبة بعد العمل:

وحسبنا هنا ما جاء في القرآن والسُّنَّة، فقد قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنها قبل أن تُوزنوا^(١).

وفي الخبر: «وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه...»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه.

وقد قال عليه السلام: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن العبد كما يكون له وقتٌ معلوم في أول النهار، يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار كذلك ساعة معلومة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها: في أي شيء تحرّكت؟ وفي أي شيء سكنت؟ وهذا كما يفعل التجّار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم، حرصاً منهم على حوز متاع الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٠٠).

(٢) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٨٢٩١)، عن الأغر بن يسار المزني.

فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى ما حصل، إلا أيامًا قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلّق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشريك: أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبيّن له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل، استوفاه وشكره، وإن كان من خسران، طالبه بضمانه، وكلفه تداركه في المستقبل، فكذاك رأس مال العبد في دينه: الفرائض، وربحه: النوافل والفضائل، وخسرانه: المعاصي.

وموسم هذه التجارة: جملة النهار، وطرف من الليل، ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإنها رأس ماله، فإن أداها على وجهها بأدابها وشروطها شكر الله تعالى عليه، ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة الشروط والآداب، كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه.

وكما أنّ التاجر يُفتّش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان، حتّى لا يُغبن في شيء منها، فينبغي أن يتّقي غبينة النفس ومكرها، فإنها خداعة مُلبسة مكّارة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة.

وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره، وقيامه وقعوده، وأكله وشربه ونومه، حتّى عن سكوته أنه لمّ سكت؟ وعن سكونه لمّ سكن؟

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصحَّ عنده قدر أدنى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوباً له، فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبتته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه، كما يكتب التاجر الباقي الذي على شريكه على قلبه، وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يُستوفى منه الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها بردّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب، وتمييز الباقي من الحساب الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء^(١).

المحاسبة على جميع العمر:

ثم قال الإمام الغزالي: «ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً، وساعةً ساعةً، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة بن الصّمّة العابد، وكان بالرقّة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً عُمُرَه، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، من ضرب أيام السنة بالستين، فصرخ، وقال: يا ويلتا، ألقى المليك بأحد وعشرون ألف ذنب، فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشياً عليه، فإذا هو ميّت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضةً إلى الفردوس الأعلى^(٢)!

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩١٦).

في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والمَلَكُان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]»^(١).

طريقة محاسبة النَّفس عند الإمام العز بن عبد السلام:

وقال الإمام العز بن عبد السلام في بيان محاسبة النَّفس على الأعمال السالفة والمستأنفة: «أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفوس في ما سلف في الأعمال، وفيما يستقبل منها، فالكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله سبحانه».

فأما المحاسبة في الماضي، فبأن ينظر في التّقوى المتعلقة بالقلب والجوارح والأعضاء، فيعتبرها عضواً عضواً، وطاعة طاعة، فإن سلم جميع ذلك بأركانه وشرائطه وأوقاته وأسبابه، فليحمد الله سبحانه على ذلك، فإنه من أكمل نعمة الله تعالى على عباده.

والأولى به أن يحاسب نفسه من ليل إلى ليل، فما رآه من تقصير في يومه ذلك فليتداركه بالتوبة والاستغفار، وكذلك كان يصنع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإن وجد في أعمال يومه ظلاماً، فليردها من وقته على أهلها إن أمكن ذلك، وإلا فليعزم على ردّها على حسب إمكانه.

وأما المحاسبة في المستأنف، فلينظر إذا خطر له إقدام على فعل أو إحجام عنه، فإن كان ذلك الفعل سيئة أحجم عنه، وعن العزم عليه، وليغيّبه عن خاطره ما استطاع.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٦).

فإن مالت إليه نفسه، واشتدَّت شهوته، فليجاهدها بصرفها عنه
وخلاصها منه.

فإن غلبته وعزمت عليه، فليجاهدها في الإقلاع عن عزميتها
والاستغفار منها.

فإن غلبته نفسه العاصية الأمّارة بالسوء ففعل ذلك، فليبادر إلى
التوبة، وهي الندم على ما فاتته من طاعة الله تعالى، والعزم على ألاّ
يعود إلى مثل ذلك في المستقبل، والإقلاع عن المعصية إن كان
ملابسها في الحال.

فإن أخر التوبة أثم بتأخيرها عن كل وقت يتّسع لإيقاعها فيه.

فإن أبت نفسه عن الإقلاع، فليحذّر بما يفوتها من ثواب الله ﷻ،
وبما تعرضت له من عقاب الله تعالى، ويستمر على تخويفها بذلك إلى
أن يحصل الخوف الموجب للتوبة والاستغفار من الحوبة»^(١).

طريقة محاسبة النفس عند الإمام ابن القيم:

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمته الله في حديثه عن المحاسبة وصفاً
للطريقة التي ينبغي للمسلم أن يسلكها في محاسبة نفسه والتدقيق على
أعماله، فقال: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن
تذكر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنّه ارتكب منها شيئاً تداركه
بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله ﷻ ص ١٨، ١٩.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عمّا خُلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى.

ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشى إليه رجلاه، أو بطشت يدها، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنّه لا بدّ أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص. والثاني: سؤال عن المتابعة»^(١).

فالمحاسبة تشمل كل حياة المسلم، وكل صغيرة وكبيرة يعملها أو يتركها، أو يعزم عليها في قلبه، وكلما أحكم العبد رقابته على نفسه كان أكثر سلامة من شرورها.

أفضل الأوقات للمحاسبة:

ليس للمحاسبة وقت مُحدّد أو ساعة معيّنة، فالمسلم رقيب على نفسه يعاتبها ويحاسبها في كل أوقاته، ومع ذلك يستحب له أن يكون له مجلس مع نفسه عندما يريد النوم ليقوم بمحاسبتها، وهذا أنفع الأوقات؛ لأنه يحصي على نفسه أعمال يومه ليعرف الربح والخسارة.

قال الإمام الماوردي رحمه الله: «ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر، وأجمع للفكر، فإن كان محموداً أمضاه، وأتبعه بما شاكلة وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل»^(٢).

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان لابن القيم (١/٨٣).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٥٦.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ومن أنفعها - أي: الأسباب المنجية من عذاب القبر -: أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة، يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزم على ألا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل، مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فات»^(١).

ولا شك أن ممّا يساعد على صفاء الذهن عند المحاسبة: أن يجلس العبد بعيداً عن الناس، ويخلو بنفسه؛ لأن انشغاله بمن حوله يحول دون صدق المحاسبة ودقتها.

ولهذا قال مسروق رحمه الله: «إنَّ المرءَ لحقيقٌ أن يكون له مجالسٌ يخلو فيها، يتذكر ذنوبه ويستغفر منها»^(٢).

محاسبة الصالحين أنفسهم قبل النوم حتى على الخواطر:

قال المناوي في شرح حديث: «الكيس من دان نفسه»: «قال ابن العربي: كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به، وما يفعلونه، ويقيّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء، حاسبوا نفوسهم، وأحضروا دفتريهم، ونظروا فيما صدر منهم من قولٍ وعملٍ، وقابلوا كلا بما يستحقّه، إن استحق استغفاراً استغفروا، أو التوبة تابوا، أو شكراً شكروا،

(١) الروح لابن القيم ص ٧٩، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) صفة الصفوة (١٦/٢)، تحقيق أحمد بن علي، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.



ثمَّ ينامون. فزدنا عليهم في هذا الباب: الخواطر، فكنا نقيّد ما نحدّث به نفوسنا ونههّم به، ونحاسبها عليه»^(١).

اللهم انفعنا بأحسن ما سلكوا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك.

* * *



(١) فيض القدير (٦٧/٥).



مجالات محاسبة النفس

ومجالات محاسبة النفس متعددة منها:

١ - المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة:

وقد ورد الأمر بذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها قول الله **وَعَلَّكُمَا**: ﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ويشمل ظاهر الإثم وباطنه: كلُّ معصية صغيرة أو كبيرة، ظاهرة أو خفية، كما تشمل معاصي القلب من حسد وحقد وسوء ظن واحتقار للمسلم ونحو ذلك، ولا تتحقق للمرء التوبة من هذه المعاصي إلا بالندم على فعلها، ومحاسبة نفسه ومعاتبتها، والإقلاع عنها، والعزم على ألا يعود إليها. وطريقة محاسبة المسلم نفسه على المعاصي: أن يُذكرها بأخطارها المهلكة وعواقبها الخطيرة في الدنيا والآخرة، فهي أشدَّ خطرًا من السموم، فكيف يميل إليها ويرغب فيها؟

ثم ليعلم أنَّ هذه الجوارح والأعضاء أمانة لديه سيُسأل عنها يوم القيامة، فإن لم يحفظها أهلكته، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وليتذكّر العبد وهو يحاسب نفسه: كيف يحاسب الشريك شريكه، إذا كان لا يأمن له ويخشى من خيانتة! وإذا كان حريصًا على ماله وحفظه ونمائه وعدم ضياع شيء، ولو قليلاً منه.

٢ - المحاسبة على النية والقصد:

لا يتقبل الله سبحانه من العمل إلا ما كان خالصًا له، فالإخلاص أساس قبول الأعمال. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، فيجب محاسبة النفس على النية والقصد الذي دفعها إلى ذلك العمل، وهذه المحاسبة لا بدّ منها ليسلم المسلم من الرياء المحبط للأعمال، والرياء قد يسبق العمل، وهو الأكثر، وقد يصاحبه، وقد يأتي نتيجةً له.

فقد يصلي العبد ركعتين بخشوع وتضرّع، فإذا فرغ منهما لاحظ نظر الناس إليه وإعجابهم بصلاته، فأصيب بالغرور والعجب، وأرخى لنفسه العنان لتسترسل في آفة الغرور والرضا عن النفس دون أن يضبطها بالمحاسبة، ولذلك كانت المحاسبة في هذا المجال شاملة لثلاثة أنواع: قبل العمل، وفي أثناءه، وبعده.

المحاسبة على النية والقصد قبل العمل:

وقد وصف الإمام ابن القيم رحمه الله النوع الأول، وهو المحاسبة على النية والقصد قبل العمل، فقال: «هو أن يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتّى يتبين له رجحانه على تركه»^(١).

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/٨١).

ثم أورد قول الحسن البصري رحمته الله: رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر^(١).

المحاسبة في أثناء العمل وبعده:

وأما المحاسبة في أثناء العمل وبعده، فهي حراسة العمل من آفة الرياء المهلكة التي تنشأ من أنانية النفس وحب المباهاة، وسبب ذلك: الغفلة عن مراقبة الله سبحانه، وعدم الصبر على طاعته.

ولهذا كان السلف رحمهم الله يحاسبون أنفسهم بشدة على أقوالهم وأفعالهم مخافة الرياء والمباهاة. ومن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رحمته الله: إنه ليمنعني من كثير الكلام مخافة المباهاة^(٢).

فالمؤمنون يبحثون عن البواعث: أريدون بها وجه الله أم وجوه العباد؟ أريدون الدنيا أم يريدون الآخرة؟

يقول الحسن رحمته الله: المؤمن يقف مع نفسه دائماً يقول لها: ماذا أردتُ بشرتني؟ ماذا أردتُ بمشيتي هذه؟ ماذا أردتُ بزيارتي^(٣)؟

وهكذا ينبغي على العبد أن يطارد منافذ الرياء المتسللة إلى القلب، وأن يحاسب نفسه على النية الباعثة لكل عمل والمصاحبة لها، حتى تكون خالصة لله وحده.

وليضع نصب عينيه قول الحق سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢٠٠/١)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في المواعظ (١١٨٦٣).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٤).

نَزِدْ لَهُ، فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿[الشورى: ٢٠].

٣ - المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات:

يقول الإمام ابن القيم: «إنَّ الغافل عن الاستعداد للقاء ربه، والتزوُّد لمعاده، بمنزلة النائم، بل أسوأ حالاً منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك، ويقعده عن الاستدراك سِنَّة القلب؛ وهي غفلته التي رَقَدَ فيها، فطال رَقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات، فاشتدَّ إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقادته مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين، فمتى انكشف عن قلبه سِنَّة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همّة عليّة أثارها مَعُول الفكر في المحل القابل، فضرب بمَعُول فكره، وكَبَّر تكبيرة أضاعت له منها قصور الجنّة، فقال:

أَلَا يَا نَفْسُ وَيَحَاكَ سَاعِدِيْنِي بِسَعْيِيْ مِنْكَ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي
لَعَلَّكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِي بِطِيبِ الْعَيْشِ فِي تِلْكَ الْعَالِي

وقال: ﴿بَحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فاستقبل بقية عمره مستدرِّكاً بها كل ما فات، محيياً بها ما أَمَات، مستقبلاً بها ما تقدم بها من العثرات.

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى، يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدّم له من الجنايات والإساءات، وهتك

الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نِعَم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حقَّ المنعم عليه في نعمه وأوامره، لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، انكسرت نفسه وخشعت جوارحه.

ثم تبرق له بارقة أخرى، يرى في ضوئها عِزَّة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيِّعه فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشج بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته، من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره. وهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة^(١).

٤ - المحاسبة على النعم:

نِعَم الله على عباده لا تُعدُّ ولا تُحصى، وأهمها: نعمة الإيمان والأمن، والإسلام والسلام، والصحة والفراغ والأولاد والذرية، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ولذلك ينبغي على المسلم أن يستشعر نِعَم الله، ويحاسب نفسه على القيام بشكرها، ويعاتب تلك النفس إذا تهاونت في شيء من النعم أو استقلت بشأنه.

(١) الروح لابن القيم ص ٢٢٣ - ٢٢٥.

قال الإمام ابن القيم حول النعيم المسؤول عنه في آخر سورة التكاثر: «والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حلّه، وصُرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حلّه، وصُرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، حتّى على سماعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب»^(١). وقال أيضاً مبيناً مجالات محاسبة النفس على النعم وعبودية العبد تجاهها:

«وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً، ثمّ العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببته ومقيمته، فالنعمه منه وحده بكل وجه واعتبار، ثمّ الشاء بها عليه ومحبتة عليها، وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم: أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها»^(٢).

كما بيّن رحمته الله أن على العبد: «أن يُقايِس بين نعمة الله عليه وبين ما يقع فيه من المعاصي، فحينئذ يظهر التفاوت، ويعلم أنه ليس له إلا عفو الله ورحمته، فيُعَاتِب نفسه ويتوب إلى ربه»^(٣).

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/٨٤).

(٢) الفوائد لابن القيم ص ١١٣، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٣) مدارج السالكين (١/١٨٨) بتصرف.

٥ - محاسبة النفس عند الخواطر:

لا بدّ للسائر في هذا الطريق أن يكون يقظاً بصيراً متنبّها لمخاطر الطريق، وأن يعرف مراحلها التي عليه أن يقطعها، مرحلة بعد أخرى، وأن يكون واعياً لنفسه التي بين جنبيه، معنياً بما يساورها من هواجس وخواطر، قد تتحوّل إلى نزعات، ونيّات وعزائم.

وما دامت هذه الهواجس والخطرات لا تعدو «حديث النفس»، فإن المرء لا يؤاخذ بها، ولا يحاسب عليها؛ لأنّه غير مالك لها، ولا متمكّن منها. فمن فضل الله تعالى ورحمته أنه أعفاه من أن يحاسب عليها، فضلاً عن أن يُعاقب بها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ»^(١).

قال الإمام الحارث الموحّابي: وحاسب نفسك في كلّ خُطْرة^(٢).

يقول الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في تعليقاته النفيسة على كلام الموحّابي في تعليقاته النفيسة على «رسالة المسترشدين»:

«وللشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله كلام في الخطرة والفكرة وما إليهما في غاية الدقّة والنّفاسة، ما أصدقه! وما أحقّه! كأنّه خرج من مشكاة النبوة، فعليك بتدبره وفهمه وحفظه لنفاسته، وأنا ناقله لك على طوله، راجياً منك أن تتدبره، ففيه الخير لك في دينك ودنياك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رسالة المسترشدين ص ٤٦.

معالجة الخواطر السيئة:

قال ابن القيم رحمه الله: دافع الخطرة، فإن لم تفعل، صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل، صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل، صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة! فيصعب عليك الانتقال عنها!!

واعلم أن مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل. وكثرة تكراره تعطي العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها.

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن تولي العبد وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء!

واعلم أن الخاطرات والوساوس تؤذي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر، فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة. فردّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أن الإنسان لم يعط الإنسان إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تُعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكرهته له ونفرته منه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فسألوه: إنا نجد في أنفسنا



ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان»^(١).

وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ النَّفْسَ شَبِيهَةً بِالرَّحَى الدَّائِرَةِ الَّتِي لَا تَسْكُنُ، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ شَيْءٍ تَطْحَنُهُ. فَإِنْ وُضِعَ فِيهَا حَبٌّ طَحْنَتَهُ، وَإِنْ وُضِعَ فِيهَا تُرَابٌ أَوْ حَصَى طَحْنَتَهُ.

فَالْأَفْكَارُ وَالْخَوَاطِرُ الَّتِي تَجُولُ فِي النَّفْسِ هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْحَبِّ الَّذِي يُوضَعُ فِي الرَّحَى، وَلَا تَبْقَى تِلْكَ الرَّحَى مَعْطَلَةً قَطُّ، بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِيهَا، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَطْحَنُ رِجَاهُ حَبًّا يُخْرِجُ دَقِيقًا يَنْفَعُ بِهِ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ، وَأَكْثَرُهُمْ يَطْحَنُ رَمَلًا وَحَصَى وَتِبْنًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الْعَجْنِ وَالْخَبْزِ تَبَيَّنَ لَهُ حَقِيقَةُ طَحْنِهِ»^(٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٣٢)، وأحمد (٩٦٩٤).

(٢) الفوائد لابن القيم ص ١٧٤.



فقه الأولويات في المحاسبة

من المهم المطلوب في محاسبة المرء نفسه: ضرورة وضع الأشياء في مواضعها، وفي مراتبها الشرعية، فلا يصغر الكبير، ولا يكبر الصغير، ولا يعظم الأمر الهين، ولا يهون الأمر الخطير، ولا يؤخر ما حقه التقديم، ولا يقدم ما حقه التأخير، وهذا ما سمّيناه «فقه الأولويات».

وأصل هذا قول الله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(١). فلا يجوز - إذن - جعل الأعلى أدنى، ولا جعل الأدنى أعلى، بل تبقى كل شعبة في منزلتها ورُتبتها.

وقد رأينا هذا النوع من الفقه مفقوداً عند الناس في المأمورات والمنهيات، حتّى عند أهل الدين، ورجال العبادة والدعوة، وقد نبّه إلى

(١) رواه الجماعة: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (٩٣٦١)، وأبو داود في السنة (٤٦٧٦)، والترمذي في الإيمان (٢٠٠٩)، والنسائي في الإيمان والشرائع (٥٠٠٤)، وابن ماجه في المقدمة (٥٧)، عن أبي هريرة.

ذلك الإمام الغزالي من قديم في كتاب «ذم الغرور» من رُبع المهلكات من كتابه «الإحياء»^(١).

الاشتغال بأعمال الجوارح على حساب أعمال القلوب:

ومن ذلك ما ذكره أبو حامد رحمه الله من غرور العباد، فقال: «وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح، حتى ربما يصلي في اليوم واليلة مثلاً ألف ركعة، ويختم القرآن وهو في جميع ذلك، لا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته، وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مُهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له، لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته، وهيئات. وذرة من ذي تقوى، وخلق واحد من أخلاق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح.

ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشونته، وتلوث باطنه من الرياء وحبّ الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه، فرح المغرور بذلك، وصدق به، وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه»^(٢).

الاهتمام بالنوافل على حساب الفرائض:

وفرقه أخرى حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض.

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٧٨) وما بعدها.

(٢) المصدر السابق (٣/٤٠٣).

قال بعض السلف: «من شغله الفرض عن النَّفل فهو معذور، ومن شغله النَّفل عن الفرض فهو مغرور»^(١).

وقال ابن عطاء الله في حكمه: من علامات اتِّباع الهوى: المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات^(٢).

وقال بعض علماء السلوك: من كانت النوافل أهم عنده من الفرائض فهو مخدوع.

وقد قال محمد ابن أبي الورد: «هلاك الخلق في حرفين: اشتغال بنافلته وتضييع فريضته، وعمل الجوارح بلا مؤاخاة القلب، وإنما حُرِّموا الوصول، لتضييعهم الأصول»^(٣).

وانتقد ذلك الإمام الغزالي بشدة، فقال: «تري أحدهم يفرح بصلاة الضُّحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتدُّ حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «ما تقَرَّبَ المتقَرَّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»^(٤).

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما: يفوت. والآخر: لا يفوت. أو فضلان: أحدهما: يضيق وقته. والآخر: يتسع وقته. فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورًا.

(١) ذكره الحافظ في فتح الباري (٣٤٣/١١)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) حكم ابن عطاء الله ص ٣٤٨.

(٣) حكم ابن عطاء الله وشرح الشيخ زروق عليها ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٤) رواه البخاري في الرقائق (٦٠٢١) بلفظ: «وما تقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممَّا افترضت عليه»، عن أبي هريرة.

ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى، فإنَّ المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ ف قيل له: مَنْ أْبْرُ يا رسولَ الله؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أَبَاكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ»^(١).

فينبغي أن يبدأ في الصلّة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع.

وكذلك مَنْ لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدّم حقّهما على الحج، وهذا من تقديم فرضٍ أهم من فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلّة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.

وهذا غرور في غاية الغموض؛ لأنَّ المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. ومن جملته: الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح، والمتعلقة بالقلب؛ لأنَّ مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه. فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به، إلا أن حبَّ الرياسة والجاه، ولذة المباهاة، وقهر الأقران والتقدم عليهم يُعمي عليه، حتى يغتر به مع نفسه، ويظن أنه مشغول بهم دينه»^(١).

وقال أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن ربيع التُّستري في «تفسيره»: «وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا، وتأهَّبوا للعرض الأكبر قبل أن تُعرضوا»^(٢). فسئل سهل عن المحاسبة والموازنة؟ فقال: المحاسبة على وجهين: محاسبة فيما بين العبد وربه، وهو سر. ومحاسبة فيما بينه وبين الخلق وهي علانية. والموازنة: إذا استقبلك فرضان، أو سنتان، أو نافلتان، نظرت أيهما أقرب إلى الله وأوزن عنده، فابتدأت به»^(٣).

معرفة رُتب الطاعات:

وقال الإمام العزُّ بن عبد السلام: «وأما المحاسبة في مستقبل الأعمال الصالحات، فإنها مبنية على معرفة رتب الطاعات، وما يجب تقديمه منها

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤٠٣/٣، ٤٠٤).

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٣) تفسير التستري ص ٩٤، تحقيق محمد باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت،

ط ١، ١٤٢٣هـ.

أو توسطه أو تأخيرها، فإن الشيطان إذا يئس من التائب أن يوافقه على المعاصي الظاهرة، دسّ عليه معاصي خفية لا يشعر بها، فيأمره بتقديم طاعة، أو جب الله تعالى تأخيرها أو توسطها، أو يأمره بتقديم طاعة، أو جب الله تعالى تقديمها أو توسطها، كل ذلك ليخسر العبد من حيث لا يعلم.

وقد توافق النفس الشيطان على ذلك، فرارًا من أثقل العبادتين وأشقهما إلى أخفهما وأرفقهما.

وطريقه في النجاة من ذلك: أنه إذا خطرت له حسنة، فلا يُقدم عليها حتى ينظر: أهى ممّا قدّمه الله أو ممّا أخره أو ممّا وسّطه.

فإن كانت ممّا قدّمه الله في ذلك الوقت على سائر الطاعات، فلا يقدم عليها حتى يخلصها الله وَعَجَلْ، ولا يرد بها سواه.

وإرادة الله تعالى بالأعمال الصالحات أقسام:

أحدها: أن يعمل له طمعًا في ثوابه.

والثاني: أن يعمل له خوفًا من عقابه.

والثالث: أن يعمل له حياء منه أن يخالفه.

والرابع: أن يعمل له حبًا وودادة.

والخامس: أن يعمل له إجلالًا وتعظيمًا عن المخالفة.

والسادس: أن يضيف بعض هذه الأعراض إلى بعض.

وكل ذلك حسن، وإن كان بعضه أفضل من بعض»^(١).

(١) مقاصد الرعاية لابن عبد السلام ص ٢٠، ٢١.



من ثمرات المحاسبة

وللمحاسبة ثمرات يتذوقها أهل المحاسبة، الذين يداومون عليها، وهي قريبة من ثمرات المراقبة، وأهمها:

١ - حياة الضمائر:

إنَّ المحاسبة منزل عظيم من منازل السَّائرين إلى الله في طريق الآخرة، ولا بدَّ لهؤلاء المسافرين من اصطحاب هذا الشعور أو هذا الحال أو هذا المقام، ليحس بحياة روحه، وينمُو وجدانه، ويبقظة ضميره، ولا يكون كالذين تطلع عليهم الشمس وتغرب، وينامون ويستيقظون، وهم يعيشون حياتهم مع سائر الغافلين.

الذين يتميّزون بمحاسبة النَّفس على الإيجابيات والسلبيات، والكبائر والصغائر، والماديات والمعنويات: هم الَّذِينَ يحيون حياة حقيقية، هم الَّذِينَ يشعرون بأن بين صدورهم قلوبًا سليمة، حية لا تموت، متحركة لا تسكن، خضراء لا تذبل، إذا عملت طاعة فرحت، وإذا انصرفت عنها حزنت، وإذا وقعت في معصية ندمت وتزلزلت، وإذا تابت منها فرحت وسُرَّت، هي في حياة وحركة وترقب وتربص، ليست في نوم بائس، ولا بؤس عابس، ولا في عيش بائس، ولا في يأس قاتل. تلك هي الأنفس الحية، ذات المشاعر الزاكية، والأحاسيس

المبصرة، التي تقوي العزيمة على الخير، والكرهية للشر، وتمضي مع القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢ - إتقان الأعمال:

ومن ثمرات هذه المحاسبة: أنَّهم حريصون دائماً على إتقان أعمالهم، فليس المهم عندهم العدد ولا الطول ولا الكم، إنما المهم هو الكيف، ولذلك يتعاملون مع الله بحسن العمل، لا بضخامة العمل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والإحسان هنا هو: الإتقان. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»^(١). «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٢). ولذلك يطلب العمل المتقن الذي استوفى حقه من الإحسان في كل ناحية.

٣ - تلافي التقصير:

والذي يطلب إحسان العمل وإتقانه حتَّى يصل إلى القمة - كما هو شأن السابقين المقربين الذين يطلبون الفردوس الأعلى من الجنان، طلباً للقرب من الله، فهم دائماً يتلافون التقصير، ويفكرون في الدرجات العلا - يبتعد عن التقصير، الذي يبتلى به المفرطون الذين يريدون أدنى درجة، وحسبهم أن يصلوا إلى أيِّ محطة، لا ينظرون إلى الأعالي أبداً، هؤلاء لا مكان لهم في أهل المحاسبة، الذين شَمروا عن سواعدهم، وشدوا عزائمهم في السير في الطريق، ببذل الجهد، وإنفاذ الإرادة،

(١) سبق تخريجه ص ١٢١.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٧.

وإخلاص القوة، مستعينين بالله تعالى، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٣].

٤ - اجتناب الحرام:

ومن ثمرات المحاسبة: البُعد عن الحرام، أمّا الكبائر والموبقات، فمنها الفرع الأكبر، وباجتنابها واجتناب أسبابها والبعد عنها توصف الفئة الأولى في المجتمع من أهل الحق والخير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وفي وصف أهل الإحسان من مستحقي الجنة: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. قد يقعون في الصغيرة التي ينساها الناس، ولكن لا يستمرئونها، ولا يستحبون السير فيها، ولا الاستمرار عليها، فإنها إذا كثرت تفاقمت، ولذا قالوا: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. بل هم يحاولون الابتعاد عمّا دون الصغيرة، كما في الحديث: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمورٌ مشتهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(١).

بل يتوقّى المكروهات ما استطاع، وكلما ازدادت محاسبته، ازدادت شفافيته، وازداد صفاؤه، فابتعد عمّا لا بأس به، خوفاً ممّا به بأس، كما في الحديث: «لا يبلغ عبدٌ درجة المتّقين، حتّى يدع ما لا بأس به حذراً ممّا به بأس»^(٢). ومن يقرأ سير الصالحين والمتّقين يجد لهم من ذلك صحائف جمّة، جعلنا الله منهم، وألحقنا بهم.

(١) سبق تخريجه ص ٨٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٠.

وهكذا كان رسول الله ﷺ، كان يجد التمرة في بيته، فيريد أن يأكلها وهو جائع، فيخشى أن تكون قد سقطت من تمر الصدقة، ولا حق له فيه، فإن هذا مال عام، وقد حُرِّمَت عليه الصدقة، فيتركها! وقد أرق رسول الله ﷺ، ليلة فبحث عنه إحدى نساءه، فوجدته قائماً، فقالت له: يا رسول الله، أرقَت الليلة! فقال: «إني كنت قد وجدتُ ثمرةً تحت جنبِي، فأكلتها، ثمَّ خشيتُ أن تكون من تمر الصدقة، فهذا الذي أرقني»^(١).

ثمرة خشي أن تكون من تمر الصدقة، الذي يجمع في بيته، فأرقت عليه ليلته، وأطارت النوم من أجفانه، ونغصت عليه حياته، ثمرة واحدة خشي أن تكون ممّا لا يحلُّ له، اشتبه.. مجرد اشتباه.

وهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه كان له غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجهِ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنني خدعته، فلقيني، فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه^(٢).

وقال العلامة القسطلاني في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري»: «بالله عليك ما لم تعلم حلّه يقيئاً اتركه، كتركه ﷺ ثمرة خشية أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع ترك الحلال مخافة الحرام، كترك إبراهيم بن أدهم أجرته لشكه في وفاء عمله، وطوى عن جوعٍ شديد.

(١) رواه أحمد (٦٧٢٠)، وقال مخرجه: إسناده حسن عن عبد الله بن عمرو. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٥/٣): رواه أحمد ورجاله موثقون.

(٢) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤٢)، عن عائشة.

وقالت أختُ بشر الحافي لأحمد بن حنبل: إنا نغزلُ على سطوحنا، فيَمُرُّ بنا مشاعلُ الظاهرية (الحرس) ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال: من أنت عافاك الله؟ قالت: أخت بشر الحافي، فبكى وقال: من بيتكم يَخْرُجُ الورعُ الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

وأقامت السيدة بديعة الإيجية من أهل عصرنا هذا (القرن العاشر الهجري) بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من بَجيلة، لَمَّا قيل: إنهم لا يُورَثون البنات. وامتنع أبوها نور الدين من تناول ثمر المدينة لَمَّا ذكر أنهم لا يُزكون^(١). ومن ترخَّص ندم، والأورعُ أسرع على الصراط يوم القيامة.

وحكى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» في ترجمة الحافظ ابن عُقْدة: أنَّ والده محمد بن سعيد الملقب بعُقْدة، وكان ورعًا ناسكًا، سقطت منه دنائيرُ على باب دار أبي درّ الخزّاز، فجاء بنخّال ليطلبها. قال عُقْدة: فوجدتها، ثمّ فكرتُ فقلتُ: ليس في الدنيا غيرُ دنائيرك؟! فقلتُ للنخّال: هي في ذمتك، ومضيتُ وتركته^(٢).

وحصل مثلُ هذا للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره، وصاحب «المُهذب في المذهب»، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق، وفي غاية من الورع والصلاح، دخل المسجد يوما ليأكل

(١) هدي الساري (١٤٣/١، ١٤٤) في شرحه لحديث عائشة السابق، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط ٧، ١٣٢٣هـ.

(٢) تاريخ بغداد (١٤٧/٦)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

فيه شيئاً، فنسي ديناراً! فذكره في الطريق فرجع، فلما وجدته تركه ولم يمسه، وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري. ذكره النووي في «تهذيب الأسماء»^(١).

وانظر باب الورع في «الرسالة القشيرية»^(٢) تقف على العجائب المشرقة المدهشة. وللإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: «كتاب الورع»، وهو كتاب نفيس فيه الآيات البينات من ورع السلف، يُخَيِّلُ لقارئه أن الإمام أحمد دخل الجنة، ثم جعل يتحدث عن أخلاق أهلها. فعليك بمطالعة فإنك منتفع به ولا ريب.

٥ - نشدان الأحسن:

ومن ثمرات المحاسبة: أن ينشد الإنسان لنفسه «الأحسن»، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فالله تعالى خلق الناس، ليبلوهم وليبتليهم أيهم أحسن عملاً، فكأن الله يريد منهم هذا الأحسن، ليست المنافسة بين السيئ والحسن، ولكن المنافسة بين الحسن والأحسن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وكلها تنبيه وتشريع للسباق بين الحسن والأحسن، ليعلم الإنسان إذ آمن بالله، واستقام على أمره، وحاسب نفسه، وطالبها بمواثيقها مع ربها، ومع خلقه: أن ينشد الكمال البشري

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٣/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الرسالة القشيرية (٢٣٣/١) وما بعدها.



ما استطاع، فهو لا يطلب مستحيلاً ولا أمراً صعباً، كيف لا، وهو يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر؟

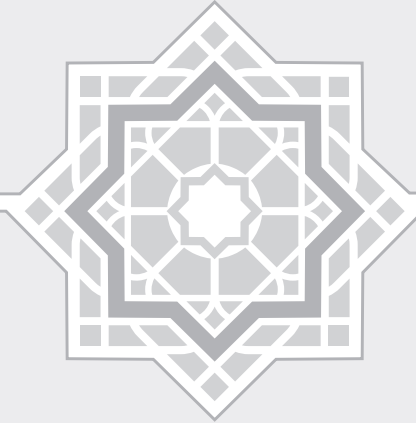
فامضوا أيها العباد في محاسبتكم، وانتظروا فضل الله عليكم، وهو تعالى أهل أن يزيدكم بصراً بالحقائق، وقدرة على العمل الصالح، وطلباً للزيادة: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

* * *





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفصل الثالث

الجدول الزمني المتكامل
لأعمال المسلم في حياته



- (١) الأعمال العُمرية للمسلم.
- (٢) الأعمال السنوية للمسلم.
- (٣) الأعمال الشهرية للمسلم.
- (٤) الأعمال الأسبوعية للمسلم.
- (٥) الأعمال اليومية للمسلم.
- (٦) جدول يومي للمحاسبة.







الأعمال العُمرية للمسلم

نقصد بالأعمال العُمرية: ما لا يتكرّر في حياة المسلم: لا كل يوم، ولا كل أسبوع، ولا كل شهر، ولا كل عام، ولا في كل عدة أعوام منتظمة مرة، إنّما يقع مرّة في العمر.

والعمر المحسوب بالنسبة للمسلم، هو الذي تبدأ فيه مسؤوليته، وفيه يخاطب بالأحكام التكليفية، وذلك من سنّ البلوغ، أما قبل ذلك، فقلم التكليف مرفوع عنه، كما في الحديث: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَبْرَأَ»^(١).

ولكن الواجب على وليّ الصبيّ والصبيّة أن يدرّبهما على فعل الطاعات، وأعمال الخير، واكتساب الفضائل، حتّى تصبح لهما عادة وخُلُقًا راسخًا في النفس. فإنّ من شبّ على شيء، شاب عليه. وقد قال الشاعر:

وينشأ ناشئُ الفِئانِ منّا على ما كان عودُهُ أبوه^(٢)

(١) رواه أحمد (٢٤٧٠٣)، وقال مخرجه: إسناده جيد. وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، عن عائشة.

(٢) من شعر المعري، كما في الزروميات (٤١٣/٢)، تحقيق أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

وهذا ما هدى إليه الحديث في شأن الصلاة حيث قال: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر»^(١).

والأعمال التي تطلب من المسلم مرة واحدة في العمر قليلة محدودة، إذ الأصل في الأعمال الصالحة التكرار والمثابرة. ومن هذه الأعمال:

١ - حج الفريضة:

أول ما يتبادر إلى الذهن من أعمال العمر: حج الفريضة، فمن المعلوم: أنَّ الصلاة فريضة يومية، وأنَّ الصيام فريضة سنوية، وكذلك الزكاة فريضة سنوية أو موسمية. أما الحج، فهو فريضة العمر، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وذلك من رحمة الله بعباده، فإن في الحج كلفة مالية، ومشقة بدنية، ومفارقة للأهل والوطن، لذا لم يوجبه الله إلا مرة واحدة في العمر، إلا أن يتطوع.

وفي الحديث: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فقال رجل: أكلُّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتَّى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

(١) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (٣٠١)، قال الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩): إسناده حسن صحيح. عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٣٧)، وأحمد (١٠٦٠٧)، عن أبي هريرة.

هل العمرة واجبة كالحج؟

وهل العمرة واجبة كالحج أو لا؟ ولا نخوض في هذا الخلاف، لكننا ننصح المسلم أن يجعل مع حجّهِ عمرة، كأن ينوي الحج متمتّعاً، وهو الذي أوصى به الرسول أصحابه، أو يحرم قارناً بين الحج والعمرة، وحتى لو نوى الحج مفرداً يمكنه أن يأتي بعمرة عقب الحج. وبذلك يبرئ ذمّته من مسؤولية العمرة. وخصوصاً أن الله تعالى جمع بينها وبين الحج، في قوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقرن بين الحج والاعتمار.

وقد جاءت عدّة أحاديث في فضل العمرة، مثل قوله: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(١).
«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة»^(٢).

٢ - الجهاد أو نيّته:

وممّا يجب على المسلم في عمره: أن يجاهد الكفار والمحاربين للإسلام أو على الأقل يستعد لجهادهم إذا استنفره ولي الأمر، فلا يتلأأ ولا يتردد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، أو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أبواب العمرة (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٣٦٦٩)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والترمذي في الحج (٨١٠)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي (٢٦٣١)، وابن خزيمة (٢٥١٢)، كلاهما في المناسك، عن ابن مسعود.

على الأقل: يُحدّث نفسه بالجهاد. كما صحّ بذلك الحديث: «من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدّث به نفسه، مات على شُعبة من نفاق»^(١).

ومعنى هذا أن يعيش المسلم بروح المجاهد المستعدّ لبذل النفس والمال في سبيل الله، فإذا لم يجاهد بالفعل استصحب نيّة الجهاد دائماً.

إنّ هذه النية قد تدخله في موكب الشهداء، وإن لم يقتل في سبيل الله، ففي الحديث الصحيح: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنْزِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(٢). فإذا لم يصل الأمر إلى مستوى «النية والعزم»، فعلى الأقل «حديث النفس». أي: أن الجهاد في فكره وباله، وهو على ذكر منه، لا يغيب عن خواطره، وإن غاب عن تصميماته وعزائمه.

ومن فضل الله تعالى ورحمته: أَنَّهُ ﷻ جعل بعض البدائل لمن يشقّ عليه الجهاد، أو لا يتيسر له، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(٣). فتجهيز الغازي بما يلزمه في الجهاد من السلاح والذخيرة والملابس والنفقات، وخصوصاً في البلاد التي يعتمد على التطوع والمتطوعين، يقوم مقام الجهاد.

ومثل ذلك من يخلف الغازي في أهله بخير، وينفق عليهم بكل ما يلزمهم وأولادهم من طعام وشراب وكسوة وتعليم ودواء وغير ذلك ممّا تتطلبه الحياة المعتدلة.

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمامة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٢)، عن سهل بن حنيف.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣)، ومسلم في الإمامة (١٨٩٥)، عن زيد بن خالد الجهني.

٣ - الزواج من امرأة صالحة:

ومن الأعمال التي ينبغي للمسلم أن يقوم بها في حياته: الزواج. لما فيه من سكون النفس، وإحصان الفرج، وغض البصر، وتدبير البيت، وتحصيل الولد، وتوسيع دائرة العشيرة بالمصاهرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]

ولقد شرع الإسلام الزواج، ولم يشرع الإسلام التبتل والرهبانية؛ لأنه خلاف الفطرة الإنسانية، ولهذا أنكر النبي ﷺ على من أراد من أصحابه الانقطاع من الزواج، والتفرغ لعبادة الله، وأعلن أن منهجه ﷺ يقوم على التوازن بين حاجات الجسد وأشواق الروح، وبين مثاليات الدين وواقع الدنيا، وبين حق الله تعالى وحظوظ النفس، قائلا: «أما والله إنني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

ويتأكد طلب الزواج إذا كان المسلم تائقاً إليه، وقادراً عليه، فإذا خاف على نفسه الوقوع في الحرام، وجب عليه أن يبادر إلى الزواج، تحصيناً لنفسه من طغيان الغريزة، ومن مكاييد الشيطان، ومن خطوات الشيطان.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.

وينبغي للمسلم ألا يتردد في مثل هذه الحالة، وأن يثق بأن الله معينه ورازقه من فضله.

وعلى المجتمع المسلم أن يمد له يد العون، وكذلك الدولة المسلمة، كما كان يفعل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(١).

ولقد أجمع جمهور الفقهاء على أن الزواج تعرض له الأحكام الخمسة، فمنه ما هو فرض، وما هو مستحب، وما هو مباح، وما هو مكروه، وما هو حرام.

واعتبر ابن حزم أن الأصل في الزواج الفرضية، قال في «المحلى»: «وفرض على كل قادر على الوطاء إن وجد من أين يتزوج أو يتسرى أن يفعل أحدهما ولا بد، فإن عجز عن ذلك فليكثر من الصوم.

برهان ذلك: ما روينا من طريق البخاري، عن عبد الله بن مسعود يقول: لقد قال لنا النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٢).

(١) رواه أحمد (٧٤١٦)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٥)، وحسنه، والنسائي في الجهاد (٣١٢٠)، وابن ماجه في العتق (٢٥١٨)، والحاكم في النكاح (١٦٠/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في غاية المرام (٢١٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

ومن طريق مسلم، عن سعد بن أبي وقاص يقول: أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل، فنهاه رسول الله ﷺ^(١). وهو قول جماعة من السلف.

وعن سعيد بن هشام بن عامر، أنه سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن التبتل؟ فقالت: لا تفعل، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]؟ فلا تتبتل.

وعن طاوس أنه قال لرجل: لتتزوجن أو لأقولن لك ما قال عمر لأبي الزوائد: ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور^(٢)»^(٣).

وعلى ولي المسلمة أن يحرص على زواجها، ويسهل أمره ولا يعسر ما يسر الله، برد الخطاب، أو تعجيزهم بالطلبات التي لا يقدرון عليها، وهم في مقتبل حياتهم، بل ينبغي الترحيب بهم، والتخفيف عنهم، وإعفاؤهم مما يشق عليهم، مما يؤخر زواج ابنته أو موليته، ويضيع عليها الفرصة المواتية، حتى يفوتها القطار، وتحرم حقها الفطري في الزوجية والأمومة وحياة الأسرة.

يقول النبي ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٤).

(١) رواه مسلم في النكاح (١٤٠٢)، وأحمد (١٥١٤).

(٢) رواه عبد الرزاق (١٠٣٨٤)، وابن أبي شيبة (١٦١٥٨)، كلاهما النكاح.

(٣) المحلى (٤، ٣/٩)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٤) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولاً ومرسلاً - وإنما يعني بقوله: مرسلاً، انقطاع ما بين ابن عجلان

وأبي هريرة - وقد رجح البخاري المنقطع على المتصل، وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في

النكاح، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

٤ - كتابة الوصية:

كما أنَّ ممَّا يطلب من المسلم في عمره: أن يبادر بكتابة وصيَّته، إن كان لديه ما يوصي فيه؛ لأنَّ أحدًا لا يدري متى يجيء أجله، والموت يأتي بغتة، وليس من الضروري أن يكون هناك مقدّمات للموت، مثل المرض، والمعاناة، فكثير من النَّاس يموتون بالسكّنة القلبيّة، أو بالذبحة الصّدريّة، أو في حادثة من حوادث المرور وما أكثرها في عصرنا!

فلهذا كان الحزم أن يكتب وصيته، إذا كان يريد أن يترك صدقة جارية، أو وقفًا خيريًا لجهة من جهات البر، كإنشاء معهد إسلامي، أو كلية إسلامية، أو طبع كتب إسلامية، أو إنشاء مركز بحوث لخدمة القضايا الإسلامية، أو تفريغ دعاة معاصرين لنشر الدعوة الإسلامية، أو دار لرعاية الأيتام، أو مؤسّسة لخدمة فقراء المسلمين، أو غير ذلك من وجوه الخير.

قال ﷺ: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيَّته مكتوبةٌ عنده»^(١).

وهذا الحديث بالإضافة إلى الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، يفيد وجوب الوصية لمن ترك خيرًا، أي مالا كثيرًا: أن يوصي لوالديه والأقربين ممّن لا يرثون من تركته، كما إذا أسلم وله أبوان غير مسلمين، فهو يوصي لهما ما يعوّضهما عن حرمانهما من التّركة، ومثل أحفاده الذين مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياته، فلم يرثوا من آبائهم، واجتمع على هؤلاء الأحفاد اليتيم والحرمان.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، كلاهما في الوصية، عن ابن عمر.

وفي الحديث الحضُّ على الوصية، وهي تشمل الصحيح والمريض، لكن السلف عُنُوا خصوصًا بالمريض الذي يُخشى أن يكون مرضه مرض الموت، وليس أي مرض طارئ.

وهذا ما لم يكن رتب نفسه في صحته بعمل صدقة جارية أو وقف خيري، يستمر أثره من بعده.

وقال الحافظ ابن حجر: «في الحديث النبوي دعوة إلى التأهب للموت، والاحتراز قبيل الفوت؛ لأنَّ الإنسان لا يدري متى يفاجئه الموت، لأنَّ ما من سنٍّ يُعرض إلا وقد مات فيه جمع جمٍّ. وكل واحد بعينه جائز أن يموت في الحال. فينبغي أن يكون متأهبًا لذلك، فيكتب وصيته، ويجمع فيها ما يحصل له به من الأجر، ويحط عنه الوزر، من حقوق الله، وحقوق عباده. والله المستعان»^(١) اهـ.

والوصية لا تجوز لو ارث، كما جاء في الحديث: «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقه، فلا وصية لو ارث»^(٢)؛ لأنَّ الله تعالى أعطى لكلِّ وارث حقه في تركة الميت وميراثه، وصية من الله، وفريضة من الله، فلا يجمع بين الميراث والوصية.

كما لا يوصي بأكثر من الثلث، ولو فعل لا ينفذ بعد موته إلا في حدود الثلث، لما يهدف إليه الإسلام من إقامة التوازن بين حقِّ الورثة وجهات الخير، ولهذا قال الرسول لسعد بن أبي وقاص، وقد أراد أن

(١) فتح الباري (٣٥٩/٥، ٣٦٠).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٩٤)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وقال: حسن. وابن ماجه (٢٧١٣)، ثلاثهم في الوصايا، والبيهقي في الفرائض (٢١٢/٦)، وحسن الحافظ إسناده في التلخيص الحبير (٢٠٢/٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٨٩)، عن أبي أمامة الباهلي.

يوصي بماله كله أو بثلثيه أو بنصفه، فأبى عليه ذلك، وقال: «الثلث، والثلث كثير، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(١).

إلا إذا أجاز الورثة ما زاده الميت على الثلث، فهم أصحاب الحق. وكذلك إذا أوصى الميت لأحد الورثة زيادة على حقه المقرّر له بالميراث الشرعي، وأجازه سائر الورثة جاز.

وقفه على رأس الأربعين:

وينبغي للمسلم أن يحاسب نفسه دائماً، يقوم بذلك كل ساعة، فإن شقّ عليه ذلك، فليكن كل يوم عند النوم، فإن لم يفعل، فكل أسبوع، فإن لم يفعل فكل شهر، وإلا ففي ختام كل عام.

ولكن ينبغي للمسلم بصفة خاصّة: أن يقف وقفة طويلة متأنية على رأس الأربعين من عمره، يدقّق فيها الحساب، ويراجع الرصيد، ويعرف الخسائر والأرباح، ويتلافى ما يمكن تلافيه، ويعوض ما يستطيع تعويضه، فقد مضى زمن الصبا والشباب والطيش، وأقبل سنُّ الكهولة والحكمة والتجربة، وهو السنُّ التي بُعث الله فيها رسوله محمداً ﷺ، ومعظم الأنبياء من قبله.

وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، كلاهما في الوصايا، عن سعد بن أبي وقاص.



هذا هو شأن الإنسان المسلم إذا بلغ هذه المرحلة من العمر:

١ - أن ينظر في نِعَم الله عليه وعلى مَنْ حوله، وخصوصًا والديه، فإن النعمة عليهما تعدُّ نعمةً عليه، ويسأل الله أن يوفقه لشكر هذه النعم، فما أكثر الذين يغتربون من فيض نعم الله، وتغمرهم من رؤوسهم إلى أقدامهم، ومع هذا يقابلون النعمة بالكفران، أو يستخدمون نِعَم الله في معاصي الله، أو ينظرون دائمًا إلى من هو أغنى منهم وأكثر نعمة، أو يستحقرون ما أنعم الله به عليهم.

٢ - ويحرص المسلم في هذه المرحلة كلَّ الحرص على عمل الصالحات، ولكن المهم أن يكون هذا العمل نقيًا من كل دَخَل أو خَبَث، فقد يكون ظاهر العمل حسنًا، وباطنه قبيحًا، وقد يكون وسيلةً حسنة لمقصد سوء. وهذا كله ممَّا لا يقبله الله ولا يرضاه من عباده المؤمنين. ولهذا كان دعاء المسلم الصالح هنا: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩].

٣ - ويتوجَّه المسلم الصادق هنا إلى أمر ذي بال، إلى الجيل المقبل الذي يحمل رسالته من بعده، إلى الذريَّة، وهم يعتبرون نعمة من الله عليه، وأمانة من الله لديه، فيجب أن يشكر النعمة، ويرعى الأمانة. ولهذا كان دعاؤه بصدق: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إنَّ الأب الصالح هو الذي يحرص على صلاح ذُرِّيَّته من بعده، ولهذا كان دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَلَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠-١٣٣﴾.

هذا ما ينبغي لابن الأربعين أن يشغل به نفسه، فقد بلغ الأشد، واكمل البدر، وما بعد الكمال إلا النقصان، كما قال الشاعر:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصه توقَّع زوالاً إذا قيل: تمَّ^(١)
وقال آخر:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانٌ فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسان^(٢)!

وكان بعض السلف يقول: إذا بلغ الرجل الأربعين، ولم يغلب خيرُه شرَّه، فليجهزْ إلى النار!

ويقول آخر: إذا بلغ الرجل الأربعين ولم يتب، أمسك إبليس بلحيته وقال: وأبي، لن تفلح!

ووقفه أخرى على رأس الستين:

ووقفه أخرى ينبغي أن يقفها المسلم على رأس الستين، فكلما أوغل في العمر كانت النعمة عليه أكبر، وكانت الحجة عليه أقوى.

(١) البيت لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (٢٥٩/٤)،

تحقيق د. مفيد محمد قمحية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) من شعر: أبي البقاء الرندي، كما في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤٨٧/٤)،

تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»^(١).

وفي الحديث الآخر: «أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(٢). فهذا هو العمر المتوسط لأبناء هذه الأمة، فعند الستين يكون الزرع قد نضج، وما بعد نضج الزرع إلا الحصاد.

إنَّ معظم الحكومات تُحيل ابن الستين إلى «التقاعد». وهذا تذكرة له وتنبية وإنذار أنَّ الدنيا أولته ظهرها، فليؤجَّه وجهه إلى الآخرة، وليجعل نُصب عينيه مَرْضَاة الله.

إنَّ الله لا يحيل إنساناً إلى التقاعد، حتى يأتيه اليقين، وهو الموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۖ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ۖ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ ۖ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۖ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٧]، أي: حتى أتانا الموت.

فكلُّ مكلف مُطالب بطاعة الله وعبادته حتى يأتيه اليقين، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۖ﴾ [الحجر: ٩٩]، فعلى من فرغ من عمل الدنيا أن يتوفَّر لعمل الآخرة، ولا يضيع ما بقي من عمره سُدىً. ومثله جدير أن يقال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ﴾ [الشرح: ٧، ٨].

(١) رواه البخاري في الرقائق (٦٤١٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٥٠)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٦)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٨٠)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٤٢٧/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

وان جاز - افتراضًا - للشباب أن يشتغل بالباطل واللهو، خضوعًا لطيش الشباب، فلا يجوز شرعًا ولا عقلاً، للشيوخ أن يشتغلوا بباطل ولا لهو، بعد أن جدَّ الجد، واقتربت الساعة، وأزفت الآزفة.

والتوبة فريضة لازمة على كلِّ مذنب، ولكنها ألزم ما تكون على من جاوز مرحلة الشباب، وخصوصًا إذا بلغ السنين، فإنَّ الذنب منه يكون أكبر، والعقوبة تكون أعظم.

وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومليّ كذاب، وعائل مستكبر»^(١).

٥ - تدبير ما يتعيّش منه من الحلال:

وينبغي للإنسان المسلم: أن يستعين الله تعالى في تدبير ما يتعيّش منه من الحلال حتّى لا يكون عالةً على أحد، ويتحمّل من الرجال، وهي أثقل من الجبال، أو يدخل في مداخل لا تخلص من المكاسب الخبيثة التي حرمها الله تعالى.

وقد ضمن الله سبحانه لعباده الرزق في الأرض، كما قال **وَعَجَلْ**: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ولكنه سبحانه ربط الحصول على هذا الرزق بالسعي والعمل، والمشي في مناكب الأرض، والتماس الرزق في خباياها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، فمن سعى ومشى في مناكب الأرض - زارعًا كان أو صانعًا أو تاجرًا، أو معلمًا أو طبيبًا أو مهندسًا، أو محترفًا بأيِّ حرفة نافعة من الحرف - استحق أن يأكل من رزق الله. وإلا لم يستحق.

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٧)، وأحمد (١٠٢٢٧)، عن أبي هريرة.

وصدق ابن الخطاب حين قال: لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علمتم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضةً، وإنما يرزق الله النَّاسَ بعضهم من بعض، أما سمعتم قول الله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]^(١).

وكلُّ عمل من هذه الأعمال من زراعة وصناعة وتجارة وحرفة، يجب أن تتعلم، حتَّى يمارسها المرءُ ممارسةً صحيحةً، وينمّيها ويتقنها ويحسنها، كما في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٢).

وهذا الواجب الدنيويُّ مطلوبٌ من الإنسان مرّةً في عمره، وإن كان الوصول إلى درجة الإحسان المفروضة على كل شيء تقتضي من المسلم المزيد من اكتساب المعرفة والخبرة، بالقراءة والدراسة، والدخول في دورات تدريبية حتَّى يزداد خبرة ومعرفة، ويكون عالمًا بتدبير أمور معاشه ورزقه، معدودًا من العلماء في تخصُّصه، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

* * *

(١) انظر: الإحياء (٦٢/٢).

(٢) سبق تخريجه ص ٩٧.



الأعمال السنوية للمسلم

نقصد بالأعمال السنوية للمسلم: الأعمال التي لا تتكرر في كل يوم، ولا في كل أسبوع، ولا في كل شهر، وإنما تتكرر كل سنة مرة أو مرتين أو مرّات أو نحو ذلك، مربوطة بموعدها من شهور العام الهجري. ويمكننا معرفة هذه الأعمال وتحديدتها من خلال مراجعة المطلوب من المسلم في شهور العام العربية القمرية. وقد أُلّف فيها العلامة ابن رجب الحنبلي كتابه البديع: «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف».

ارتباط بعض الأحكام الشرعية بالأشهر القمرية:

والتوقيت بالأشهر العربية القمرية هو المعتمد شرعاً، سواء في صيام شهر رمضان أو الإحرام في شهر الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أو في حساب حَوْل الزكاة، أو في حساب أشهر العدة للمطلقة الصغيرة أو اليائسة من المحيض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤]، وكذلك عدة المتوفى عنها زوجها إذا لم تكن حاملاً: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وغير ذلك من التقديرات الشرعية.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهور التي فيها أربعة حُرُم هي الشهور العربية القمرية، فهي وحدها المعتبرة «عند الله»، وهي وحدها المُسَجَّلة «في كتاب الله»، وهذه الشهور: هي كما سمّاها العرب وتوارثها المسلمون: المحرّم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجُمادى الأولى، وجُمادى الآخرة^(١)، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أي: هي مواقيت للناس في معاملاتهم الدنيوية، وفي شعائرهم الدينية كالحج، ومثله الصوم. ومثله الكفّارات، مثل كفارة الظهار: صيام شهرين متتابعين، وكذلك صيام الكفارة على من جامع امرأته عمدًا في رمضان ولا عذر له، عند جمهور العلماء.

فينبغي على المسلمين أن يجعلوا التوقيت بالأشهر القمرية وبالسنة الهجرية أساس معاملاتهم، كما أنها أساس عباداتهم، وأن يؤرّخوا لحياتهم بالأشهر الحُرُم والسنة الهجرية، إما مفردة، أو مع التاريخ الميلادي.

أ - الزكاة

من الأمور التي تتكرر كل عام بعض أنواع زكاة المال، وهي زكاة النقدين وعروض التجارة والماشية تكرر كل حول إذا بلغت النصاب، وقد اشترط الفقهاء لإيجاب الزكاة في هذه الأنواع حولان الحول، بمعنى أن يمر على المِلْك في ملك المالك عام هجري؛ اثنا عشر شهرًا عربيًا.

(١) ربيع الآخر، وجُمادى الآخرة، هذا هو التعبير الصحيح، بدلاً من تعبير ربيع الثاني، وجُمادى الثانية. وننبه إلى أن جُمادى مؤنثة، لذا نصفها بالأولى والآخرة.

أَمَّا زَكَاةُ الزَّرْعِ فَيُخْرَجُ يَوْمَ الْحَصَادِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وكذلك العسل والمستخرج من المعادن والكنوز ونحوها فلا يشترط لها حَوْلٌ.

وزكاة المال بأنواعه المختلفة غير زكاة الفطر التي يؤديها المسلم قبيل صلاة العيد، كما سنبين في أعمال شهر شوال.

وعلى المسلم أن يظل منتبهاً لمسيرة الزمن، مراقباً لحركته حتى لا يؤخر الزكاة عن موعد وجوبها، إذا حال الحول أو جاء أوان الحصاد.

ب - الأعمال الشهور:

ومن الأعمال السنوية أعمال تتكرر في شهور معينة من العام، بعضها فرائض وبعضها من النوافل، وهناك أيام لها فضل خاص تكرر كل عام.

عمل شهر المحرم:

شهر المحرم من الأشهر الحرم الأربعة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وظلم النفس محرم في كل الشهور، ولكن إثمه أكبر في الأشهر الحرم، لما لها من مكانة عند الله تعالى، ولهذا حرم الإسلام فيها القتال، أي البدء به.

وهذا ممّا توارثه العرب من ملّة إبراهيم، فكانت هناك حرمتان: حرمة مكانية: وهي المسجد الحرام: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، حتى إن الرجل يلقي فيه قاتل أبيه فلا يشهر عليه سيفاً، ولا يمدُّ له يده بسوء.

وحرمة زمنيّة: وهي الأشهر الأربعة المعروفة: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب.

حكم القتال في الأشهر الحرم:

والصحيح أنّ تحريم القتال في الأشهر الحرم باقٍ مُحكم لم يُنسخ، ولا يجوز أن ننسخ كتاب الله بالاحتمال، ولا سيما أنّ التحريم جاء في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وهو مؤكّد لما جاء في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

بداية العام الهجري:

وشهر المحرم هو بداية العام الهجري، وإن كانت الهجرة لم تقع إلا في شهر ربيع الأول، والمسلمون اليوم يحتفلون بذكرى الهجرة، وبالعام الهجري في شهر الله المحرم، وكثير من المسلمين يُخرج زكاته في شهر المحرم، ويجوز أن يُخرجها في أيّ شهر آخر، تمّ له فيه أول نصاب ملكه، فإذا ملك النصاب في أول رجب مثلاً وتمّ له حَوْل في يده، يُخرج زكاته في أول رجب من كلّ عام.

وكان الخلفاء يبعثون السعاة لجباية الزكاة في شهر المحرم، وهذا بالنسبة لزكاة الأنعام: الإبل والبقر والغنم، وكذلك زكاة النقود والتجارة.

أما زكاة الزروع والثمار، فهذه ترتبط بوقت الحصاد الذي يتغيّر من سنة لأخرى، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فقد يكون الحصاد في سنة ما في المحرم، وبعد ستّ سنوات

يكون في ربيع، وهكذا، لما هو معروف من الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية.

استحباب الصيام في شهر المحرم:

ويستحب في شهر المحرم الصيام، كما جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل»^(١). وفي رواية أخرى: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرم»^(٢).

ولعل ذلك؛ لأنه شهر حرام من ناحية، ولأنه أول العام من ناحية أخرى، ففيه يبادر المسلم من البداية ليزيد من رصيد حسناته عند الله.

ويتأكد ذلك بصيام تاسوعاء (اليوم التاسع من المحرم)، وعاشوراء (اليوم العاشر منه)، وقد جاء في الصحيح، أن النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا يوم نجى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل، فقال ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم». وصامه وأمر بصيامه^(٣).

وفي الصحيح أيضاً: «صيام يوم عاشوراء أحسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»^(٤). وحتى يتميز صيام المسلمين عن صيام اليهود قال ﷺ: «لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع»^(٥). أي مع العاشر.

(١) رواه مسلم في الصيام (١١٦٣)، وأحمد (٨٥٣٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٥٠٧)، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٧)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، عن ابن عباس.

(٤) رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود (٢٤٢٥)، كلاهما في الصيام، عن أبي قتادة.

(٥) رواه مسلم في الصيام (١١٣٤)، وأحمد (٢١٠٦)، عن ابن عباس.

مُحَدَّثَات يَوْم عاشوراء:

ولم يصحَّ اعتبار عاشوراء عيدًا أو موسمًا تُذبح فيه الذبائح، ويغتسل فيه النَّاس ويتطيَّبون ويكتحلون.

وما روي في ذلك من أحاديث، لا يثبت منه شيء، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، حتى حديث: «مَنْ وَسَّعَ عَلَى أَهْلِهِ فِي عاشوراء، وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي سَنَتِهِ»^(١).

وقد سئل شيخ الإسلام «عما يفعله النَّاس في يوم عاشوراء من الكحل، والاغتسال والحناء، والمصافحة، وطبخ الحبوب، وإظهار السرور وغير ذلك: هل ورد في ذلك عن النَّبِيِّ ﷺ، حديث صحيح؟ أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح في شيء من ذلك فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ وما تفعله الطائفة الأخرى من المأتم والحزن والعطش، وغير ذلك من النَّدب والنياحة وشق الجيوب. هل لذلك أصل أم لا؟

فأجاب: لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النَّبِيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه ولا استحَب ذلك أحد من أئمة المسلمين. لا الأئمة

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٥١٢، ٣٥١٣، ٣٥١٤، ٣٥١٥) عن عدد من الصحابة، جابر بن عبد الله، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه. وبعد أن سرد البيهقي طريقه قال: هذه الأسانيد وإن كانت ضعيفة فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أخذت قوة. قلت: وقد جزم ابن الجوزي في الموضوعات (٢٠٢/٢)، وابن تيمية في منهاج السنة (٥٥٥/٤)، وغيرهما، بأن الحديث موضوع، وحاول العراقي وغيره الدفاع عنه وإثبات حسنه لغيره! وكثير من المتأخرين يَعْزُّ عليهم أن يحكموا بالوضع على حديث! والذي يترجح لي أن الحديث مما وضعه بعض الجهال من أهل السُّنَّة في الرد على مبالغات الشيعة في جعل يوم عاشوراء يوم حزن وحداد، فجعله هؤلاء يوم اكتحال واغتسال، وتوسعة على العيال!

الأربعة ولا غيرهم. ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئاً، لا عن النبي ﷺ، ولا الصحابة، ولا التابعين، لا صحيحاً ولا ضعيفاً، لا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة.

ولكن روى بعض المتأخرين في ذلك أحاديث، مثل ما روى أن «من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد من ذلك العام، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام»^(١)، وأمثال ذلك.

وروى فضائل في صلاة يوم عاشوراء، ورووا أن في يوم عاشوراء توبة آدم، واستواء السفينة على الجودي، ورد يوسف على يعقوب، وإنجاء إبراهيم من النار، وفداء الذبيح بالكبش، ونحو ذلك.

وروى في حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ: أنه من وسّع على أهله يوم عاشوراء، وسّع الله عليه سائر السنة^(٢). ورواية هذا كله عن النبي ﷺ كذب، ولكنه معروف من رواية سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، قال: بلغنا أنه من وسّع على أهله يوم عاشوراء وسّع الله عليه سائر سنته.

وإبراهيم بن محمد بن المنتشر من أهل الكوفة. وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان: طائفة رافضة، يظهرون موالاته أهل البيت، وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة، وإما جهال وأصحاب هوى.

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/٢٠٠، ٢٠١)، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢/٩٢، ٩٣)، واللكوني في الآثار المرفوعة ص ٩٦، ٩٧.

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٥.

وطائفة ناصبة تبغض عليًا وأصحابه، لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى»^(١).

والذي يظهر للباحث المنصف أنَّ هذا الحديث وأمثاله قد اخترعه المخترعون ردًّا على ما اخترعه الشيعة من جعل عاشوراء يوم حداد وحزن، وضرب للصدور، وشق للجيوب، ولطم للخدود، حزنًا وجزعًا على استشهاد الحسين عليه السلام، حيث كان قتله في يوم عاشوراء «سنة ٦١ هـ».

والواقع: أنَّ هذه مُحدثات مبتدعة، ما أنزل الله بها من سلطان، وقد استشهد قبل الحسين من هو خيرُّ منه بإجماع المسلمين، وإجماع الشيعة أنفسهم، وهو أبوه علي بن أبي طالب عليه السلام وكرم الله وجهه، فلم يُجعل يوم استشهاده يوم حداد، والإسلام يعتبر الشهادة وسامًا على صدر الشهيد، وفخرًا له.

بل الإسلام لا يعرف فكرة الحداد هذه ولا يُقرُّها، لما فيها من إظهار الجزع والسخط على قدر الله، إنَّما المشروع هو الصبر والتجلد والرضا بما قدر الله، والاسترجاع عند المصيبة أو عند تذكرها: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

وإذا كان الشيعة ابتدعوا الحداد والحزن في عاشوراء، وفي المحرم عامة، إلى اليوم الأربعين من عاشوراء، فلا يجوز لأهل السنة أن يبتدعوا الفرح والاحتفال بعاشوراء، فإنَّ الباطل لا يقاوم بالباطل، إنَّما يقاوم الباطل بالحق، والحق أحق أن يتبع^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٩٩/٢٥ - ٣٠١)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

(٢) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (٤٠١/١، ٤٠٢)، نشر دار القلم، الكويت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

الزواج في المحرم:

ومما يسأل الناس عن مشروعيته: الزواج في شهر المحرم، فقد شاع عند كثيرين كراهية الزواج فيه، وخصوصاً في مصر، ولعل ذلك من رواسب حكم العبّديين الإسماعيليين الغلاة، الذين سموا أنفسهم «الفاطميين» وما هم من فاطمة في شيء، كما أثبت ذلك المحققون.

والشيعة الإمامية الاثنا عشرية إلى اليوم يكرهون الزواج في محرم، بل فيه وفي صفر أيضاً، هكذا سمعت منهم في قطر، وعرفت ذلك في سلوكهم وتقاليدهم، حتّى إنهم لا يستجيبون لدعوة عرس في محرم أو صفر من جارٍ أو زميل أو صديق لهم من أهل السُنّة، إذا زوّج أو تزوّج فيهما.

ولما عدت إلى كتبهم لم أجد فيها هذا الأمر، غير أنه فتوى بعض مرجعياتهم أنه لا بركة في الزواج في أيام أحزان الأئمة والشيعة (يقصدون قتل الإمام الحسين في كربلاء).

شهر صفر:

لم يرد في خصوص شهر صفر حديث ولا أثر يطلب فيه عبادة أو عملاً معيناً.

كلّ ما ورد في شأنه هو نفي التشاؤم به، فقد كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بهذا الشهر، وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة»^(١). فنفي كل الأوهام التي كانوا يعتقدونها في الجاهلية.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧١٧)، ومسلم في السلام (٢٢٢٠)، عن أبي هريرة.

وفي حديث آخر: «لا عدوى»^(١) ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»^(٢).

والعدوى في الحديث تعني: ما كان يعتقده أهل الجاهلية، وهو أن الأمراض تعدي بذاتها، وليس لقدر الله فيها مدخل، فنفي هذا الوهم، وأقر سنة الله في العدوى، بدليل قوله: «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد». فهذا يثبت العدوى بناء على ما قدره الله من سنن وأسباب.

شهر ربيع الأول:

أما شهر ربيع الأول، فلم يرد في خصوصه قرآن ولا سنة، ولم يطلب الشارع فيه من المسلم عملاً خاصاً.

لكن لا ريب أننا من الناحية العاطفية نحب شهر ربيع الأول؛ لأن النبي ﷺ وُلد فيه، والأزمة كالأمكنة تشرف بما يقع فيها من أحداث عظام. ولهذا شرف رمضان وشرفت ليلة القدر؛ لنزول القرآن فيهما.

وميلاد محمد ﷺ من الأحداث العظام، ولكن الشارع لم يربط به عملاً ولا تكليفاً من أي نوع كان.

حكم الاحتفال بمولد النبي :

وهنا تثور قضية يتساءل كثير من الناس عن حكمها، ويختلفون في الجواب عنها، وهي قضية الاحتفال بمولد النبي ﷺ.

(١) «لا عدوى»: سرية المرض من المصاب إلى غيره، والمعنى: لا يكون ذلك إلا بإذن الله. «ولا طيرة»: هو نهى عن التطير وهو التشاؤم. «ولا هامة»: هي الرأس، وهي اسم لطائر يطير بالليل، كانوا يتشاءمون منه. «ولا صفر»: هو الشهر المعروف، كانوا يتشاءمون بدخوله.

(٢) رواه أحمد (٩٧٢٢)، وقال مخرجه: صحيح. والبخاري تعليقا (٥٧٠٧) مجزوماً به، والبيهقي في النكاح (١٣٥/٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

وقد انتشر الاحتفال به في القرون الأخيرة، وألفوا لذلك كتبًا مسجوعة متكلفة تحكي قصة حمله وولادته ﷺ، وما قبل ذلك إلى حد جعلوه أول ما خلق الله! مع أنه لم يصحَّ حديث قط في تحديد أول ما خلق الله، مع أن ما ورد فيها ليس فيه: أول ما خلق الله نور محمد ﷺ^(١). بل فيه: «أَوَّلُ ما خلق الله العقل»^(٢)، و«أَوَّلُ ما خلق الله القلم»^(٣).

وقد استدللَّ بعضهم للاحتفال بالمولد بقوله ﷺ عن يوم الاثنين: «ذلك يومٌ وُلِدْتُ فيه»^(٤). فكأنَّ صيامه كان تذكيرًا بهذه النعمة كما صام اليهود يوم عاشوراء، وسألهم الرسول عن سبب ذلك، فقالوا: هذا يوم نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل، فقال: «نحن أولى بموسى منكم» وصامه وأمر بصيامه^(٥).

(١) عزاه العجلوني في كشف الخفاء (٨٢٧) لعبد الرزاق، ولم أجد عند عبد الرزاق في المصنف، أو التفسير، بل: لم أقف عليه في شيء من كتب الحديث، حتى كتب الموضوعات، وقال اللكنوي في الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ص ٤٣: هو حديث لم يثبت بهذا المبنى وإن ورد غيره موافقا له في المعنى، وقال الشيخ أحمد بن الصديق الغماري في المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير ص ٧: وهو حديث موضوع لو ذكره بتمامه لما شك الواقف عليه في وضعه، وبقيته تقع في ورقتين من القطع الكبير؛ مشتملة على ألفاظ ركيكة، ومعاني منكرة.

(٢) ذكره ابن قدامة المقدسي في المنتخب من علل الخلال (٢٩)، وقال: هذا موضوع، ليس له أصل. قال الحافظ في فتح الباري (٢٨٩/٦): ليس له طريق ثبت. وانظر كتابنا: فتاوى معاصرة (١٧٨/١، ١٧٩).

(٣) رواه أحمد (٢٢٧٠٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وأبو داود في السنة (٤٧٠٠)، والترمذي في التفسير (٣٣١٩)، وقال: حسن صحيح غريب. عن عبادة بن الصامت.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٣٩)، عن أبي هريرة.

(٥) سبق تخريجه ص ١٧٤.

وللحافظ السيوطي فتوى في الاحتفال بمولده ﷺ، سمّاها: «حسن المقصد في عمل المولد» ضمنها كتابه: «الحاوي للفتاوي»، قال فيها: «أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي ﷺ، وما وقع في مولده من الآيات، ثم يمد لهم سباط يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك، هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها لما فيه من تعظيم قدر النبي ﷺ، وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف».

قال: «وقد ادّعى الشيخ تاج الدين عمر بن علي اللخمي السكندري المشهور بالفاكهاني من متأخري المالكية أن عمل المولد بدعة مذمومة، وألف في ذلك كتاباً سمّاه: «المورد في الكلام على عمل المولد»، وأنا أسوقه هنا برمته وأتكلم عليه حرفاً حرفاً».

وبعد أن ساق رسالة الفاكهاني وناقشه قال: «وقد تكلم الإمام أبو عبد الله بن الحاج في كتابه «المدخل» على عمل المولد، فأثخن الكلام فيه جداً، وحاصله: مدح ما كان فيه من إظهار شعار وشكر، وذم ما احتوى عليه من محرمات ومنكرات..».

وساق كلامه، ثم قال: «وقد سئل شيخ الإسلام حافظ العصر أبو الفضل ابن حجر عن عمل المولد، فأجاب بما نصه: أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرّى في عملها المحاسن، وتجنب ضدها كان بدعة حسنة، وإلا فلا».

قال - أي المحافظ ابن حجر -: وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبي ﷺ قدم المدينة

فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجّى موسى فنحن نصومه شكراً لله تعالى^(١)، فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما منّ به في يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة، والشكر لله يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي، نبي الرحمة في ذلك اليوم. وعلى هذا فينبغي أن يُتحرّى اليوم بعينه حتّى يطابق قصة موسى في يوم عاشوراء، ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولد في أي يوم من الشهر، بل توسع قوم فنقلوه إلى يوم من السنة، وفيه ما فيه. فهذا ما يتعلق بأصل عمله.

وأما ما يعمل فيه فينبغي أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى، من نحو ما تقدم ذكره من التلاوة والإطعام والصدقة، وإنشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للأخرة، وأما ما يتبع ذلك من السماع واللّهو وغير ذلك، فينبغي أن يقال: ما كان من ذلك مباحاً بحيث يقتضي السرور بذلك اليوم، لا بأس بإلحاقه به، وما كان حراماً أو مكروهاً فيُمنع، وكذا ما كان خلاف الأولى». انتهى.

قال السيوطي: «وقد ظهر لي تخريجه على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس: أَنَّ النبي ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة^(٢)».

(١) سبق تخريجه ص ١٧٤.

(٢) رواه البيهقي في الضحايا (٣٠٠/٩)، وقال: منكر، قال عبد الرزاق: إنما تركوا عبد الله بن محرر (أحد رواة الحديث) لحال هذا الحديث. وضعّفه ابن الملقن في البدر المنير (٣٣٩/٩)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٥٩٥/٩): لا يثبت. عن أنس.

مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقَّ عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيُحْمَل ذلك على أن الذي فعله النبي ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إِيَّاه رحمة للعالمين، وتشريع لأُمته، كما كان يصلي على نفسه لذلك، فيستحب لنا أيضًا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع، وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات»^(١).

وقد اختلف النَّاس في عصرنا حول الاحتفال بالمولد النبوي، ما بين مؤيدين على طول الخط، ومعارضين على طول الخط.

وأُلفت في ذلك رسائل، منها للعلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأكبر للمملكة العربية السعودية (رحمته الله)، ومنها للعلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية في قطر.

والذي يترجَّح لي: أنه لا مانع من الاحتفال بهذه الذكرى، بالحديث عن هذه السيرة العاطرة، والحياة النبوية الحافلة بالإيمان والدعوة والجهاد، والتعريف بهذه الشخصية، التي جعلها الله أسوة للمؤمنين، ورحمة للعالمين، والتعريف برسالته العالمية الخالدة، وما أودعها الله من أصول وشرائع وقيم، تهدي للتي هي أقوم، وتخرج النَّاس من الظلمات إلى النور، وتقيم عدلَ الله في أرض الله.

فهذا ما لا ينبغي أن يُعاب، ولا ينبغي أن يدخل هذا في البدع الدينية؛ لأنه ليس من العبادات، وإنما هو من الوسائل والآليات التي يبتكرها النَّاس لتقوية الإيمان، وربط النَّاس بالدين.

(١) انظر: الحاوي للفتاوي للسيوطي (٢٢٩/١، ٢٣٠)، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

من ربيع الآخر إلى جمادى الآخرة:

أمّا ربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، فلم يرد فيها شيء بخصوصها، ولا يتفرّد شهر منها بعمل يخصّه.

شهر رجب:

وأمّا شهر رجب فهو أحد «الأشهر الحرم» التي تحدثنا عنها من قبل. وفيه ليلة اشتهر بين المسلمين أنها ليلة الإسراء والمعراج، يحتفل فيها الكثيرون بهذه الذكرى، وقيمون الاحتفال، ويلقون الكلمات، ويذبحون الذبائح، وهي ليلة السابع والعشرين من رجب.

وفي عصرنا حدث اهتمام كبير بهذه الليلة والاحتفال بها، وذلك لارتباط الإسراء بالمسجد الأقصى، فهو منتهى الإسراء، كما أن المسجد الحرام مبتدؤه، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، ومنه بدأ المعراج إلى السماوات العلا. فالمسلمون حين يحتفلون بذكرى الإسراء والمعراج، يحتفلون في الوقت نفسه بأرض الإسراء التي اختطفها الصهاينة الغاصبون المعتدون.

ولكن لا دليل على أنّ ليلة «٢٧» رجب هي ليلة الإسراء، كما أنه لا يطلب من المسلم فيها عبادة معينة، لا قيام ليلها، ولا صيام نهارها.

وقد ابتدع بعض الناس في أول رجب صلاة سمّوها: «صلاة الرغائب»، رُويت فيها أحاديث لا يثبت منها شيء، وهي صلاة باطلة؛ لأنها مبنية على غير الشرع، فهي ممّا شرع الناس من الدين ما لم يأذن به الله، وهي بلا شك بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وقد وردت جملة من الأحاديث في فضل شهر رجب لم يثبت منها شيء، سواء ما جاء في فضله منفردًا، أم ما جاء مع غيره.

فمما جاء في فضل رجب وشعبان ورمضان حديث: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمّتي»^(١).

«ولكن كان بعض السلف يعتبر رجب ممهدًا لرمضان، وأنه مقدمة لموسم الخير الكبير.

فقال أبو بكر الورّاق البلّخي: شهر رجب شهر الزّرع، وشعبان شهر سقي الزرع، ورمضان شهر حصاد الزرع.

وعنه قال: مثل شهر رجب مثل الريح، ومثل شعبان مثل الغيم، ومثل رمضان مثل المطر.

وقال بعضهم: السنة مثل الشجرة، وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قطفها.

وقالوا: جديرٌ بمن سوّد صحيفته بالذنوب أن يبيّضها بالتوبة في هذا الشهر، وبمن ضيّع عمره في البطالة أن يغتنم فيه ما بقى من العمر.

بَيِّضْ صَحِيفَتَكَ السَّوْدَاءَ فِي رَجَبٍ بِصَالِحِ الْعَمَلِ الْمُنْجِي مِنَ اللَّهَبِ
شَهْرٌ حَرَامٌ أَتَى مِنْ أَشْهُرٍ حُرْمٍ إِذَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ فِيهِ لَمْ يَخْبِ
طُوبَى لِعَبْدٍ زَكَا فِيهِ لَهُ عَمَلٌ فَكَفَّ فِيهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالرَّيْبِ^(٢)

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٣٢)، وقال عقبه: قال الإمام أحمد: هذا إسناد منكر بمرّة.

وقد روي عنه عن أنس غير هذا تركته فقلبي نافر عن رواية المناكير التي أتوهمها لا بل أعلمها موضوعة، والله يغفر لنا برحمته. وانظر: تبين العجب بما ورد في شهر رجب لابن حجر ص ٢٣، ٤٠ وما بعدها، تحقيق طارق بن عوض الله، نشر مؤسسة قرطبة، الهرم، مصر.

(٢) الأبيات لأبي بكر محمد بن عمر الواعظ الكرخي، كما في مرآة الزمان لسبط بن الجوزي

(٤٠٢/١٩)، نشر دار الرسالة العالمية، دمشق، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

قال العلامة ابن رجب في «اللطائف»: «وقد رُوي أنه كان في شهر رجب حوادث عظيمة، ولم يصحَّ شيء من ذلك، فُرُوِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ولد في أول ليلة منه، وأنه بعث في السابع والعشرين منه. وقيل: في الخامس والعشرين، ولا يصح شيء من ذلك، وُرُوِي بِإِسْنَادٍ لَا يَصَحُّ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ: أَنَّ الْإِسْرَاءَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَانَ فِي سَابِعٍ وَعَشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ وَغَيْرُهُ»^(١).

فهذا أساس ما شاع عند المسلمين، وهو أساس واهٍ جدًا.

صيام رجب:

وقال ابن رجب في «اللطائف»: «أما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النَّبِيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه، وإنما ورد في صيام الأشهر الحرم كلها حديث مُجَبِّية الباهلية عن أبيها أو عمها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «صُمْ مِنَ الْحُرُمِ وَاتْرُكْ»^(٢). قالها ثلاثًا.

وقد كان بعض السلف يصوم الأشهر الحرم كلها، منهم ابن عمر^(٣)، والحسن البصري^(٤)، وأبو إسحاق السبيعي^(٥).

وخرَّج ابن ماجه أيضًا بإسنادٍ فيه ضعف عن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ صِيَامِ رَجَبٍ. والصحيح وقفه على ابن عباس^(٦).

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص ١٢١، ١٢٢، نشر دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) رواه أحمد (٢٠٣٢٣)، وقال مخرجه: حسن لغيره. وأبو دواد في الصوم (٢٤٢٨)، وابن ماجه في الصيام (١٧٤١)، عن مجيبة الباهلية، عن أبيها، أو عمها.

(٣) رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٨٥٦).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الصوم (٩٣١٥).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٦١٣).

(٦) رواه ابن ماجه في الصيام (١٧٤٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٧٧/٢، ٧٨): هذا =

ورُوي عن عمر رضي الله عنه : أنه كان يضرب أكفَّ الرجال في صوم رجب، حتَّى يضعوها في الطعام، ويقول: ما رجب؟! إن رجبًا كان يعظّمه أهل الجاهلية، فلما كان الإسلام تُرك^(١). وفي رواية: كره أن يكون صيامه سنّة! وعن أبي بكر: أنه رأى أهله يتهيؤون لصيام رجب، فقال لهم: أجعلتم رجب كرمضان؟ وألقى السلاسل وكسر الكيزان. وعن ابن عباس: أنه كره أن يصام رجب كله^(٢).

وعن ابن عمر وابن عباس أنهما كانا يريان أن يفطر منه أيامًا. وقال الشافعي في القديم: أكره أن يتخذ الرجل صوم شهر يكمله كما يكمل رمضان، واحتج بحديث عائشة: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهرٍ قط إلا رمضان^(٣)»^(٤).

شهر شعبان:

أمّا شهر شعبان، فقد صحَّ أن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، كان يصوم فيه أكثر ممّا يصوم في غيره من الشهور، حتَّى وردت في بعض الروايات: أنه كان يصومه كله^(٥)، ولكن روايات أخرى قالت: أنه لم يستكمل صيام شهر غير رمضان^(٦).

= إسناده فيه داود بن عطاء المدني، وهو متفق على تضعيفه. ورواه عبد الرزاق في الصيام (٧٨٥٤) موقوفًا، بإسناد صحيح.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١٥٢): فيه الحسن بن جبلة ولم أجد من ذكره، وبقيّة رجاله ثقات.

(٢) رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٨٥٤).

(٣) رواه مسلم (١١٥٦)، وأحمد (٢٤٧٥٧)، عن عائشة.

(٤) لطائف المعارف ص ١١٨، ١١٩.

(٥) رواه البخاري في الصوم (١٩٧٠)، عن عائشة.

(٦) رواه مسلم في الصيام (١١٥٦)، عن عائشة.

ولما سُئِلَ ﷺ عن كثرة صيامه في شعبان قال: «شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَحَبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(١).

وكانه يكثر الصيام فيه استعدادًا لشهر رمضان.

ليلة النصف من شعبان:

ومما اختلف الناس فيه من ليالي هذا الشهر: ليلة النصف من شعبان، فوردت أحاديث في قيام ليلها، وصيام نهارها، واخترع الناس دعاء لها سَمَّوه دعاء ليلة النصف من شعبان، يتجمعون من أجله في المسجد بعد صلاة المغرب، ويقرؤون سورة يس، ويصلون ركعتين بنية طول العمر، وآخرين بنية الغنى عن الناس، ويدعون هذا الدعاء المعروف، ومنه: اللهم بحقِّ التجليِّ الأعظم، في ليلة النصف من شهر شعبان المكرَّم، الَّتِي يَفْرُقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ وَيُبْرَم: أَنْ تَرْفَعَ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا نَعْلَم، وَمَا لَا نَعْلَم، وَمَا أَنْتَ بِهِ أَعْلَم.

ولم ترد في الشرع صلاة بنية طول العمر، ولا بنية الغنى عن الناس، وهل يستغني آدميٌّ حيٌّ عن الناس؟!!

هذا مع أَنَّ الليلة الَّتِي يَفْرُقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدَرِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا الْقُرْآن.

وهي الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا، فِي سُورَةِ الدَّخَانِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿[الدخان: ٣، ٤].

(١) رواه أحمد (٢١٧٥٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والنسائي في الصيام (٢٣٥٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٩٨)، عن أسامة بن زيد.

والأحاديث التي جاءت في فضل ليلة النصف من شعبان لا يعتد بها، ولم تبلغ درجة الصحة^(١)، ولا تثبت بها عبادة.

شهر رمضان:

شهر رمضان سيد شهور العام، وثبت فضله بمحكم القرآن، وصحيح الأحاديث، يقول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وروى الشيخان: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب جهنم، وصُفِّدت الشياطين»^(٢).

فرض الله صيام أيام رمضان على جميع المسلمين البالغين والمسلّمات، إلا من كان له عذر، كالمرأة الحائض والنفساء، وكذلك الحبلَى والمرضع، ورخص أيضاً للمريض والمسافر في الفطر، وقال سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(١) غاية ما هناك أن حديث: «يطلع الله رَجُلًا إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا لاثنتين: مشاحن، وقاتل نفس» الذي رواه أحمد (٦٦٤٢)، وقال مخرجه: حديث صحيح بشواهده. وبعد أن ذكروا شواهد للحديث قالوا: وهذه الشواهد وإن كان في إسناد كل منها مقال إلا أنه بمجموعها يصح الحديث ويقوى. وقد نقل القاسمي في كتابه «إصلاح المساجد» ص ١٠٠ عن أهل التعديل والتجريح: أنه ليس في فضل ليلة النصف من شعبان حديث يصح اهـ. وهذا يعني أنه ليس في هذا الباب حديث يصح إسناداه، ولكن بمجموع تلك الأسانيد يعتضد الحديث ويقوى. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٩٣): رواه أحمد بإسناد لين. عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وانظر: المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب (٣٤٢/١)، الحديث (٥٣٣)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩) كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

كما شرع الإسلام تربية الأولاد - قبل بلوغهم - على العبادات التي تحتاج إلى دربة أو تعود؛ ليحسنوا الاعتياد عليها بالتدرج، كما في الصلاة والصيام.

كما سنَّ رسول الله ﷺ قيامَ رمضان، ففيه قيام صلاة التراويح بعد صلاة العشاء في مساجد المسلمين، وبعضهم يصلُّونها ثمانِي ركعات غير الشفع والوتر، وبعضهم يصلِّيها عشرين ركعة، وكلاهما جائز.

وفي هذا الشهر مجال لاستباق الخيرات، والتنافس في الصالحات، من الذكر والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، ومُدارسة العلم الشرعي، وصنع المعروف والإحسان إلى المساكين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، والاعتماد في رمضان لمن يقدر عليه، دون تضييع حقٍّ آخر أهم منه، والتماس ليلة القدر في العشر الأواخر، والاعتكاف فيها، اقتداء بالنبي ﷺ.

والاعتكاف: هو الانقطاع في أحد المساجد لفترة معيّنة، بنية التقرب إلى الله، والتحرُّر من شواغل الدنيا.

ففيه يبقى في المسجد ليلاً ونهاراً، حتّى تنقضي الفترة التي حددها. وما أحوج المؤمن إلى مثل هذه الفترات التي يخلو فيها إلى ربه، مناجياً وداعياً ومستغفراً ومتجرّداً لله.

ولله تعالى أن يفضِّل بعض الأزمنة على بعض، كما فضِّل بعض الأمكنة على بعض، وكما فضِّل بعض الناس على بعض، وبعض الرسل على بعض.

وحسب رمضان من الفضل أنه أنزل فيه القرآن، وجعل الليلة التي أنزل فيها القرآن - وهي المعروفة بليلة القدر - خيراً من ألف شهر.

كما جعل صيام رمضان وقيامه سبباً للمغفرة من الله تعالى كما صحَّ في الحديث: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١)، و«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢). و«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٣).

شهر شوال:

ومن أعمال شهر شوال:

١ - صدقة الفطر:

أَوَّل ما يجب على المسلم أن يفعله في شهر شوال: إخراج زكاة الفطر، إن لم يكن تعجَّل إخراجها في أواخر رمضان، وهو الأولى في زمننا هذا، يخرجها عن نفسه وعمَّن هو في ولايته ونفقته، من زوجة وولدٍ وخدم.

وزكاة الفطر زكاةٌ على الرؤوس لا على الأموال، فرضها رسول الله ﷺ بمناسبة الفطر من رمضان، وقدوم العيد، لحكمتين أساسيتين أشار إليهما حديث ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان، طهرةً للصائم من اللغو والرفث، وطعمةً للمساكين^(٤).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وقال: هذا حديث على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني في زكاة الفطر (٦١/٣)، وقال: ليس فيهم مجروح. وحسن إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، والألباني في صحيح أبي داود (١٤٢٧)، عن ابن عباس.

فالهدف الأول: إعفاف الفقير وإغناؤه عن السؤال في يوم العيد، وإشراكه في مسرات العيد، بحيث لا تكون فرحة العيد مقصورةً على الأغنياء والواجدين، ويُحرم منها الفقراء والمساكين.

كما أنها من ناحية أخرى جبر وتطهير للصائمين الذين لم يخلُ صيامهم من لغو ورفث، فكانت هذه الزكاة بمثابة سجود السهو في جبر الخلل الذي يلحق بصلاة المسلم.

٢ - صلاة عيد الفطر:

وأول يوم من شوال هو يوم عيد الفطر، وفيه شرعت صلاة العيد، وهي سنة شعائرية، مثل الأذان، وختان الذكور، فهي من شعائر الإسلام، وهي فرض كفاية.

وتُشرع صلاتها في جماعة، والسنة أن يصلّيها المسلمون في الخلاء، لتحشّد فيه الجماهير التي لا يسعها المسجد، في صورة مهرجان إسلامي، يجتمع فيه الرجال والنساء والصبيان، حتّى المرأة الحائض تشهد هذا التجمّع، فتعزل الصلاة، وتحضر الخطبة والموعظة.

وصلاة العيد ركعتان تُصليان بعد طلوع شمس يوم العيد وارتفاعها بمقدار رمح أو رمحين، أي بحوالي «١٥» أو «٢٠» دقيقة.

وهي صلاة جهريّة، فيها تكبيرات بعد تكبيرة الإحرام: «٧» في الركعة الأولى، و«٥» في الركعة الثانية، قبل قراءة الفاتحة، وخطبة بعد الصلاة.

فيوم العيد ليس يوم انفلات وتحلّل كما في بعض الأديان الأخرى، ولكنه يوم سرور وتجمّل، وتواصل وتزاور، وفرح بفضل الله الذي أتمّ عليهم نعمة الصيام.

وقد أجمعت الأمة على تحريم صيام يوم العيد؛ وقد قال عمر بن الخطاب: هذان يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما: يوم فطرکم من صيامکم، واليوم الآخر تأکلون فيه من نسککم^(١).

٣ - صيام ست من شوال:

وبعد عيد الفطر يستحبُّ صيام ستة أيام من شوال، على سنّة الإسلام أن يكون بعد الفريضة نافلة، توحى بأن المسلم لم يقطع حباله بربه بمجرد أداء الفريضة، بل هو موصول بمولاه دائماً، بالفرض يصل إلى مرتبة «القرب»، وبالنفل يصل إلى مرتبة «الحُب»، وفي الحديث القدسيّ الصحيح: «ما تقرب إليّ عبدي بأفضل ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتّى أُحبّه»^(٢).

قال ﷺ: «من صام رمضان ثمّ أتبعه ستّاً من شوال كان كصيام الدهر»^(٣).

وجاء تفسير ذلك في حديث آخر: «وصيام شهر رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بعده بشهرين، فذلك صيام السنّة»^(٤)، وجاء في رواية أخرى لهذا الحديث تكملة: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»^(٥).

وهل يشترط أن تكون بعد عيد الفطر مباشرة؟ بعض العلماء قال ذلك، وبعضهم وسّع فيها، وهو الأرجح.

- (١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٩٠)، ومسلم (١١٣٧)، كلاهما في الصيام.
- (٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.
- (٣) رواه مسلم في الصيام (١١٦٤)، وأحمد (٢٣٥٣٣)، عن أبي أيوب الأنصاري.
- (٤) رواه أحمد (٢٢٤١٢)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى (٢٨٧٣)، وابن خزيمة (٢١١٥)، كلاهما في الصيام، عن ثوبان.
- (٥) رواه ابن ماجه في الصيام (١٧١٥).

وفي شهر شوال تبدأ أشهر الحج، وهي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة. كما قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فيجوز الإحرام بالحج ابتداءً من شوال، وقبل ذلك لا يجوز.

شهر ذي القعدة:

شهر ذي القعدة اجتمع فيه أمران: أنه من أشهر الحج المعلومات، وأنه من الأشهر الحرم أيضًا. ولا أعلم أنه ورد فيه شيء مخصوص.

شهر ذي الحجة:

شهر ذي الحجة أهم الأشهر بعد شهر رمضان، فهو ختام أشهر العام، وهو أحد أشهر الحج المذكورة في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وأحد الأشهر الحرم المذكورة في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

الأيام العشر:

وفيه: الأيام العشر التي صحّت في فضلها الأحاديث، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام». يعني: أيام العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء»^(١)، وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]، بأنها عشر ذي الحجة^(٢).

(١) رواه البخاري في العيدين (٩٦٩)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٣٩٦/٢٤)، عن ابن عباس.

ويستحبُّ في هذه العشر أو التسع الأوَّل منها: الصيام والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير، وخصوصًا يوم التاسع (يوم عرفة)، الَّذي يعدُّ أفضل أيام العام، كما أنَّ ليلة القدر أفضل ليالي السنة.

ويتأكد صيام هذا اليوم لغير الحاجِّ، وفي الحديث: «صيامُ يومِ عَرَفَةِ إِنِّي لأَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفُرَ السَّنَةُ الَّتِي قَبْلَهُ وَالتِّي بَعْدَهُ»^(١).

ويُستحبُّ التكبير مطلقًا في هذه الأيام، والتكبير بعد الصلوات ابتداءً من فجر يوم عرفة، إلى عصر آخر أيام التشريق، وهو رابع أيام العيد، أي ثلاثًا وعشرين صلاة، يكبِّر بمثل هذه الصيغة: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد^(٢).

شعائر يوم العيد:

ويوم العيد هو «يوم الحج الأكبر»، الَّذي أشار إليه القرآن في سورة التوبة، وسُمِّي بذلك؛ لأن فيه تقع أكثر أعمال الحج، ففي ليلته النزول بمزدلفة، وذكر الله عند المشعر الحرام، وفي يومه يرمي الحاج جمرة العقبة، ويحلق أو يقصِّر، ويذبح أو ينحر، ويطوف بالبيت طواف الإفاضة، وهو الطواف الركن بالإجماع.

وفيه كذلك صلاة العيد، وحكمها حكم صلاة عيد الفطر.

وبعد الصلاة يذبح النَّاسُ أضاحيهم، كما قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

(١) رواه ابن خزيمة في الصوم (٢٠٨٧)، ورواه مسلم في الصيام (١١٦٢) بلفظ: وسئل عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية»، عن أبي قتادة الأنصاري.

(٢) هذه الصيغة مروية عن ابن مسعود موقوفة عليه: رواها ابن أبي شيبه في صلاة العيدين (٥٦٧٩).

والسُّنَّة: أن يُوزَّعَها أثلاثًا: ثلثًا لنفسه وأهله، وثلثًا لجيرانه وأصدقائه، يهديه إليهم أو يجمعهم على وليمة عنده، وثلثًا للفقراء، ولو أعطى للفقراء أكثر من الثلث كان خيرًا وبركة.

ومن حكمة الإسلام: أنه لم ينس المساكين في هذه المناسبات السارة، فشرع لهم زكاة الفطر في عيد الفطر، وشرع لهم الأضحية في عيد الأضحى.

وبهذه المناسبة يتذكر المسلم قصة سيدنا إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل، حين بلغ معه السعي، قال له: ﴿يَبْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴿[الصافات: ١٠٢] وكيف فداه الله بذبح عظيم، وشرعت الأضاحي في الإسلام، اقتداء بسيدنا إبراهيم، وتميزه بهذا الموقف الإنساني الرباني النبيل.

ويمكن للمسلم أن يوكل من يذبح عنه في بلد آخر، يكون أشد حاجة من البلد الذي يعيش فيه، وبهذا يتصدق بأضحيتهم كلها، ولا بأس إذا كان من أهل اليسار أن يضحي بأكثر من أضحية، بأن يضحي في بلده، ويضحي في الخارج، ولا يضيع عند الله عمل عامل من ذكر أو أنثى.

ويأتي بعد صلاة العيد والأضحية: التواصل بين المسلمين بعضهم وبعض، يتبادلون التهاني، ويوثقون الروابط، وخصوصًا بين ذوي القربى والجيران والأصدقاء والزملاء.

ولا يجوز أن تمر هذه الأعياد والمناسبات، وهناك قطعة وجفوة بين بعض ذوي الأرحام بعضهم وبعض، ف«لا يحل لمسلم أن يهجر»

أخاه فوقَ ثلاثٍ، يلتقيانِ فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخيرُهما الَّذي يبدأ بالسَّلام»^(١).

الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة:

في شهر ذي الحجة أعمال الحج، وللمسلم أن يؤدّيه مفردًا كان أو متمتعًا أو قارنًا، وقد اختلف الفقهاء: أيها أفضل وأعظم أجرًا عند الله؟

والذي تدل عليه السُّنَّة: أنَّ التمتع أفضلها لمن لم يسق الهدى، وهذا في عصرنا نادر، وذلك هو الأيسر على الحاج: أن يحرم بالعمرة أولاً، ويؤدّي مناسكها، من الإحرام والطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، ثمّ التقصير أو الحلق، ثمّ يتحلّل ويخلع ملابس الإحرام، ويلبس ملابسه المعتادة، ويعود حلالاً كما كان قبل الإحرام.

فإذا كان يوم الثامن من ذي الحجة، وهو المسمّى «يوم التروية» أحرم من حيث يقيم، وذهب إلى منى ليقم فيها هذا اليوم، يصلي فيه: صلاة الظهر والعصر، ثمّ المغرب والعشاء، ثمّ صلاة الفجر، ثمّ ينطلق إلى عرفة، للوقوف بها يوم التاسع، ويصلي فيها الظهر والعصر جمع تقديم، مع الإمام العام، إن تيسّر له ذلك، أو يصلي كل قوم في خيمتهم بإمام منهم. وهذا الوقوف ركن متفق عليه من أركان الحج، حتّى جاء في الحديث: «الحجُّ عرفة»^(٢). أي هو ركنه الأعظم.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

(٢) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، أربعتهم في الحج، عن عبد الرحمن بن يعمر.

وبعد الغروب ينفر الحاج من عرفات إلى مزدلفة، ويجوز قبل الغروب، كما هو مذهب الشافعي، ولا بأس من العمل به في زمننا تخفيفاً عن الناس، وتوزيعاً لهم على الزمن بقدر الإمكان.

وبعد انقضاء الحج بأركانه ومناسكه، وواجباته وسننه، يعود الحاج إلى بلده، بذنب مغفور، وسعي مشكور، وعمل مبرور، وتجارة لن تبور، وفي الحديث: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١). وفي الحديث الآخر: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢).

والحج المبرور هو الذي خلصت فيه النية لله، وكان ماله الذي حج به من حلال طيب، وسلم من الرفث والفسوق والجدال في الحج، وأدى الحاج فيه أعمال الحج على الوجه المشروع والمطلوب.

تحريم صيام أيام العيد:

ويحرم على المسلم أن يصوم أيام العيد التي هي يوم العيد وأيام التشريق، وهي أربعة أيام، لأنها أيام أكل وشرب واحتفال بهذه المناسبة الكريمة، وفي الحديث: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.
 (٢) متفق عليه: رواه البخاري في العمرة (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، عن أبي هريرة.
 (٣) رواه مسلم في الصيام (١١٤١)، وأحمد (٢٠٧٢٢)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٣)، عن نُبَيْشَةَ الهذلي.



الأعمال الشهرية للمسلم

أقصد بالأعمال الشهرية ما يتكرّر بحضور الشهر ويرتبط به، والشهر المقصود هو الشهر القمري، الذي ارتبطت به الأحكام، وربطت به العبادات والأعمال في الإسلام.

ويحضرني من هذه الأعمال اثنان، ليسا من الواجبات، ولكن من المستحبات.

دعاء رؤية الهلال وصيام الأيام البيض:

أولهما: دعاء رؤية الهلال غرة كل شهر قمري، وهو ما يستحب أن يقوله المسلم إذا رأى هلال أي شهر: «اللهم أهله علينا بالآمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربّي وربك الله»^(١).

وثانيهما: صيام الأيام البيض (١٣ و ١٤ و ١٥):

فقد صحّت الأحاديث باستحباب صيام ثلاث أيام من كل شهر، وهي التي تسمى الأيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر.

(١) رواه أحمد (١٣٩٧)، وقال مخرجه: حسن لشواهده. والترمذي في الدعوات (٣٤٥١)، وقال: حسن صحيح. والدارمي في الصوم (١٧٣٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨١٦)، عن طلحة بن عبيد الله.

قال ﷺ: «صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ صَوْمُ الدَّهْرِ وَإِفْطَارُهُ»^(١).

وقال: «صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ (أي رمضان) وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ»^(٢).

وقال: «صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ، وَهِيَ أَيَّامُ الْبَيْضِ: صَبِيحَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَأَرْبَعُ عَشْرَةَ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ»^(٣).

* * *

- (١) رواه مسلم في الصيام (١١٦٢)، وأحمد (٢٢٥٣٧)، عن أبي قتادة الأنصاري.
- (٢) رواه أحمد (٢٣٠٧٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٧٩٠)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ومعنى (وَحَرَ الصَّدْرِ): أي غلّه وغشّه ووساوسه.
- (٣) رواه النسائي في الصيام (٢٤٢٠)، وأبو يعلى (٧٥٠٤)، والطبراني في الكبير (٣٥٦/٢)، والأوسط (٧٥٥٠)، والصغير (٩١٣)، وصحح إسناده النسائي ابن حجر في فتح الباري (٢٢٦/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٤٩)، عن جرير بن عبد الله.



الأعمال الأسبوعية للمسلم

وهي الأعمال التي تتكرر كل أسبوع مرتبطة بأيام معينة منه، مثل أيام الاثنين والخميس والجمعة، وهي الأيام الثلاثة التي خُصَّت من بين الأيام السبعة، لما جاء في فضلها من أحاديث، وما انفردت به من عبادات وأعمال تطلب من المسلم على درجة الاستحباب أو الإيجاب.

صيام الاثنين والخميس:

كان ﷺ يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع.

ويكره تخصيص يوم الجمعة بالصيام وليلتها بالقيام.

ويحرم التطيُّر من بعض الأيام. كما قيل: في يوم الجمعة ساعة نحس!

يوم الجمعة:

هو أفضل أيام الأسبوع وأكرمها على الله، وهو العيد الأسبوعي للمسلمين، خصَّه الله تعالى بتلك الصلاة الجامعة، التي افترضها الإسلام على الرجال الأصحاء المقيمين، ودعاهم أن يسعوا إليها، ويجتمعوا عليها، وشرع فيها الخطبة تعليمًا وتذكيرًا، وسنَّ الاغتسال والتطيب، والتجمل لها، والتبكير في حضورها وحذر من تركها والإعراض عنها.

فإذا جاء يوم الجمعة سُنَّ للمسلم أن يغتسل، وإن لم يكن به جنابة، ولكن حرصاً على النظافة في الظاهر والباطن، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن غُسل الجمعة واجب، لظاهر الحديث: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(١). والمراد بالمحتلم: من بلغ الحُلْم.

وفي الحديث الآخر: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمٌ يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»^(٢). فإذا لم يفعل ذلك في سائر الأسبوع، فليفعله يوم الجمعة، ويبدأ غسل الجمعة من الفجر إلى صلاة الجمعة.

ولم يكلف الإسلام المرأة بها، إشفاقاً عليها وتيسيراً، ولو صلتها قبلت منها، بل هي مأجورة عليها، ولا سيما إذا كانت تسعى إليها لتعلم وتستفيد من الخطبة، إذا توافر لها خطيب معلّم، وهو الأصل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿[الجمعة: ٩، ١٠].

وتتميّز الجمعة بوجوب الخطبة قبلها، وهما خطبتان، تتضمن الخطبة الأولى موعظة مناسبة، تذكّر الناس بالله والدار الآخرة، وتغرس فيها معاني الإيمان وأخلاق القرآن، وتعلّمهم حقائق الإسلام، وتردّ على أباطيل خصومه، وتربط الأمة المسلمة بعضها ببعض، بحيث تتضامن في قضاياها، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدّ على من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، كلاهما في الجمعة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.



سواهم، وهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله. وتتضمن الخطبة الثانية الدعاء.

وبعد الخطبتين يصلي الإمام بالناس ركعتي الجمعة، وهما فريضة، ويصلي الناس بعد الجمعة في المسجد أو في البيت ركعتين أو أربعاً.

وفي الجمعة ساعة إجابة لا يعرف متى تكون بيقين، لا يدعو المسلم فيها بخير لنفسه ولمن يحب إلا استجاب الله له، وإنما أخفى الله وقتها، ولم يعلمه لنا بيقين لا شك فيه؛ لأننا إذا علمنا وقتها بدقة، اجتهدنا في الدعاء فيه، وأهملنا بقية الوقت، وهو يحب منا أن تظلّ قلوبنا وألسنتنا أبداً مشغولة بذكره ودعائه والابتغال إليه.

ويكره صيام يوم الجمعة، باعتباره عيداً أسبوعياً للمسلمين، كما يُكره أفراد يوم الجمعة بصيام، ويُكره أفراد ليلتها بالقيام.

ولكن لو صام يوم الخميس والجمعة معاً، فلا بأس، أو كان يصوم يوماً معيناً بمناسبة ما، مثل يوم عرفة أو عاشوراء، فوافق يوم الجمعة فلا كراهة، كما يكره أفراد يوم السبت بالصيام، فهو يوم اليهود.



الأعمال اليومية للمسلم

وهي الأعمال المطلوبة من المسلم في حياته اليومية العادية من أقوال وأفعال، وفرائض وسنن، وشعائر وآداب، وأدعية وأذكار.

وهي التي عني بالتأليف فيها أئمتنا من قديم، فألف فيها الحافظ النسائي كتابه: «أعمال اليوم والليلة»، وكذلك تلميذه ابن السنّي، ومثله الإمام النووي كتابه: «الأذكار»، وابن تيمية كتابه: «الكلم الطيب»، وابن القيم كتابه: «الوابل الصيب»، وابن الجزري في كتابه: «الحصن الحصين» الذي شرحه الشوكاني في كتابه: «تحفة الذاكرين».

ويلاحظ أنهم ركزوا على جانب الأدعية والأذكار، أكثر من تركيزهم على جانب الأعمال، ربما لأنّ العمل كان واضحاً بيّناً لدى أهل عصورهم، ولم يكونوا في حاجة إلى كثير تنبيه وتذكير.

والأعمال المطلوبة من المسلم في كل يوم كثيرة، بعضها من الفرائض أو الواجبات، وبعضها من السنن أو المستحبات.

الصلوات الخمس:

وأوّل وأعظم ما يطلب من المسلم كل يوم طلب إيجاب وإلزام، هو الصلوات الخمس، التي افترضهنّ الله على العباد في اليوم والليلة. يقول

تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وإقامة الصلاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، التي بني عليها الإسلام، وهي عمود الإسلام، والفيصل الفارق بين المؤمن والكافر. وفرضيتها من المعلوم من الدين بالضرورة، فقد أجمعت عليها الأمة علمًا وعملاً، وعرفها الخاص والعام، فمن أنكر وجوبها فقد كفر وخَرَجَ من الإسلام، ومن تركها كسلًا واشتغالا بالدنيا، فهو فاسقٌ عند جمهور المسلمين، وعند بعضهم كافر.

وقد كَرَّرَهَا الإسلام في اليوم الواحد خمس مرات، ليظلَّ المسلم موصولاً بربِّه، حتَّى لا يغرق في الدنيا وينسى ربه ومولاه.

والصلاة للروح بمثابة الغذاء للبدن، وهي حَمَامٌ رُوحِيٌّ يغتسل فيه المسلم من أدرانهِ كل يوم خمس مرات، كما صَوَّرَ ذلك الحديث النبوي الصحيح: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(١).

وهذه الصلوات هي:

١ - صلاة الفجر أو الصبح، حين ينكشف نقاب الليل عن وجه الفجر، وحتى تشرق الشمس.

٢ - وصلاة الظهر حين تزول الشمس عن كبد السماء وسط النهار.

(١) متَّفَقٌ عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، عن أبي هريرة.

٣ - وصلاة العصر حين يميل النهار إلى المغيب، ويصير ظل كل شيء مثله، وعند الحنفية حين يصير ظل كل شيء مثليه.

٤ - وصلاة المغرب حين يغيب قرص الشمس.

٥ - وصلاة العشاء حين يغيب الشفق، ويذهب جزء من الليل.

وبهذا يظل المسلم موصول العُرا برَبِّه، لا تدعه الصلاة يغرق في لجة الحياة ومشاغلها المادية، حتّى تنتزعه انتزاعاً من براثنها، ليقف بين يدي ربه لحظات تتصل فيها الأرض بالسماء، ويقترب فيها المخلوق الفاني بالخالق الباقي، الذي هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

وهذه الصلوات الخمس ليس لمسلم عذرٌ في تركها أو تأخيرها عن مواقيتها، ما دام عاقلاً واعياً.

حتى المريض المقعد لا يعفيه الشرع من الصلاة، ولا يجيز له أن يؤخرها عن وقتها المشروع، ولكن له أن يصلي كيف استطاع، وأن يتطهر بما يتيسر له من الصعيد الطيب.

فمن عجز عن الوضوء أو الاغتسال أو كان يضره ذلك تيمّم ولا حرج.

ومن لم يستطع أن يصلي قائماً، صلى قاعداً، ومن لم يستطع أن يصلي قاعداً، صلى مضطجعا على جنبه أو مستلقياً على ظهره مصلياً بالإيماء.

ومن أجريت له عملية جراحية فلا يسقط عنه من الصلوات إلا الوقت الذي كان فيه غائباً عن الوعي تحت تأثير التخدير، أو تحت غياب الوعي، أما ما كان واعياً له، فعليه الصلاة، وهو على السرير، إن استطاع توضأً، وإلا تيمّم، وصلى راقداً، ولو إلى غير جهة القبلة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

حتى حالة الجهاد والحرب لا تبيح للمسلم أن يدع الصلاة، بل الصلاة مدد له وقوة، حتّى إنه ليصلي في حالة المسايقة والتحام الصفوف واحتدام المعركة، راجلاً (أي ماشياً) أو راكباً.

يقول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]، أي: عند الخوف والحرب صلّوا رجلاً - أي مشاةً على أرجلكم - أو ركباناً على خيولكم، كما كان في الزمن الماضي، أو على مصفحاتكم ودباباتكم وطائراتكم وغوّاصاتكم اليوم.

وأكثر من ذلك نرى القرآن يأمرنا بإقامة الصلاة جماعةً في الحرب في غير حالة الالتحام، وخلف إمام واحد، حرصاً على وحدة الجماعة والقيادة.

وهذا يقتضي قسمة المقاتلين إلى طائفتين: واحدة في مواجهة العدو، والأخرى خلف الإمام، فإذا صلت هذه ركعة، ذهبت للمواجهة وجاءت الأخرى لتصلي وراء الإمام نفسه. وهكذا يتبادل الفريقان المواقع، ولا تُترك الصلاة ولا الجماعة، كما لا يترك العدو بدون مواجهة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

وقد شدّد القرآن على المتشاغلين عن الصلاة حتّى يفوت وقتها وتوعّدهم بالويل، وهو الهلاك والعذاب حين قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

قال سعد بن أبي وقاص: سألتُ رسول الله ﷺ عن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «هم الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصلاةَ عن وقتها»^(١).

والصلاة المطلوبة من المسلم كل يوم ينبغي أن يتوفر فيها شرطان:
أولهما: الخشوع.

وثانيهما: المحافظة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿[المؤمنون: ١، ٢] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، فالأول: يعني الاهتمام بباطن الصلاة ورُوحها وهو الخشوع، وأساس الخشوع: خشوع القلب، وليس كخشوع النفاق، وهو: أن يُرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

والمحافظة تعني الاهتمام بأوقاتها وأركانها وشروطها، بحيث لا يخرم شيئاً منها أو يخلُ به.

مثل شرط الطهارة، ففي الصحيح: «لا يقبل الله صلاةً بغير طهور، ولا صدقةً من غُلُول»^(٢).

والطهور يعني: الطهارة الحسية، وهي طهارة بدن المصلي وثوبه ومكانِ صلاته، والطهارة الحكمية من الحدث الأصغر بالوضوء، ومن الحدث الأكبر بالغسل، وعند فقد الماء شرع الله التيمم بالصعيد.

ولا يجوز التهاون في هذه الأمور، ففي الصحيحين: أَنَّ مسلماً عُدَّ في قبره؛ لأنه كان لا يستنزه من بوله^(٣).

(١) رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٤٢).

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وأحمد (٤٧٠٠)، والترمذي في الطهارة (١)، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٦١)، ومسلم في الطهارة (٢٩٢)، عن ابن عباس.

ولكن لا تجوز المبالغة في الطهارة إلى حد الوسوسة، كما نرى بعض المرضى يغفلون في الطهارة إلى حد يشبه الجنون^(١).

السنن الراقية للصلاة:

ويسنُّ للمسلم أن يحافظ بعد الصلاة على التطوع بالنافلة، ولا سيما السنن التي تعرف بـ «الراقية»، وهي المرتبطة بالفريضة، والتي حافظ الرسول عليها باستمرار، وحثَّ عليها الصحابة، كما قال ابن عمر: حفظت عن رسول الله ﷺ عشر ركعات: ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين قبل صلاة الصبح، وركعتين بعد العشاء^(٢).

وزادت أم حبيبة أم المؤمنين ركعتين على ذلك، فقالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ما من عبدٍ مسلمٍ يصليُّ لله تعالى كلَّ يومٍ ثنتي عشرة ركعةً تطوعاً غير فريضة، إلا بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٣). وفي رواية: «أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة»^(٤) يعني: الصبح.

ومهمة هذه السنن:

١ - أنها رصيد للمسلم، فإذا حدث خلل في صلوات الفريضة، يجبر من صلاة التطوع عنده.

(١) انظر كتابنا: فقه الطهارة ص ٣٠٧ - ٣١٩، حديثنا عن هذه الوسوسة وأهلها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) رواه البخاري في التهجد (١١٨٠).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٢٨)، وأحمد (٢٦٧٧٥).

(٤) رواه الترمذي في الصلاة (٤١٥)، وقال: حسن صحيح.

٢ - ثم إذا كثرت سيئاته، تقابل بهذه الحسنات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [هود: ١١٤].

٣ - ثم إن هذه النوافل تنقله من منزلة «القرب» إلى منزلة «الحُب»، كما في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّهُ»^(١).

قيام الليل:

وممَّا هو مستحبٌّ للمسلم: صلاة الليل، وهي ليست مفروضة إلا على الرسول وحده، ولكنها سند عظيم للمسلم من الله ﷻ.

قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٤ - ٦٦].

وقال في وصف المتقين المحسنين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وعن عبد الله بن سلام قال: أوَّل ما قدم رسول الله المدينة، انجفل النَّاسُ إليه، فكنْتُ فيمن جاءه، فلما ثبت وجهه واستبنته، عرفت أنه ليس بوجه كذاب. قال: فكان أول ما سمعتُ من كلامه أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَام، تدخلوا الجنةَ بِسلامٍ»^(٢).

(١) رواه البخاري في الرقائق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)،

وعن عائشة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ! قالت: فقلتُ له: لَمْ تَصْنَعْ هَذَا، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قال: «أَفَلَا أَحَبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(١).

صلاة الضُّحَى:

ومن المستحبَّات للمسلم: أَنْ يُصَلِّيَ صلاة الضُّحَى، وفيه عدَّة أحاديث، منها: ما رواه أبو هُرَيْرَةَ: أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وركعتي الضُّحَى، وأن أوتر قبل أن أرقد^(٢). وتتأكَّد صلاة الضُّحَى لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حُظٌّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ.

أذكار وتسابيح مستحبة كل يوم وليلة:

ومما يندب للمسلم الاهتمام به في يومه وليلته: الأذكار والتَّسَابيح والدعوات الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

دعاء النوم والاستيقاظ:

ومن ذلك: الأدعية الَّتِي تُقَالُ فِي مناسباتها كلَّ يوم وليلة، مثل دعاء النوم إذا ذهب المسلم لينام، فقد كان النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، جَمَعَ كَفِيهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا

وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٤)، والحاكم في الهجرة (١٣/٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن سلام.

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠)، عن عائشة.

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في التهجد (١١٧٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٢١)، عن

أبي هريرة.

ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(١).

وفي حديث آخر يقول: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(٢).

فإذا استيقظ أحدكم فليقل: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»^(٣).

ومثله دعاء الاستيقاظ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(٤).

ودعاء الخروج من البيت ودخوله:

ومن الأدعية اليومية: دعاء الخروج من البيت والدخول إليه: وفي الحديث: «مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَيُقَالُ: كُفِّتَ وَوُقِّيتَ وَهُدِيتَ. وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ هُدِيَ وَكُفِّي وَوُقِيَ؟!»^(٥).

قالت أم سلمة: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتٍ قط إلا رفع طرفه إلى

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٧)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٠)، ومسلم في الذكر (٢٧١٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٠١)، وحسنه، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٠٧)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

(٥) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٦)، وقال: حسن غريب. وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (٥٩): حسن صحيح. عن أنس بن مالك.

السَّمَاء، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أَظْلَمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(١).

الدعاء عند دخول المسجد والخروج منه:

كان رسول الله ﷺ يقول إذا دخل المسجد: «باسم الله، اللهم صل على محمد». وإذا خرج قال: باسم الله، اللهم صل على محمد^(٢).

وفي حديث آخر يقول عند الدخول بعد السلام على النبي ﷺ: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»^(٣).

دعاء الركوب:

ومنها: دعاء ركوب الدابة أو السيارة: «الله أكبر - ثلاث مرات - سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون»^(٤).

دعاء بداية الأكل:

قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله، فإن نسي أن يذكر الله تعالى في أوله، فليقل: باسم الله أوله وآخره»^(٥).

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٧)، وقال: حسن صحيح.

والنسائي في الاستعاذة (٥٤٨٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٤)، عن أم سلمة.

(٢) رواه ابن السني في عمل اليوم الليلة (٨٨)، والألباني في الثمر المستطاب (٦٠٤/٢): هذا سند حسن أو محتمل للتحسين. عن أنس بن مالك.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧١٣)، وأحمد (٢٣٦٠٧)، وأبو داود في الصلاة (٤٦٥)، عن أبي أسيد الأنصاري.

(٤) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، وأحمد (٦٣١١)، عن ابن عمر.

(٥) رواه أحمد (٢٥١٠٦)، وقال مخرجه: حسن بشواهده. وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٢٦٤)، وابن حبان (٥٢١٤)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح. جميعهم في الأطعمة، عن عائشة.

دعاء الفراغ من الأكل:

وإذا فرغ من طعامه قال: «الحمدُ لله الَّذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مِنِّي ولا قوَّة»^(١). وفي حديث آخر: «اللهم أطعمت وأسقيت وأقنيت وهديت وأحييت، فلك الحمدُ على ما أعطيت»^(٢). «الحمدُ لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفيٍّ، ولا مودَّعٍ، ولا مستغنى عنه ربَّنَا»^(٣).

دعاء شرب الماء:

«الحمدُ لله الَّذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا»^(٤).

دعاء الضيف لمن أكل عنده:

«أفطرَ عندكم الصائمون، وأكلَ طعامكم الأبرار، وصَلَّت عليكم الملائكة»^(٥).

(١) رواه أحمد (١٥٦٣٢)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٨)، وقال: حسن غريب. وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (١٢٣/١)، عن معاذ بن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٦٥٩٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٧١)، عن رجل خدَم النبي ﷺ.

(٣) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨)، عن أبي أمامة.

(٤) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٨)، والبيهقي في الشعب (٤٤٧٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢)، عن أبي جعفر مرسلاً.

(٥) رواه أحمد (١٢١٧٧)، وقال مخرجه: حديث صحيح. أبو داود في الأطعمة (٣٨٤٥)، والنسائي في الكبرى في الأشربة المحظورة (٦٨٧٤)، عن أنس بن مالك.

أعمال القلوب:

ومن الأعمال المطلوبة من المسلم على الدوام: الأعمال الباطنة، التي يطلق عليها «أعمال القلوب» في مقابلة «أعمال الجوارح».

وأعمال القلوب هي أساس الدين وجوهره، وبدونها لا يُقبل أي عمل ظاهر، حتّى الإسلام الظاهر وأركانه الخمس، لا يقبل إلا إذا كان وراءه إيمانٌ قلبيّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

والتّقوى التي هي جماع كل خير، وسبب الفلاح في الدنيا والآخرة، أساسها: القلوب، ولذا أضافها القرآن إلى القلوب، فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، والرسول ﷺ كان يقول: «التّقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره، ثلاث مرات^(١).

والقرآن جعل أساس النجاة والفلاح في الآخرة: القلب السليم أو القلب المنيب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقال في أهل الجنة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢).

وقال: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٩٦.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٦، وفيه: «التّقوى هاهنا».

(٣) جزء من الحديث السابق.

وكل عمل ظاهر لا يقبله الله إلا بعمل باطن، هو النية التي يُبتغي بها وجه الله تعالى: كما في الحديث الصحيح الذي بدأ به الإمام البخاري جامعته الصحيح: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وكل أعمال القلوب أعمال دائمة مطلوبة - غالبًا - طلب وجوب، مثل الإخلاص لله، والخشية من الله، والرجاء في رحمة الله، والتوكل على الله، والشكر على نعمة الله، والصبر على ابتلاء الله، والحياء من الله، والأدب مع الله، والصدق مع الله، والحب في الله، والبغض في الله، وإيثار الآخرة على الدنيا.. إلى غيرها من مقامات الدين، ومنازل السَّائرين إلى الله، فكلها من أعمال القلوب، والذرة منها - كما يقول الإمام الغزالي - تساوي الجبال من أعمال الجوارح^(٢). اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]، تجدهم وصفوا بفضائل وخصال كلها من أعمال القلوب.

الحذر من معاصي القلوب:

كما يجب على المسلم الحذر كل الحذر من معاصي القلوب، فهي التي تأكل حسنات الجوارح، كما تأكل النار الحطب، من الكبر والعجب

(١) رواه الجماعة: البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، كما رواه أحمد

(١٦٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة

(٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٨٨/٤).

والغرور والحسد والبغضاء، والغضب، واتباع الهوى، وحُب الدنيا، وحُب المال والجاه والرياسة، ونحوها، فهذه أشد خطراً، وأبعد أثراً على المؤمن من الزنى وشرب الخمر.

كما في الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر»^(١).

«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٢).
«إياكم والشُّحَّ، فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم، أمرهم بالظُّلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقد عرض علينا القرآن في قصة آدم وإبليس: نوعين من المعصية: أولهما: معصية آدم بالأكل من الشجرة، وهي معصية ظاهرة، أسرع وتاب منها، وقُبلت توبته: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَقَّيْءَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال في سياق آخر: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١، ١٢٢﴾. فهذه معصية من معاصي الجوارح.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه البزار (٧٢٩٣)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أحمد (٦٤٨٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥١٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٩)، عن عبد الله بن عمرو.

وثانيهما: معصية إبليس حين عصى أمر ربّه، وتمرد عليه، كفرًا واستكبارًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. ولما خُوطب في عدم سجوده، قال بكل تبجح وصفاقة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

الحذر من معاصي الجوارح:

وليس معنى خطورة معاصي القلوب: الاستهانة بمعاصي الجوارح، كلا. فإنها البوابة المؤدية إلى جهنم: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ولا سيما الكبائر، كالسبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات، والتولي يوم الزحف^(١).

ومثلها: الزنى، وشرب الخمر، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقطع الرحم، وقطع الطريق، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وغيرها، بل الصغائر إذا أصرَّ عليها تكبر وتعاظم، ولذا قالوا: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار.

الواجبات الاجتماعية:

وهناك من المطلوبات اليومية للمسلم: الواجبات الاجتماعية المفروضة على كل مسلم، مثل: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وحسن معاشررة الزوجة،

(١) سبق تخريجه ص ٨٦.

ورعاية الأولاد، والإحسان إلى الأيتام، وتفريج كربة المكروبين، والرفق بالخدم والضعفاء بصفة عامة، بما يتيسر له من إمكانيات وأدوات.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وهذه الآية يسميها العلماء آية الحقوق العشرة.

ومن الناس من يُعنى بأداء الصلوات وختامها، والاهتمام بالعبادات الشعائرية، ولكنه - للأسف الشديد - عاقٌّ لوالديه، أو قاطع لإخوانه وأعمامه وأخواله، أو عمّاته وخالاته، أو أولادهم، أو مؤذٍ لجيرانه، أو مسيء العشرة مع زوجه، أو شديد القسوة على خدمه، أو غليظ القلب على اليتامى والمساكين من حوله، أو شديد الأنانية فكل ما يهّمه نفسه، وإن هلك المجتمع الذي يعايش، مُغفلًا قوله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم»^(١).

وقال: «لا يدخل الجنة إلا رحيم» قالوا: كلُّنا رحيمٌ يا رسول الله! قال: «أما إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»^(٢).

(١) رواه الطبراني (٢٥٩/١)، والبزار (٧٤٢٩)، وحسّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وابن حجر في القول المسدّد (٢١/١)، عن أنس بن مالك.

(٢) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٠٩) للطبراني وقال: رواه رواة الصحيح. وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٧١). ورواه النسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٨)، والحاكم في البر والصلة (١٦٧/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا». عن أبي موسى الأشعري.

وقال: «الراحمون يرحمهم الرَّحْمَنُ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ - ٧]، فهذه السورة تؤكد حقوق اليتامى والمساكين والجيران، وتوعد بالويل والعذاب من قصّروا فيها، وإن أدّوا بعض العبادات رياء.

وهناك حقوق للمسلمين عامة: أدناها: أن يسلموا من لسانه ويده، وأن يأمنوه على دمائهم وأموالهم، كما في الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أَمَنَهُ النَّاسُ على دمائهم وأموالهم»^(٢).

ثم أن يرعى حقوقهم العامة، كما في الحديث الصحيح: «حقُّ المسلم على المسلم سِتٌّ» قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس، فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتّبعه»^(٣). أي: امش في جنازته وصل عليه.

١ - وأكدت ذلك سورة الحجرات بالآيات الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَا يَسْخَرَرُ

(١) سبق تخريجه ص ٨٢.

(٢) رواه أحمد (٨٩٣١)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في أبواب الإيمان (٢٦٢٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الإيمان (٤٩٩٥)، وابن حبان في فرض الإيمان (١٨٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي. وصححه الألباني في الجامع الصغير (٦٧١٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٤٥)، عن أبي هريرة.

قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ [الحجرات: ١٠ - ١٢].

عمل الخير اليومي المطلوب من المسلم:

وقد علّمنا رسول الله ﷺ: أَنَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، يُؤَدِّيَهَا الْمُسْلِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَسَاهِمُ فِيهَا فِي بَذْلِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ لِلْمَجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ.

وهذه الصدقة المفروضة، ليست مقصورةً على المال، فيختص بها الأغنياء، ولا على العلم، فيختص بها العلماء، ولا على ذوي المكانة في المجتمع، فيختص بها الوجهاء، ولكنها صدقة ثابتة عامة، يقدمها كل امرئ ممّا عنده، وعلى ما يليق بحاله.

العمل المعيشي للمسلم:

ومن الأعمال اليومية المطلوبة من المسلم: العمل المعيشي اللازم لحياة المرء المسلم، فكلُّ مسلم مطالب بأن يكون له عمل يتعيش منه، ويطلب رزقه منه، فإن الله لم يخلق البشر أجسادًا لا تطلب الغذاء كالملائكة، بل خلقها طالبة للغذاء في كل يوم: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]. حتّى رسل الله يحتاجون إلى ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقد جعل الله معاش الخلق في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ [الأعراف: ١٠]. وقدر فيها ما يقتاتون به: ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، لكن سنّته تعالى ألا يُنال ما في الأرض من معاش وبركات وأقوات إلا بالسعي والعمل، لذلك أمرهم أن يمشوا في مناكبها، ويأكلوا من رزقه، زارعين وصانعين وتجارًا وعاملين وأطباء ومهندسين، ومحترفين بمختلف الحرف، والإنسان مدني بطبعه، ولا يعيش إلا بالتعاون مع غيره.

فعلى المسلم أن يختار العمل المناسب له ما أمكنه ذلك، وأن يؤدّي حقّ الله فيه بإتقانه وإحكامه، ولا يجوز على حقّ غيره، وألا يشغله عن حقّ ربه عليه، كالذين مدحهم الله بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا نُلْحِمْهُمْ تِجْرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

وليحذر العمل المحرّم، أو الذي يدخل فيه الحرام حتّى لا يُطعم نفسه وأهله من حرام، فكل جسد نبت من حرام فالنار أولى به.

وليحذر المسلم أن تستولي الدنيا ومتاعها على قلبه، وينسى أمر الآخرة، فلا يهتم ما دخل في بطنه أو في بيته أو في خزانته، إن كان من حرام أو من حلال، كالذين يأكلون الربا أو يغشّون في التجارة، أو يقدمون الرّشا، ولو في صورة هدايا وعمولات، لتكون لهم الفرصة في الفوز بالصفقة دون غيرهم، والذين يعيشون على اللهو المحرّم، إلى غير ذلك، ممّا جاء فيه الحديث الصحيح: «يأتي على الناس زمانٌ لا يبالي المرءُ ما أخذ منه: أمن الحلال أم من الحرام؟»^(١).

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥٩)، عن أبي هريرة.

فليحرص كل مسلم على ألا يدخل جوفه لقمة من حرام، أو يدخل جيبه أو خزانته أو حسابه في البنك درهم من حرام، فإنه وبال عليه في الدنيا، وسبيل إلى عذابه في الآخرة، و«لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن علمه ماذا عمل به؟ وعن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟»^(١).

* * *

(١) رواه البزار (٢٦٤٠)، والطبراني (٦٠/٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٤٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٧٣): رجال الطبراني رجال الصحيح غير صامت بن معاذ، وعدي بن عدي الكندي، وهما ثقتان. عن معاذ بن جبل.



جدول يومي للمحاسبة

كان بعض المُربِّين من علماء الدعوة^(١)، ممَّن رزقهم الله بصيرة في علم السلوك، ينصح إخوانه وأبناءه بعمل جدول يومي، يضعه الأخ المسلم لنفسه، ويسأل فيه نفسه عن أعمال يومه: هل أداها كما يحبُّ الله تعالى ويرضى، أو أداها مبتورة، أو فيها شيء من الخلل، في الأداء أو في النية، أو لم يؤدّها قط، ويعطي نفسه درجة هو الذي يقدرها، ولا أحد غيره، كما أن النتيجة لا يطلع عليها أحد غيره، إلا إن شاء. ويضم مجموع درجاته بعضها إلى بعض، ليعرف التقدير العام: أهو ممتاز، أم جيّد جدًّا، أم جيّد أم مقبول، وهو أدنى درجات النجاح، أم هو راسب في التقدير النهائي لليوم؟

فإن كانت النتيجة سارّة له أو مرضيّة، حمد الله تعالى عليها، وشجّعته ذلك ليمضي في نفس الطريق، بل يجتهد في أن يكون أبدًا يومه خيرًا من أمسّه، وغده خيرًا من يومه، كما قال بعض السلف: من كان يومه مثل أمسّه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًّا من أمسّه فهو ملعون! على معنى أن من كان يومه مثل أمسّه لا يتقدم إلى الأمام خطوة، ولا يزداد في الخير مثقال ذرة، فهو مغبون لما فاتته من الخيرات التي كان يمكن أن يستبق

(١) هو الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

إليها، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].
ويخشى على هذا المغبون النقصان في أي لحظة، فهو مهَّد به.

وأما من كان يومه شرًا من أمسه، فهو ينحدر من درجة إلى ما هو أدنى منها، ولو استمرَّ على ذلك يخشى أن ينتهي به الانحدار المتكرر إلى الخسران المبين.

أما المطلوب والمحمود دائمًا، فهو دوام الترقِّي من رديء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأحسن.

وإن كان التقدير النهائي غير سارٍّ ولا مُرضٍ لصاحب الجدول، فعليه أن يتدارك تقصيره، فإن كان راسبًا، فعليه أن يبحث عن المواد التي سببت رسوبه، وإن كان نحج بمقبول أو جيد، وهو يطمح إلى درجة أعلى، فعليه أن يشمِّر عن ساعده، ويجتهد في تحصيل الخير، واجتناب الشر، ولكلٍّ مجتهد نصيب، ومن سار على الدرب وصل، ولا يضيع الله أجر من أحسن عملاً، ولو كان مثقال ذرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وقد علَّمنَا القرآن والسنة أن نشد الأفضل دائماً ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ولا نرضى بالدون، وفي الحديث الصحيح: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١).

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

نموذج من جدول محاسبة يومي

الأعمال اليومية	الدرجة النهائية	الدرجة المستحقة
هل أدّيت صلاة الصبح قبل أن تطلع الشمس؟		
هل أدّيت صلاة الصبح في جماعة؟		
هل حرصت على أن توقظ أهلك وأولادك ليصلوا معك؟		
هل تلوت شيئاً من الأدعية المأثورة في الصباح؟		
هل أدّيت بقية الصلوات في وقتها؟		
هل أدّيتها في خشوع وحضور قلب؟		
هل أدّيت بعضها جماعة في المسجد؟		
هل قرأت وردك اليومي من القرآن الكريم؟		
هل قرأت شيئاً يزيد في ثقافتك الإسلامية؟		
هل أضفت شيئاً إلى ثقافتك العامة النافعة؟		
هل أمرت أحداً بمعروف أو نهيت عن منكر؟		
هل عاونت في عمل خيري إسلامي أو إنساني تبتغي به مرضاة الله؟		
هل بررت أحد والديك أو وصلت أحد أرحامك؟		
هل زرت أخاً لك في الله، أو سألت عنه ولو بالهاتف؟		
هل قدّمت مساعدة مادية أو معنوية لمن يحتاجها لوجه الله؟		
هل أحسست بالتقصير فاستغفرت الله تعالى؟		
هل أدّيت عملك المعيشي اليومي بأمانه وإتقان بما يرضي الله تعالى؟		



الأعمال اليومية	الدرجة النهائية	الدرجة المستحقة
هل اجتنبت الكذب والغيبة والنميمة وآفات اللسان؟		
هل غضضت بصرک عن النظر إلى ما حرّم الله؟		
هل جنبت أذنك الاستماع إلى الأغاني الخليعة أو إلى الغيبة وغيرها؟		
هل علّمت جاهلاً، أو أخذت بيد يتيم أو أرملة أو مسكين، أو ساهمت في قضاء حاجته؟		
هل دعوت إلى الله وإلى تعاليم دينه ولو بكلمة طيبة؟		
هل أمطت أذى عن طريق أو عن أي موضع أو تبسّمت في وجه أخيك؟		
هل أمرت أهلك أو أقاربك أو جيرانك بالصلاة واصطبرت عليهم؟		
هل وقّيت أولادك النار بتأديبهم وتعليمهم شيئاً من الدين والأدب؟		
هل أغثت ملهوفاً، أو شاركت في تفريج كربة مكروب مادياً أو معنوياً؟		
هل اهتممت بأمر المسلمين، وحملت همومهم، وشاركت في قضاياهم وفي طليعتها قضية فلسطين؟		
هل قمت بعمل صالح خارج عن المعتاد، تحمد الله أنه وفقك إليه؟		
هل شعرت بأن أعداء الإسلام من الصهاينة والصليبيين يكيدون له، وأننا مطالبون بالدفاع عنه، فهل شاركت في ذلك بشيء؟		
هل دعوت لأمة الإسلام بالعز والنصر ووحدة الكلمة؟		

هذا نموذج من جدول يومي يصلح لبعض الناس، ولا يصلح لبعض،
ففيه أسئلة وضعت للمتزوج، لا للعزب، ولصاحب الأولاد لا لغيره،
وللرجل لا للمرأة.

والأولى أن يهتدي الإنسان بهذا الجدول، ويضع لنفسه هو جدولاً
يناسبه على غرارِهِ، ويضع لنفسه ما يستحق من درجات على مسؤوليته،
فيما بينه وبين الله تعالى، ليعلم أيتقدم أم يتأخر.

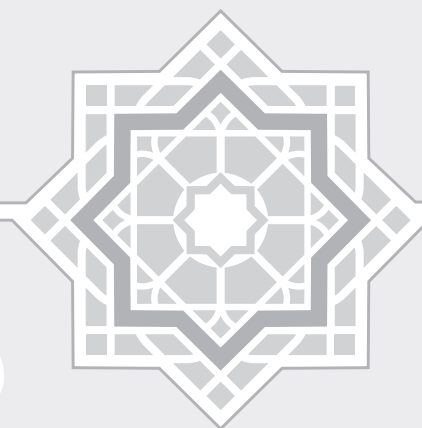
فإن كان يتقدم حمد الله تعالى، وإن كان غير ذلك، استغفر الله ﷻ،
واجتهد أن يتدارك، فإنَّ باب الله مفتوح لا يغلق في وجه أحد، وقد قال
تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر عن النبي ﷺ فيما رواه عن
ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي، إنكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ
الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفرُ لكم»^(١).

* * *

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ

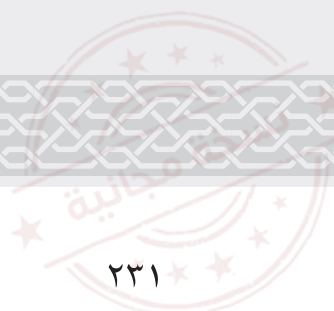


الفصل الرابع

البواعث على المراقبة والمحاسبة



- (١) استحضار أسماء الله الملائمة.
- (٢) استحضار الحساب وأهواله.
- (٣) الاعتبار بسير أهل المراقبة والمحاسبة.
- (٤) تذكُّر نِعَم الله والعمل على شكرها.







لكلّ مقام من مقامات الدين، وكلّ منزلة من منازل السَّائرين إلى ربّ العالمين: عوائق وعقبات، تُعطل سير القلب إليه، وتضع العثرات في طريقه، من قِبَلِ النَّفْسِ الأَمَّارة بالسوء، ومن نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ عدوِّ الإنسان، ومن زخارف الدنيا، ومن قَطَّاعِ الطَّرِيقِ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ يضلونك عن سبيل الله.

وبجوار هذه العوائق، اقتضى عدلُ الله تعالى: أن يجعل هناك مضادَّات ومقاومات لهذه القواطع، من نفس الإنسان ومن خارجها، ومن هدي الله تعالى، وهدي رسوله ﷺ، ومن سير الصالحين من عباده.

وهُمَّنَا هنا: أن نلقي شعاعاً على أهم هذه البواعث الَّتِي تُحَرِّكُ العزائم، وتبعث الهمم، وتُثِيرُ الْأَشْوَاقَ إلى هذه المنزلة السامية، مراقبة الله، ومحاسبة النفس.





استحضار أسماء الله الملائمة

أَوَّلُ هذه البواعث الموقظة للعقول، الْمُحَرِّكَة لِإِرَادَاتِ، المحيية للأنفس: الاعتصام بالله تعالى، ومدُّ أكف الضراعة إليه، والاستمساك بعروته الوثقى، لا انفصام لها، باستحضار معاني أسماء الله الحسنى، الَّتِي يتعبد المؤمنون بذكرها، والدعاء بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والمراد بالأسماء الحسنى في مقامنا هذا: الأسماء الَّتِي لها صلة بمنزلة المراقبة والمحاسبة، وتوجيه العقل والقلب والإرادة إليها.

أسماء الرقيب والحفيظ والعليم والسميع والبصير:

قال ابن القيم رحمته الله: «المراقبة هي التعبد باسمه الرقيب، والحفيظ، والعليم، والسميع، والبصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها، حصلت له المراقبة، والله أعلم»^(١).

والمراد: استحضار معاني هذه الأسماء، بحيث تستولي على الفكر، وتسيطر على النزوع والإرادة والرغبة والرغبة.

(١) مدارج السالكين (٦٦/٢).

التعبد باسم الله الرقيب:

الله سبحانه رقيبٌ على كلِّ شيءٍ، يرقبه ويلحظه، ويطلع عليه، ولا يغيب عنه منه شيء، ومن كان يعمل لدى شخص، وكان يراقبه في عمله ويشهده، فإنَّه يجتهد أن يُحسنه ويُتقنه، ولا يدع فيه نقصًا يمكنه تلافيه، والله هو ربُّ الجميع وخالقهم وسيدهم، ومالك أمرهم، فإذا راقب المكلف في عمله، فما أجدره أن يكمله، ويحسنه غاية الإحسان الممكن له، كما قال عليه السلام حين سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١). وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقد أكَّد سبحانه رقابته على خلقه، وإطلاعه على جميع أحوالهم بأوثق المؤكِّدات. فقد أكَّد سبحانه الجملة الكريمة بـ (إن)، وبالتعبير بـ (كان) الدالة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية التي يدل عليها لفظ (عليكم) إذ هو يفيد معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وبالإتيان بصيغة المبالغة وهي قوله: (رقيبًا) أي: شديد المراقبة لجميع أقوالكم وأعمالكم، فهو يراها ويعلمها.

قال الإمام الغزالي في «المقصد الأسنى» في شرح أثر اسم الله «الرقيب»: «وصف المراقبة للعبد، إنَّما يحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه، وذلك بأن يعلم أن الله تعالى رقيه وشاهده في كل حال، ويعلم أن نفسه عدو له، وأن الشيطان عدوُّ له، وأنهما ينتهزان منه الفرص، حتَّى يحمالانه على الغفلة والمخالفة، فيأخذ منهما حذره بأن يلاحظ مكانهما

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

وتلبسهما ومواضع انبعاثهما حتى يسدّ عليهما المنافذ والمجاري فهذه مراقبته»^(١).

قال الثعالبي في تفسيره «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»: «وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: ضَرْبٌ مِنَ الْوَعِيدِ.

قال المحاسبِيُّ: سألتُ أبا جعفرٍ محمد بن موسى، فقلت: أجمل حالات العارفين ما هي؟ فقال: إِنَّ الْحَالِ الَّتِي تَجْمَعُ لَكَ الْحَالَاتِ الْمَحْمُودَةِ كُلِّهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْمَرَاقَبَةُ، فَأَلْزِمْ نَفْسَكَ، وَقَلْبَكَ دَوَامَ الْعِلْمِ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ فِي حَرَكَتِكَ وَسُكُونِكَ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِكَ، فَإِنَّكَ بَعِينَ اللَّهِ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ تَقَلُّبَاتِكَ، وَإِنَّكَ فِي قَبْضَتِهِ حَيْثُ كُنْتَ، وَإِنَّ عَيْنَ اللَّهِ عَلَى قَلْبِكَ، وَنَاطِرٌ إِلَى سِرِّكَ وَعِلَانِيَتِكَ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ، يَا فَتَى، بَحْرٌ لَيْسَ لَهُ شَطْطٌ، بَحْرٌ تَجْرِي مِنْهُ السَّوَاقِي وَالْأَنْهَارُ، وَتَسِيرُ فِيهِ السُّفُنُ إِلَى مَعَادِنِ الْغَنِيمَةِ. انتهى من كتاب «القصْدُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ»^(٢).

التعبد باسم الله الحفيظ:

وكذلك اسم «الحفيظ»، الَّذِي يَحْفَظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وله سبحانه حفظٌ عامٌّ لكلِّ شيءٍ في الكون، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [سبأ: ٢١]، وله وَجَلٌ حفظٌ خاصٌّ، يحفظ به من حفظ

(١) المقصد الأسنى ص ١١٨، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر الجفان والجابي - قبرص، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١٦١/٢)، تحقيق محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

دينه، وحفظ حدوده، كما في حديث ابن عباس عند الترمذي: «أَحْفَظُ اللَّهَ بِحِفْظِكَ»^(١).

كما أَنَّ مَعِيَّتَهُ تَعَالَى، مِنْهَا مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ لِكُلِّ الْخَلْقِ، وَمَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٦٣]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

التعبد باسم الله العليم:

وكذلك اسم «العليم»، فمعناه: الذي يحيط بكل شيء علمًا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، فهو يعلم ما تكنه السرائر، وما تنضوي عليه الضمائر، وما يخفيه الإنسان في صدره عن أقرب الناس إليه.

يقول تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. فهو ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وأحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي.

قال الثعالبي في تفسيره: «الجواهر الحسان»: «وفي قوله سبحانه: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير وتنبية.

وهذه الآية عظيمة الموقع لأهل المراقبة، تثير من قلوبهم أسراراً، ويغترفون من بحر فيضها أنواراً»^(١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].
﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

التعبد باسمي الله تعالى: السميع البصير:

ومن الأسماء التي يتعبدنا بها هنا - أعني في باب «المراقبة» -: اسم «السميع»، الذي يسمع ما خفي من الأصوات التي لا تسمعها آذان البشر.

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسرّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]. وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»^(٢).

(١) الجواهر الحسان (٣/٢٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٣٧).

ولما قال المشركون بعضهم لبعض: لا ترفعوا أصواتكم إذا تلاقيتم، وأسروا قولكم حتى لا يسمعكم إله محمد فيكشف سركم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ [الملك: ١٣، ١٤].

ومثل اسم «السميع»: اسم «البصير»، فهما كثيرًا ما يذكران مقترنين، كما يقترن السمع بالبصر، والأسماع بالأبصار في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ^(١) [العلق: ١٤].

وقد وصف القرآن الأصنام بأنها لا تسمع ولا تبصر، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وقال في شأنهم: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَابَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

قال الطيبي: «وحظَّ العبد منهما - أي: من اسمي السميع البصير -: أن يتحقق أنه بمسمع من الله ومرأى منه، فلا يستهين باطلاع الله عليه ونظره إليه، ويراقب مجامع أحواله من مقاله وأفعاله.

قال الشيخ أبو القاسم القشيري: من عرف من عباده أنه السميع البصير فمن آدابه: دوام المراقبة، ومطالعة النفس بدقيق المحاسبة» ^(٢).

(١) قال القشيري: والتخويف برؤية الله تنبيه على المراقبة، ومن لم يبلغ حال المراقبة لم يرتق منه إلى حال المشاهدة. انظر: لطائف الإشارات للقشيري (٧٤٨/٣)، تحقيق إبراهيم البسيوني، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٧٨٧/٦).

أسماء أخرى: الحسيب والقريب والشهيد والخبير:

وقد ذكر ابن القيم هنا التعبد بهذه الأسماء الخمسة: وهي: «القريب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير»، ولا ريب أن هذه الأسماء لها دلالتها، ولها أثرها، في توجيه الإرادة إلى المراقبة، وأرى إضافة أسماء أخرى إلى الخمسة التي ذكرها ابن القيم، وهي: الحسيب، والقريب، والشهيد، والخبير:

فالله تعالى على كل شيء حسيب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، وقال عجل: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهو أيضًا «قريب» من عباده، كما قال تعالى على لسان نبي الله صالح: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، بل هو أقرب إليهم ممّن حولهم، بل من أنفسهم، كما قال تعالى في شأن المحتضر: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي: الروح ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ ﴿ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وما أحسن ما قال المفكر الأديب الشهيد سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية: «.. وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله، تمهيدًا ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده!

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.. الوريد الذي يجري فيه دمه. وهو تعبير يمثل ويصوّر القبضة المالكة، والمراقبة المباشرة. وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بدّ يرتعش ويحاسب. لو استحضّر القلب مدلول

هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها. بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول. وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة»^(١).

وقال **عَلَّك**: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

وهو سبحانه مع عباده أينما كانوا، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وسئل الإمام المَحَاسبي عن المراقبة، فقال: «أولها: علم العبد بقرب الرب **عَلَّك**»^(٢).

وأما اسم «الشهيد» فلأنه يشهد كل شيء، ويشهد على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي موضع آخر قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وفي مقام آخر قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

(١) في ظلال القرآن (٣٣٦٢/٦)، نشر دار الشروق، بيروت، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٨.



وأما اسم «الخبير»، فلخبرته سبحانه بأعمال العباد، ظاهرها وباطنها، كما في كثير من آيات القرآن، تختم بهذه الفاصلة: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقد يضمُّ اسم «الخبير» إلى الأسماء الأخرى، كاسم «العليم» كما في قوله تعالى: ﴿نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

أو اسم البصير، كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

أو اسم اللطيف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

* * *





استحضار الحساب وأهواله

والباعث الثاني من بواعث المراقبة والمحاسبة ممّا يكمل ما ذكرناه من استحضار الأسماء الحُسنَى: استحضار يوم القيامة، أو يوم الحساب، وما فيه من أهوال، تجعل الولدان شيبًا، فإنّ نسيان الآخرة، أو الانشغال بأمور الدنيا عنها، غفلة عظيمة عمّا ينتظره المرء من الحشر وزحمته، والموقف وقسوته، والحساب وشدته، والميزان ودقّته، والصراط وحِدّته، والرّب وغضبته، والجزاء وعدالته، والجنة ونعيمها، والنار ولهيبها.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَوْمَ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ أَسْنَانُهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * [الزلزلة: ٦ - ٨].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

اقرأ كتابك:

ففي هذا اليوم الطويل زمنه، الشديد هوله، الذي يتصبب الناس فيه عرقاً، من شدة الحر، وشدة الزحام، وطول الوقوف، حتى يتمنى قوم الانصراف فيه ولو إلى النار، هناك يقرأ كل امرئ كتابه الذي سجل له أو عليه حسناته وسيئاته كتبة ملائكة كرام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنِينًا * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

لا يستطيع أحد أن ينكر ما في هذا الكتاب؛ لأنه أشبه بشريط مسجل بالصوت والصورة، يرى الإنسان فيه نفسه كما كان في الدنيا، كأنما هناك «كاميرا» خفية تلتقط له صورته، وتسجل له صوته من حيث لا يشعر، ولذا يشاهد هذا الشريط، أو يقرأ هذا الكتاب القارئ والامي، على حد سواء.

﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُقْبِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

سيقرأ الكتاب المتعلم والأمي، سيجد عمله بين يديه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ يَذِرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّیُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] كان بعض المفسرين قديماً يقولون: ليروا جزاء أعمالهم؛ لأن العمل فني وانتهى، والعمل عرض، والعرض لا يبقى زمانين!

وأصبحنا اليوم نعرف ممّا علّم الله الإنسان ما لم يعلم: أنّ العمل لا يفنى بمجرد وقوعه، كل شيء موجود، تستطيع أن تسمع صوتك وأن ترى نفسك في آلات اخترعها الإنسان، ترى ما عملت في شريط يسجل صوتك ويسجل عملك، فترى نفسك بعد أن انتهى العمل.

بل يقولون: إن كل أقوال الإنسان وحركاته موجودة لم تذهب، ولم تفن، وربما يمكن للإنسان بعد مدة من الزمان من التقاطها، وتخزينها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وإذا كان الناس قد اخترعوا أدوات تُسجل أقوالهم وأعمالهم وتبقيها حتى يروا أنفسهم بعد أن ذهب العمل وانتهى زمانه، فكيف يكون بعيداً على الله تبارك وتعالى أن نجد أعمالنا يوم القيامة ونشاهدها بأعيننا ولا نستطيع أن ننكر؟

ومن المعلوم أنّ السعيد يأخذ كتابه بيمينه، ويقول: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩]، وأنّ الشقي يأخذ كتابه بشماله، ومن وراء ظهره، فيقول: ﴿يَلَيِّنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي﴾ * * * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي * * * يَلَيِّتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * * * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي * * * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

نَضْب الموازين:

ثم بعد قراءة الكتاب الَّذِي يُعَبَّر عنه بنشر الدواوين، يأتي نَضْب الموازين، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿ [الأعراف: ٨، ٩]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿ تَلَفَحَ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤].

والميزان الَّذِي يحكم بين الخلائق في يوم الدين، هو ميزان نؤمن به ولا نعرف كُنْهه، ولكنه ميزان تُوزَن به الأعمال، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، فليس من الضروري أن ميزانًا له كفتان، كالميزان الَّذِي لدى البقال لوزن الخضروات والفواكه ونحوها.

لقد عرف الناس أنواعًا من الموازين لمختلف الأشياء، تُعرف به مقادير الأشياء المختلفة، فهناك ميزان للحرارة والبرودة، وميزان للماء والكهرباء، يسميه الناس «عدادًا» وهو نوعٌ من الموازين والمقاييس أو المعايير، تُعرف به المقادير حتَّى لتوزن البواخر العملاقة المحملة بالنفط أو غيره، ويعرف بالضبط كم تحمل من المواد، ويقاس ذلك بغاية الدقة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ، فجلس بين يدي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ إن لي مملوكين يخونونني ويكذبونني ويعصونني، فأسبهم وأضربهم، فأين أنا منهم؟ قال: «يُنظر في عقابك وذنوبهم، فإن كان عقابك دون ذنوبهم، كان لك الفضل، وإن كان عقابك مثل ذنوبهم سواء، فلا لك ولا عليك، وإن كان عقابك أشد من ذنوبهم، اقتص لهم منك يوم القيامة»، فجعل الرجل يهتف ويبيكي بين يدي النبي ﷺ، فقال: «ما لك؟ أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟» فقال الرجل: يا رسول الله، فهم أحرار^(١).

موقف السؤال:

ثم يأتي بعد ذلك الوقوف بين يدي الله تعالى، للسؤال عما قدموا من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وفي الحديث: «لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»^(٢).

(١) رواه أحمد (٢٦٤٠١)، وقال مخرجه: حديث ضعيف. والترمذي في التفسير (٣١٦٥)، وقال: حديث غريب. صحح إسناده الترمذي الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣١).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٦)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يُضعف في الحديث من قبل حفظه. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨): حسن لغيره. عن ابن مسعود.

موقف الحساب:

ومن الناس من يحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَقُولْ هَآؤُمْ أَقْرَأُ وَكِتَابُهُ﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤] ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق ٧ - ٩]، وهناك من يدخل الجنة بغير حساب.

شهادة الجوارح:

ومنهم من يحاول أن ينكر ما قدّمت يده من سوء، فتشهد عليه جوارحه، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُهمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

وأحياناً يسكت اللسان، ويختم عليه فلا ينطق، وتنطق الجوارح الأخرى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

الذي أنطق اللسان يمكن أن ينطق الجلود: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢١ - ٢٢]

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢١].

مالك يوم الدين وملئكه:

إنَّ هذا اليوم ليس لمخلوق فيه شيء إلا من أذن له بالشفاعة، من الملائكة والنبين: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهو سبحانه في هذا اليوم وحده الملك والمالك، لا ملك غيره، ولا مالك سواه، ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[غافر: ١٦، ١٧] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٧ - ١٩].

وبهذا يتحقق ما يقرؤه المسلم، ويكرّره كل يوم في سورة الفاتحة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] ومَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ على القراءتين الشهيرتين. يدل مجموعهما على أن المُلْك والمَلِك في يوم القيامة لله وحده ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩] لا يشاركه في ذلك أحد ممّن خلق.

وللفظ «الدين» معان كثيرة، منها المكافأة والعقوبة، وهذا المعنى يناسب المقام.

وفي هذا تربية أخرى للعبد، فإنه إذا آمن بأن هناك يومًا يظهر فيه إحسان المحسن، وإساءة المسيء، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم العظيم بيد الله تكون عنده خُلُق المراقبة، وتوقع المحاسبة، فكان ذلك أعظم سبيل لإصلاح كل ما يعمل.

مصير الخلائق:

وبعد الحساب، يتحدّد مصاير الخلق، فمنهم السُّعداء، الَّذِينَ يَدْخُلُونَ
الجنة على اختلاف مراتبهم، بين سابقين مقرّبين، وبين أصحاب اليمين،
ومنهم الأشقياء، الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ دُخُولَ النَّارِ، بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ، حَسَبَ مَرَاتِبِهِمْ فِي الشَّرِّ وَالسُّوءِ.

فهناك الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَطْ، وَهَنَّاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا وَصَدُّوا عَنِ
سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَيْسَ كُفْرُ فِرْعَوْنَ كَكُفْرِ غَيْرِهِ مِنَ الْآتِبَاعِ، وَلِذَا قَالَ اللَّهُ:
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

أهمية تذكر الآخرة:

إِنَّ اسْتِحْضَارَ يَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا فِيهِ مِنْ أَهْوَالٍ، جَدِيرٌ
أَنْ يَوْقِظَ الْقُلُوبَ النَّائِمَةَ، وَيُحْيِيَ الضَّمَائِرَ الْمَيِّتَةَ، وَيُحَرِّكَ الْعِزَائِمَ السَّاكِنَةَ،
وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَنْغُصُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ اسْتِمْتَاعَ بَدَنِيَّاهُمْ
الْعَاجِلَةَ بِذِكْرِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ إِنْ يَنْسَوْنَهَا فَلَنْ تَنْسَاهُمْ، وَإِنْ يَتْرَكُونَهَا فَلَنْ
يَتْرَكَهُمْ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]،
﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦].

وَقَدْ ظَفَرَ بِالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ أَنْاسٌ وَضَعُوا حِسَابَ اللَّهِ وَعَذَابَ الْآخِرَةِ
نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، فَخَافُوا هَذَا الْيَوْمَ وَاتَّقَوْهُ، فَأَمَّنُوا بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ لَقُوا اللَّهَ.

قَالَ تَعَالَى فِي مَدْحِ رُؤَادِ الْمَسَاجِدِ، وَبَيُوتِ اللَّهِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ
تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تَجَرَّةً
وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال في مدح الأبرار من عباده: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا * فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٢].

لهذا كرّر القرآن الكريم التذكير بهذا اليوم والخشية منه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال وعجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

تشير الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة، من حقائق يوم القيامة، وهي أنه يوم الفردية والأنانية المطلقة، كل إنسان يقول فيه: نفسي نفسي. لا يفكر أب في ابنه، ولا أخ في أخته أو أخيه، ولا زوج في زوجته، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].



الاعتبار بسير أهل المراقبة والمحاسبة

كان أرباب الطريق قديمًا ينصحون بمصاحبة أهل المراقبة والمحاسبة، للاقتداء بهم والتعلم منهم، والتأسي بأحوالهم وأعمالهم، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وقد قيل: «حال رجل في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل».

وقد أشار الحديث الصحيح إلى أثر الجليس الصالح حين شبهه بحامل المسك^(١).

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. والصادقون هم أهل البر والتقوى، الذين ذكر الله أوصافهم في آية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

(١) متفق عليه رواه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨)، عن أبي موسى الأشعري.

أمرنا الله أن نكون مع هؤلاء الصادقين، نُصاحبهم ونتعلّم منهم، ونتأسّى بهم، ونقتبس من نورهم، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وإذا كان الرسول الكريم مأمورًا بمصاحبة هؤلاء المتعبدين المخلصين لله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وأن يحبس نفسه معهم، ولا يتطلع إلى غيرهم، فما بالك بنا؟ إننا أحوج ما نكون إلى صحبتهم، فإنهم ينفعون إخوانهم في الدنيا والآخرة، ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ولكن هذا النوع أصبح عزيزًا نادرًا في دنيانا، وغلب الخبيث على الطيب، وإن لم تخلُ الحياة من الطيب، وفق سُنَّة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وقال سيدنا علي رضي الله عنه: لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة^(١).

فمن وجد واحدًا من هذا النوع، فليُصحبه، وليقتبس من نوره، وليعضّ عليه بالنواجذ، سواء اتّخذه شيخًا له، أو أخًا له في الله، فمثله ينفع في الدنيا والآخرة: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٩/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٢/١)، وقال الخطيب: هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظًا. كما شرحه ابن القيم شرحًا وافيًا في مفتاح دار السعادة (٣٤٨/١) وما بعدها، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢هـ.

وإن لم يظفر بمثل هذا الكنز، وهو الغالب في زماننا، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله، ولا عجب فقد قال الإمام الغزالي من أكثر من تسعة قرون: إنَّ هذا الصنف من المُربِّين عزَّ في زمنه، وأمسى نادرًا، فهنا يكفيننا مطالعة سِيَرِ الأموات، فكأننا نستعيض عن صُحبتهم بالتأمل في سِيَرِهِمْ، وأخذ العبرة منها، ومن قرأها ببصيرة مفتوحة، وقلب حيٍّ، ووجدان يقظ، فإنَّها تؤثر فيه تأثيرًا بيِّنًا.

المثل الأعلى في المراقبة والمحاسبة:

وأول مَنْ يجب التأسِّي به وبسيرته، هو رسول الله ﷺ الَّذِي كَانَ المثل الأعلى في مراقبته لرَبِّه، ومحاسبته لنفسه.

فقد كان يراقبه في غدواته ورؤُوحاته، وفي حركاته وسكناته، وفي لحظاته وخطراته، لا يغفل عن ربِّه طَرْفة عين، تنام عيناه، وقلبه لا ينام، ومع هذا كان يقول: «يا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

ويقول: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: كُنَّا نَعُدُّ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(٣). وكذلك كان أصحابه من بعده على منهجه، في المراقبة والمحاسبة.

(١) سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤١).

(٣) رواه أحمد (٤٧٢٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، عن ابن عمر.

قال الإمام الغزالي في «الإحياء»: «وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب قدميه بالدرّة إذا جنّه الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر. ثمّ قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقال: لا أحد أعزّ عليّ من عمر؟

فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبّرّها وأبدلها بكلمة غيرها.

وفي حديث ابن سلام: أنه حمل حزمة من حطب، ف قيل له: يا أبا يوسف، قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه. والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وقال أنس بن مالك: سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وقد خرج وخرجتُ معه، حتّى دخل حائطاً، فسمعتَه يقول - وبينني وبينه جدار، وهو في الحائط -: عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، بخٍ بخٍ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك^(١).

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٣).

وقال مالك بن دينار رحمته الله: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسـتِ صاحبة كذا؟ ألسـتِ صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى، فكان له قائداً، وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه.

وقال ميمون بن مهران: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح^(١).

وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة، أكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار، أكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس، أي شيء تريدان؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً. قلت: فأنت في الأمانة فاعلمي^(٢).

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح، فيضع أصبعه فيه، حتى يحس بالنار! ثم يقول لنفسه: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا^{(٣)؟!«}^(٤).

تيقظ السلف للمراقبة والمحاسبة:

وهذه قبسات من سير السلف في المراقبة والمحاسبة، للاقتداء بهم في شدة يقظتهم في مراقبة الله ومحاسبة أنفسهم وأهلهم:

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩).

(٢) المصدر السابق (١٠).

(٣) المصدر السابق (١٣).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٤، ٤٠٥).

ورع عمر عن تمسُّح زوجته بالمسك عند وزنها له:

قَدِمَ على عمر بن الخطاب مسكٌ وعنبر من البحرين، فقال عمر: والله، لوددتُ أني وجدتُ امرأةَ حسنةِ الوزن، تزن لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين.

فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل: أنا جيِّدة الوزن، فهلَمَّ أزنُ لك. قال: لا. قالت: لم؟ قال: إني أخشى أن تأخذه، فتجعلينه هكذا. وأدخل أصابعه في صُدْغِيهِ، وتمسَّحَ به عنقك، فأصيبَ فضلًا على المسلمين^(١).

ورُوي عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه أُتِيَ بمسك من بيت المال، فأمسك عنه، فقليل له في ذلك؟ فقال: وهل ينتفع منه إلا برائحتهِ^(٢)؟ وهذا من أعلى درجات التيقظ بالمحاسبة.

تنبيه عمر بن عبد العزيز للمتكلم أن يشير بيمينه:

وروى الحافظ أبو نُعيم في «الحلية» والإمام أحمد في «كتاب الزهد» في ترجمة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد عليه السلام: أنَّ عمر بن عبد العزيز رأى رجلاً يشير بشماله. فقال: يا هذا، إذا تكَلَّمْتَ فلا تُشِرْ بشمالك، أشِرْ بيمينك. فقال الرجل: ما رأيت كاليوم، إنَّ رجلاً دَفَنَ أعزَّ النَّاسِ إليه - وهو ابنه عبد الملك الشاب الناسك العابد -، ثمَّ إنَّه يهْمُهُ يميني من شمالي! فقال عمر: إذا اسْتَأْثَرَ اللهُ بشيءٍ فَالَهُ عنه - أي اتركه وأعرض عنه ولا تتعرَّضْ له - فقال له

(١) رواه أحمد في الزهد (٦٢٣).

(٢) رسالة المسترشدين للمحاسبي ص ١٢٢.

الرجل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال عمر بن عبد العزيز: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا^(١).

الحافظ المنذري يستلقي في الطريق ولا يجلس على مسطبة حانوت:

وقال الشيخ تاج الدين السُّبُكي في «طبقات الشافعية الكبرى» في ترجمة الحافظ زكي الدين عبد العظيم المُنذري الإمام الورع الزاهد الصالح صاحب كتاب «الترغيب والترهيب»: «سمعتُ أبي يحكي عن الحافظ الدميّاطي: أنَّ الشيخ المنذري خَرَجَ من الحَمَّام مرّة وقد أخذ منه حُرَّها، فما أمكَنهُ المشي! فاستلقى على الطَّرِيق إلى جانب حانوت! فقال له الحافظ الدميّاطي: يا سيدي، أنا أقعدُك على مسطبة الحانوت، وكان الحانوت مغلقًا، فقال له الشيخ المنذري وهو في تلك الشدّة: بغير إذن صاحبه، كيف يكون؟!»^(٢).

التقيُّ السبكي ينهى ابنه عن زجر الكلب بتحقيير:

قال الشيخ مرتضى الزبيدي في «شرح الإحياء» في مبحث: جواز غيبة الفاسق: «إنَّ ذكْرَ الفاسق بما فيه ليحذره الناس: مشروطٌ بقصد الاحتساب، وإرادة النصيحة دفعًا للاغترار به، فمن ذكر أحدًا من هذا الصنف، تشفيًا لغيظه، أو انتقامًا لنفسه، أو لنحو ذلك من الحظوظ النفسانيّة فهو آثم، صرّح بذلك تاج الدين ابن السُّبُكي عن والده تقي الدين السبكي، قال تاج الدين: كنت جالسًا بدهليز دارنا، فأقبل كلب،

(١) رواه أحمد في الزهد (١٧١٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٢٦/٥).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢٦٠/٨، ٢٦١)، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، نشر هجر، ط ٢، ١٤١٣هـ.

فقلت: أخساً كلب ابن كلب، فزجرني الوالد من داخل البيت. فقلت: أليس هو كلب ابن كلب؟ قال: شرط الجواز عَدَمُ قَصْدِ التحقير»^(١).

أبو يوسف قاضي الرشيد يحاسب نفسه عند الوفاة:

وحكى العلامة العلاء الحصكفي رحمته الله تعالى: أَنَّ الإمامَ أبا يوسفَ تلميذَ الإمام أبي حنيفة وقاضي القضاة في زمن هارون الرشيد، كان قد تقاضى عنده الخليفةُ هارون الرشيد ونصراني في خصومة وقعت بينهما. فقضى أبو يوسف للنصراني على الخليفة، ولما أدركته الوفاة قال: اللهمَّ إنك تعلم أنني وَلَيْتُ هذا الأمر، فلم أَمِلْ إلى أحد الخصمَيْنِ حتَّى في القلب، إلا في خصومة نصراني مع الرشيد لم أُسَوِّ بينهما - أي في مثل القلب - وقضيتُ للنصراني على الرشيد وبكى»^(٢).

ابن حامد الورَّاق يمتنع عن شرب الماء قبيل موته ليعرف مصدره:

وذكر القاضي أبا يَعْلَى الحنبلي في ترجمة: الحسن بن حامد بن علي بن مروان أبي عبد الله البغدادي: أَنَّهُ كان ينسخ الكتب بيده ويقتاتُ من أجرته، فسُمِّي: الورَّاق، وكان كثير الحج فعوتب في كثرة سفره وحجّه مع كبر سنِّه، فقال: لعل الدرهم الزيف يخرج مع الدراهم الجيدة. قال: «وخرج إلى الحج في سنة ٤٠٢هـ، فناله في بعض طريقه عطش شديد، فجاء إنسانٌ من الحاج بقليل ماء، وهو مستند إلى حَجَرٍ وقد أشرف على التلف، فأوماً إلى الجائي له بالماء: من أين هو؟ وأي شيء

(١) إتحاف السادة المتقين (٣٣٢/٩)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الدر المختار ص ٤٦٦، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، ط ١،

وجهه؟ فقال له: هذا وقته؟ فأوماً: أن نعم، هذا وقته، عند لقاء الله تعالى أحتاج إلى أن أدري ما وجهه؟ وتوفي راجعاً من مكة بقرب سنة ثلاث وأربعمئة رحمته الله تعالى ^(١).

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمته الله تعالى في تعليقاته النفيسة على «رسالة المسترشدين»: «فانظر رعاك الله إلى مدى يقظة هؤلاء الأئمة في محاسبة لأنفسهم.

فالخليفة عمر بن عبد العزيز لم يشغله حزنه الذي ملأ عليه يومه، إذ دفن فيه أعز الناس إليه ولده وفلذة كبده، أن يعلم الرجل ما أخطأ فيه، فما سمح لنفسه أن يسكت على مخالفة تقع من أحد أفراد الرعية، وهي الإشارة باليد اليسرى، فأرشد الرجل وهو مغمور في ذلك الحزن العميق إلى أن سنة الإسلام الإشارة باليد اليمنى.

ولما مدحه الرجل وأشار على فضله على الإسلام، ردّه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، ونبّهه إلى أن الفضل للإسلام وحده، إذ هو الذي علّمنا الآداب والأخلاق، وهو الذي يصنع في نفوس أبنائه الأعاجيب من الأعمال والمناقب.

والحافظ المنذري أرهقه حرّ الحّمّام حتّى لم يستطع المشي، فاستلقى في الطريق من شدّة ضعفه وانهايار قواه، فيقول له صاحبه: أنا أقعدك على مسطبة الحانوت، والханوت مغلق، لا يتصرّر بجلوسه أحد لو جلس، فيقول الشيخ وهو أشد ما يكون تعباً ورهقاً: بغير إذن صاحبه كيف يكون؟! وما رضي أن يجلس، بل رأى أن الاستلقاء في

(١) طبقات الحنابلة (١٧٧/٢)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

الطريق أحبُّ إليه من القعود على مسطبة الحانوت، وهو شيخ مشايخ عصره مقامًا وعلماً.

أمّا تقي الدين السبكي، فقد رأى أنّ ابنه أخطأ حين زَجَرَ كلبًا بلهجة المُتَنَقِّصِ المُحْتَقِرِ، فأعلمه أنّ ذلك لا يسوغُ ولو مع الحيوان والكلب.

وأمّا القاضي أبو يوسف رحمته الله، فقد رأى أنّ مجرّد ميله القلبي وتمنيّه أن يكون الحق في جانب إمام المسلمين الخليفة الرشيد لا في جانب النصراني: زلة يخشى عقوبتها من الله تعالى، فتجسّم له ذلك الميل القلبي ذنبًا ارتكبه، فبكى وهو يودع الحياة!

وأمّا الفقيه ابن حامد الحنبلي رحمته الله، فرأى وهو في النَّفسِ الأخير أنّ الموت عطشًا أحبُّ إليه من يدخل جوفه ماءٌ لا يدري من أين جاء به حامله؟ لأنه يريد أن يلقي الله تعالى وهو نقي الظاهر والباطن ممّا قد يُسأل عنه.

فما أجلّ هؤلاء الرجال؟ ولقد صدق القائل:

هُمُ الرِّجَالُ وَعَيْبٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَّصَفْ بِمَعَانِي وَصَفِيهِمْ: رَجُلٌ^(١)!

* * *

(١) رسالة المسترشدين ص ١٢٦.

٤

تَذَكُّرُ نِعَمِ اللَّهِ وَالْعَمَلِ عَلَى شُكْرِهَا

ومما يعين المسلم على مراقبة ربّه، والاستقامة على صراطه: أن يتذكّر دائماً نِعَمَ الله تعالى عليه، ويلاحظها ولا يغفل عنها، ويوقن بأنه مطالبٌ بشكر الله تعالى عليها، حتّى يُديمها عليه، وحتى يزيده منها، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

نعمة الهداية للإسلام:

وأعظم نعمة أنعم الله بها علينا هي: نعمة الهداية للإسلام، الذي به هدايتنا وعزنا ونصرنا في الدنيا، وفلاحنا وفوزنا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عز وجل: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ﴿فَضَلَّاهُمْ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

كيف نشكر نعمة الإسلام؟

وشكر نعمة الإسلام، هي أن يعيش عليه، ويموت عليه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وإنما يموتون على الإسلام إذا عاشوا عليه؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، وأن يعتز بهذا الدين الذي أكرمه الله به وهداه إليه، كما كان الصحابة يعتزون به قبل أن يعتزوا بآبائهم وأنسابهم.

كما قال أحدهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم^(١)
وكما قال سيدنا عمرُ لسيدنا أبي عُبَيْدة: نحن كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ
بِالإِسْلَامِ، فمهما نبتغِ العز بغيره أَذَلَّنَا اللَّهُ^(٢).

وأن نعمل بأوامر الإسلام، وننتهي عما نهى الله عنه، ونستقيم على منهاجه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وأن ندعو إليه غيرنا، ندعو إليه المسلمين ليصححوا إسلامهم، ويستكملوه فهمًا وإيمانًا وعملاً وسلوكًا، وغير المسلمين ليدخلوا فيه، ويهتدوا بهداه، ويخرجوا من الظلمات إلى النور: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

(١) هو نهار بن توسعة، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٥٢٨/١)، نشر دار الحديث، القاهرة.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن طارق بن شهاب.

فينبغي للمسلم أن يدعو مَنْ حوله، ولا سيما أهله وأولاده، كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْاً أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] وقال علي رضي الله عنه: «عَلِّمُوهُمْ الْخَيْرَ»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

نعمة العلم والفقه في الدين:

ومن نِعَمِ الله على المسلم: الفقه في الدين، كما في الحديث الصحيح: «ومن يُردِ الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢).

فإذا رزقك الله الفقه في دينه، وأُناَر بصيرتك بهذا العلم النافع، فراقب الله في هذه النعمة، وأدِّ شكرها بأمرين:

الأول: العمل بما علمت، حتَّى لا يكون علمك حجةً عليك يوم القيامة.

والثاني: أن تُعلِّم غيرك ما علمت، حتَّى تكون ربّانيًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيَْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وقال السلف: الربّاني هو الذي يَعْلَم ويعمل ويُعلِّم، وبهذا تؤدي زكاة ما رزقك الله من علم، كما تؤدي زكاة ما رزقك الله من مال.

(١) رواه الحاكم في التفسير (٤٩٤/٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري (٦٥٩/٨): رواه ثقات.

(٢) سبق تخريجه ص ٨.

نعمة الصحة والفراغ:

ومن نِعَمِ الله عليك: الصحة، أعني الصحة في بدنك، وجوارحك وحواسك وعقلك، فهذه نعمة عظيمة، لا يُحسُّ بقيمتها إلا من فقدوها، كما قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، وذلك أن الإنسان إذا أَلِفَ النعم، لم يشعر عادةً بقيمتها، ولم يذكر لها أهمية، حتَّى إذا ابتلي بفقدوها، أو بفقد شيء منها، عرف مكانتها وضرورتها، ومن أهمها نعمة «العافية»، ولذا كان النَّبِيُّ ﷺ كثير الدعاء لربه أن يمنحه العافية، فكان يقول: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ»^(١). وفي دعاء القنوت: «وعافني فيمن عافيت»^(٢). وفي الاستراحة بين الجلستين: «اللهمَّ اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزُقني»^(٣).

ومن شكر هذه النعمة: أن توظف في طاعة الله تعالى، وفي عمل الصَّالِحَات، واستباق الخيرات، ولا سيما إذا أُضيفت إلى نعمة الصحة، نعمة «الفراغ» أي: الوقت الفارغ، غير المشغول بلقمة العيش، وهموم الحياة، وصراعات البقاء، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ»^(٤).

(١) رواه أحمد (٤٧٨٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأبو داود في الأدب، (٥٠٧٤)، وابن ماجه في الدعاء، (٣٨٧١)، والحاكم (٥١٧/١)، وصححه ووافقه الذهبي، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٧١٨)، وقال مخرجه: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات. وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، وحسنه، كلاهما في الوتر، والنسائي في قيام الليل (١٧٤٥)، وابن حبان في إقامة الصلاة (١١٧٨)، عن الحسن بن علي.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٧)، وأحمد (١٥٨٧٧)، عن أبي مالك الأشجعي.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٢)، عن ابن عباس.

ومن هنا وجّه النَّبي ﷺ نصيحة إلى بعض الشباب، فقال: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلِكَ، وحياتك قبل موتك»^(١).

لا بدّ أن تنظر أنّ لديك صحة ربما يعترئها السّقم، وغنى عن النّاس قد يلحقه الفقر، وفراغاً ربما لا يستمرُّ لك، وحياة لا بدّ أن تنتهي بالموت، والموت يأتيك دون مقدّمات، فليس من الضروري أن تمرض وتدخل المستشفى وتعرض على الأطباء. كم من أناس ماتوا فجأة؟ كم من أناس ماتوا بالسكّنة أو بالذبحة؟ كم من أناس ماتوا بحوادث لم تكن تخطر لهم على بال؟

الغيرة على الوقت حتّى لا يضيع سدى:

ومن أعظم ما يبعث على المراقبة والمحاسبة: الغيرة على الوقت حتّى لا يضيع سُدّي، فعمر الإنسان هو وقته، الَّذي يقضيه من المهد إلى اللحد، ومن ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة.

قال الحسن البصري: يا ابن آدم إنّما أنت أيام مجتمعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك^(٢)، وعبر عن ذلك الإمام حسن البنا بقوله: الوقت هو الحياة. من أجل ذلك كان من وصاياهِ العشر لأتباعه: «الواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته، وإذا كانت لك حاجة، فأؤجز في قضائها».

(١) رواه النسائي في الكبرى في المواعظ (١١٨٣٢)، والحاكم في الرقاق (٣٠٦/٤)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٨/٢).

وروى أبو نعيم عن داود الطائي أنه كان يشرب الفتيت (أي: الخبز المنقوع في الماء الذي تفتت فيه) ولا يأكل الخبز، ف قيل له في ذلك؟ فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية^(١).

ودخل عليه رجل يومًا، فقال: إن في سقف بيتك جذعًا مكسورًا! فقال: يا ابن أخي، إني لفي البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف^(٢).

قال الإمام الغزالي: «وكانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام»^(٣).

وقال الإمام عبد الله بن المبارك:

اغْتَنِمْ رَكَعَتَيْنِ زُلْفَى إِلَى اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ فَارِغًا مُسْتَرِيحًا
وَإِذَا هَمَمْتَ بِالْمَنْطِقِ الْبَا طَلِّ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحًا^(٤)

فهؤلاء الذين يعرفون قيمة الوقت، وهو رأس مالهم، ولا يضيعونه، فقد قيل: من علامة المقت، إضاعة الوقت. وقيل: إنَّ الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما.

ومن العجب أن يفرح النَّاسُ بمرور الأيام، وسير الأعوام، ويحتفل كثير منهم كل سنة في يوم مولده بمضي سنة من عمره، ويتبادلون

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٥٠/٧).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة (٥٤م)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٣) إحياء علوم الدين (٤٠٩/٤).

(٤) طبقات الشافعية للسبكي (٢٨٦/١).

التهاني والهدايا، وما يدري المسكين أنه يحتفل بجدار من بنیان عمره يهدم، وصفحة من كتاب حياته تطوى، كما قال القائل:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الْأَجْلِ^(١)!

قال ابن القيم في منزلة «الغيرة» في «مدارج السالكين ومنازل السائرين»: «والوقت أعز شيء على العابد والمريد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة؛ لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه.

كما في المسند مرفوعاً: «من أفطر يوماً من رمضان متعمداً من غير عذر، لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه»^(٢).

وقوله: «وهي غيرة قاتلة» يعني: مضرة ضرراً شديداً بينا يشبه القتل؛ لأن حسرة الفوت قاتلة. ولا سيما إذا علم المتحسر: أنه لا سبيل له إلى الاستدراك.

وأيضاً: فالغيرة على التفويت تفويت آخر، كما يقال: الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر.

ولذلك يقال: الوقت سيف إن لم تقطعه، وإلا قطعك.

ثم بين الشيخ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة، فقال:

(١) كان يزيد الرقاشي يتمثل به، كما روى ابن أبي الدنيا في الزهد ص ١٩٠.

(٢) رواه أحمد (٩٧٠٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣)، وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦٥)، جميعهم في الصيام، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٠١٣)، عن أبي هريرة.



«فإنَّ الوقتَ وَحْيٌ التقضي» أي: سريع الانقضاء، كما تقول العرب: الوحا الوحا، العجل العجل. والوَحي: الإعلام في خفاء وسرعة. ويقال: جاء فلان وَحْيًا أي مجيئًا سريعًا.

فالوقت منقضٍ بذاته، منصرم بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرّمت أوقاته، وعظم فواته. واشتدَّت حسراته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرجعى، فحيل بينه وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت»^(١).

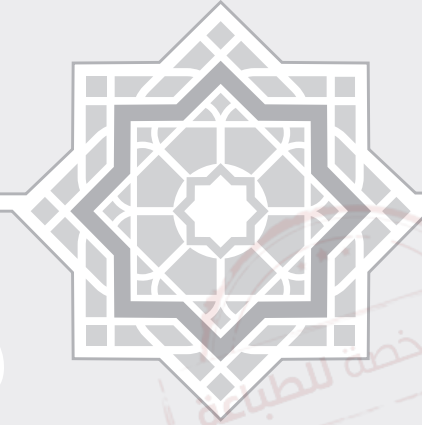
* * *



(١) مدارج السالكين (٥٠/٣).



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



خاتمة

وقائع وحكايات عن المجتهدين
في عبادة الله تعالى
ومعاقبة النفس ومجاهدتها







ذكر الإمام الغزالي في الكتاب الثامن والثلاثون من كتاب «الإحياء» وهو كتاب «المراقبة والمحاسبة»؛ محطات المراقبة والمحاسبة في مشارطة النفس، ومراقبتها بعد المشاركة، ومحاسبتها بعد العمل، ومعاقبة النفس على تقصيرها، ومجاهدة النفس، وتوبيخها ومعاتبتها.

وأورد بعض ما قال في معاقبة النفس على تقصيرها^(١).

قال رحمه الله: «إذا حاسب المسلم نفسه، فوجدها لم تسلم عن ملابسة معصية أو ارتكاب تقصير في حق الله تعالى، أو في حق أحد من عباده، فلا ينبغي أن يهملها، أو يئس منها، فإنه إن أهملها أو يئس منها؛ سهل عليها مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسّر عليه حينئذ فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها بما يلائم جنس الذنب ويقابله، فإن لكل مرض علاجاً.

فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس، فإنه ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع فترة من الزمن عن مباحات تشتهيها نفسه.

وإذا نظر إلى غير محرم بشهوة، فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه، بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة».

(١) سنعلق على ما جاء في بعض هذه القصص من مبالغات في الفصل القادم من الكتاب.

وذكر الإمام الغزالي ما رُوي عن منصور بن إبراهيم: أنَّ رجلاً من العباد كَلَّمَ امرأة أجنبية، فلم يزل حتَّى وضع يده على فخذهما، ثمَّ ندم على ما صنع، فوضع يده على النار حتَّى يبست.

ويحكى أنَّ غزوان^(١) وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما، فتكشفت لهما جارية جميلة الصورة، فنظر إليها غزوان نظر شهوة، ثمَّ رجع فندم، فرفع يده، فلطم عينه لكمة حتَّى نفرت من موضعها، وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرُّك^(٢).

ونظر بعضهم نظرة واحدة لامرأة، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

وقد تكون المعاقبة على خلاف جنس المعصية، وإنَّما هي على حسب ما اقتضاه رأي المعاقب.

يحكى أنَّ حسان بن أبي سنان البصري العابد، مرَّ بغرفة، فقال: متى بُنيت هذه؟ ثمَّ أقبل على نفسه، فقال: تسألين عمَّا لا يعينك، لأعاقبتك بصوم سنة. فصامها^(٣).

(١) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٢٠/١٣): لا أعرف في الصحابة من اسمه غزوان، وفي التابعين: غزوان بن عتبة المازني، وأبوه صحابي مشهور، فيحتمل أن يكون هو المراد هنا. والله أعلم.

ثم قال: ثم ظهر لي أنَّ صاحب القصة مع أبي موسى هو عتبة بن غزوان، فقد قال أبو نعيم في الحلية (٢٦١/١) بسنده إلى عتبة بن غزوان الرقاشي، قال: قال لي أبو موسى: ما لي أرى عينيك نافرة؟

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٠).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١١٥/٣).

وقال مالك بن ضَيْغَم الجَلَّاب البصري: جاء رياح بن عمرو القيسي يسأل عن أبي بعد العصر، فقلنا: إنه نائم. فقال: أنوم هذه الساعة؟! هذا وقت نوم! ثم ولّى منصرفاً، فأتبعناه رسولاً، وقلنا له: ألا نوقظه لك؟ فجاء الرسول، وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر، وهو يعاتب نفسه، ويقول: أقلت: وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء، وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين، أما إنَّ الله عليَّ عهداً لا أنقضه أبداً، لا أُوسِّدُكَ الأرض لنوم حَوْلاً، إلا لمرض حائل، أو لعقل زائل، سوءاً لك! أما تستحين؟ كم توبَّخين، وعن غيِّك لا تنتهين. قال: وجعل يبكي، وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك، انصرفت وتركته^(١).

ويحكى عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه: أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجَّد، فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع^(٢).

ودخل الواعظ ابن السمَّاك البغدادي على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب، فقال: يا داود، سجتَ نفسك قبل أن تُسجن، وعذبتَ نفسك قبل أن تُعذب، فاليوم ترى ثواب من كنتَ تعمل له^(٣).

وعن وهب بن منبه اليماني رضي الله عنه: أن رجلاً تعبَّد زماناً طويلاً، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة، فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرّة، ثم سأل حاجته، فلم يُعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أُتيْتُ، لو كان فيك خير لأُعطيت حاجتك. فنزل إليه ملك،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٤).

(٢) المصدر السابق (٥٥).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٤٠/٧).

وقال: يا ابن آدم، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك^(١).

وقال أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه: كُنَّا فِي غَزَاةٍ لَنَا، فَحَضَرَ الْعَدُو، فَصَيَّحَ فِي النَّاسِ، فَقَامُوا إِلَى الْمَصَافِّ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الرِّيحِ، وَإِذَا رَجُلٌ أَمَامِي وَهُوَ يَخَاطِبُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: أَيُّ نَفْسِي، أَلَمْ أَشْهَدْ مَشْهَدَ كَذَا وَكَذَا؟ فَقُلْتُ لِي: أَهْلَكَ وَعِيَالِكَ. فَأَطَعْتُكَ وَرَجَعْتُ، أَلَمْ أَشْهَدْ مَشْهَدَ كَذَا وَكَذَا؟ فَقُلْتُ لِي: أَهْلَكَ وَعِيَالِكَ. فَأَطَعْتُكَ وَرَجَعْتُ، وَاللَّهِ لَا أَعْرِضَنَّكَ الْيَوْمَ عَلَى اللَّهِ، أَخْذُكَ أَوْ تَرْكَكَ. فَقُلْتُ: لَأَرْمِقَنَّهُ الْيَوْمَ. فَرَمَقْتُهُ، فَحَمَلَ النَّاسُ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَكَانَ فِي أَوَائِلِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ الْعَدُوَّ حَمَلَ عَلَى النَّاسِ فَانْكَشَفُوا، فَكَانَ فِي مَوْضِعِهِ، حَتَّى انْكَشَفُوا مَرَاتٍ، وَهُوَ ثَابِتٌ يِقَاتِلُ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ ذَاكَ دَابَّةً حَتَّى رَأَيْتَهُ صَرِيْعًا، فَعَدَدْتُ بِهِ وَبَدَابَتَهُ سَتِينَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سَتِينَ طَعْنَةً^(٢).

وعن مُجَمِّعِ بْنِ صَمْغَانَ التِّمِيمِيِّ: أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّطْحِ، فَوَقَعَ بِصَرِهِ عَلَى امْرَأَةٍ، فَجَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَرْفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا.

وكان الأحنف بن قيس التميمي لا يفارقه المصباح بالليل، فكان يضع أصبعه عليه، ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت كذا يوم كذا^(٣)؟

وأنكر وهيب بن الورد المكي شيئاً على نفسه، فنتف شعرات كانت على صدره حتى عظم ألمه، ثم جعل يقول لنفسه: وَيَحَاكَ إِنَّمَا أريد بك الخير.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٦٠).

(٢) المصدر السابق (٢١).

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٤، ٣٢٣/٢٤).

ورأى محمد بن بشر العبدى الكوفى، داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح، فقال له: لو أكلته بملح، فقال: إنَّ نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا^(١).

ويعقب الإمام الغزالى على هذه الوقائع، فيقول: «فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم، إذا خانت نفوسهم وضيّعت الحدود. والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك، وأهلك وولدك، على ما يصدر منهم من سوء خلق، وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار، وبغوا عليك، ثمَّ تهمل نفسك، وهي أعظم عدوّ لك، وأشدُّ طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يُشوّشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، ومعيشة الدنيا زائلة، وأنَّ في عيش الآخرة النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها»^(٢).

ولكن يجب على الإنسان إذا حاسب نفسه على تقصير قصّرتة في أمر أو نهى، أو عاقب نفسه: أن يقف عند حدود الله، ففيها الدواء الذي يشفي ولا يضرُّ، ولا يتجاوز به المرء إلى ما لا يحلُّ له، فالرجل الصالح الذي حرم على نفسه الملح ما دام في الدنيا عقاباً لها، سيضر نفسه لا محالة؛ لأنَّ الملح لا بدَّ منه لإصلاح الطعام، وتركه نهائياً ضرر بلا ريب على صحّة الإنسان.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٤٩/٧).

(٢) إحياء علوم الدين (٤٠٦/٤ - ٤٠٨) بتصرّف.

والحق أن تلتزم المقادير والشروط المطلوبة دون التجاوز، فإن الله لا يحب المسرفين.

وكذلك بعض المبالغات في معاقبة الإنسان لنفسه بما لا يقبل ولا فائدة منه، ممَّا ذكره الغزالي رحمه الله في «الإحياء» وذكرنا طرفاً منه، وأعرضنا عن بعض.

كلام الغزالي في مجاهدة السلف للنفس:

وقال رحمه الله في آخر كتاب المراقبة والمحاسبة في مجاهدة النفس بتذكيرها بفضائل المجاهدة والمواظبة على العبادة:

«فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والرياضات الشاقة، والمواظبة على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟

فأقول: سبيلك في ذلك أن تُسمعها ما وَرَدَ في الأخبار من فضل المجتهدين في العبادة، ومن أنفع أسباب العلاج: أن تطلب صحبة عبدٍ من عباد الله مجتهد في العبادة، غير متساهل فيها، فتلاحظ أقواله وأحواله وتقتدي به فيهما.

وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة، نظرت إلى أحوال محمد بن واسع البصري العابد، وإلى اجتهاده، فعملتُ على ذلك أسبوعاً.

إلا أنَّ هذا العلاج قد تعذر، إذ قد فُقد في هذا الزمان (أي في رأس القرن الخامس) من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة والمصاحبة إلى السماع، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم، ومطالعة أخبارهم، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم،

وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم! وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم! فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرّة، ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيّه أبد الآباد، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم، ما يُحرك رغبة المريد، في الاجتهاد اقتداءً بهم^(١).

إيراد الإمام الغزالي لأوصاف المجتهدين في العبادة:

أورد الإمام الغزالي رحمه الله جملة وافرة من أخبار المجتهدين في العبادة، مثل: ما روي عن سيدنا علي، من قوله في وصف المتقين: ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرض. قال الحسن البصري: أجهدتهم العبادة.

«وقال الحسن البصري رحمه الله: أدركت أقوامًا، وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب - أي: لاقتصاره على ثوب واحد - ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط - أي: حائلاً من فرش غير ثوبه الذي على بدنه - وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم يصلون، يفترشون وجوههم (إشارة إلى كثرة السجود) تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٨).

الحسنة فرحوا بها، ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنهم، وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك - أي مداومين - وعلى ذلك - أي: مصابرين - والله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة»^(١).

عمر بن عبد العزيز والشاب الناحل:

ويُحكى أنَّ قومًا دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال له عمر: يا فتى، ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أسقام وأمراض. فقال: سألتك بالله ألا صدقتني. فقال: يا أمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة، وصغر عندي زهرتها وحلاوتها، واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأنني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار، فأظمأت لذلك نهاري، وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه^(٢).

أحمد بن رزين:

وقال محمد بن عبد العزيز الجرمي البصري: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر، فما التفت يمنا ولا يسرة، فقليل له في ذلك، فقال: إنَّ الله وَجَلَّ خَلْقَ الْعَيْنِينَ، لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة^(٣).

(١) رواه أحمد في الزهد (١٦٤٣). وانظر: الإحياء (٢٢٥/٤).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة (٣٨٩) بنحوه.

(٣) المصدر السابق (١٠٠).

وكان الأولى أن يقول: ضاعت عليه حسنة، لأن الخطيئة لا تكتب إلا إذا نظر إلى ما يحرم النظر إليه.

مسروق بن الأجدع:

وقالت امرأة مسروق بن الأجدع: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة بالليل. وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي، رحمة له.

وحج مسروق، فما نام قط إلا ساجدًا، وكان سفيان الثوري يقول: عند الصباح يحمد القوم السُّرى، وعند الممات يحمد القوم التُّقى.

ثلاث حبّبت العيش لأبي الدرداء:

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمّ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام، كما يُنتقى أطيب الثمر^(١).

العلاء بن زياد^(٢):

وكان العلاء بن زياد: يجتهد في العبادة، ويصوم في الحر، حتّى يخضّر جسده ويصفّر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد.

وكان يصوم حتّى يخضّر جسده، ويصلى حتّى يسقط مغشيًا عليه، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن البصري، فقالا له: إنّ الله وعبك لم يأمر بك كل هذا. فقال: إنّما أنا عبد مملوك، لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به^(٣).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢١٢/١).

(٢) في الإحياء الأسود بن يزيد، والتصويب من نسخة الإحياء (١٧٨/٩)، نشر دار المنهاج، وتهذيب الكمال (٥٠٢/٢٢).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤٣/٢)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤٠٩/٤).

دعاء ثابت البناني:

وكان ثابت بن أسلم البناني البصري صاحب سيدنا أنس بن مالك قد حبت إليه الصلاة، فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره، فإذن لي أن أصلي في قبري^(١).

أويس القرني:

وكان أويس بن عامر القرني يقول: هذه ليلة الركوع. فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية، قال: هذه ليلة السجود، فيحيي الليل كله في سجدة^(٢).

وقال الربيع: أتيت أويسًا، فوجدته جالسًا حتى صلى الفجر، ثم جلس، فجلست، فقلت: لا أشغله عن التسبيح، فمكث مكانه حتى صلى الظهر، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس، فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نؤامة، ومن بطن لا تشبع، فقلت: حسبي هذا منه. ثم رجعت.

ونظر رجل إلى أويس فقال: يا أبا عبد الله، ما لي أراك كأنك مريض؟ فقال: وما لأويس ألا يكون مريضًا؟ يُطعم المريض وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم!

(١) رواه ابن الجعد في مسنده ص ٢٠٩، تحقيق عامر أحمد حيدر، نشر مؤسسة نادر، بيروت، ط ١، ١٤١٠ - ١٩٩٠م.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/٤٤٣، ٤٤٤).

عتبة الغلام:

وقيل: لما تاب عتبة بن أبان الغلام رحمه الله كان لا يتهنأ بالطعام والشراب، فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك؟ قال: الرفق أطلب، دعيني أتعب قليلاً، وأتنعم طويلاً.

وقال عبد الله بن داود الكوفي العابد: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، أي: كان لا ينام طول الليل^(١).

وكان كهمس بن الحسن التميمي البصري يُصلي كل يوم ألف ركعة، ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر، فلما ضُف اقتصر على خمسمائة ركعة، ثم كان يبكي، ويقول: ذهب نصف عملي^(٢).

الربيع بن خثيم:

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت، مالي أرى النَّاس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابتاه، إن أباك يخاف البيات^(٣). أي: أن يقتحم عليه الأعداء ليلاً.

ولما رأت أم الربيع بن خثيم ما يلقي الربيع من البكاء والسهر، نادته: يا بُني، لعلك قتلت قتيلاً؟ قال: نعم يا أماه. قالت: فمن هو حتّى نطلب أهله، فيعفوا عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه، لرحموك وعفوا عنك. فيقول: يا أماه، هي نفسي^(٤).

(١) رواه الدينوري في المجالسة (١٣١).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١١/٦).

(٣) المصدر السابق (١١٤/٢).

(٤) المصدر السابق (٤١/٥).

بشر بن الحارث:

وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث الحافي قال: سمعتُ خالي بشر بن الحارث يقول لأمي: يا أختي، جوفي وخواصري تضرب عليّ. فقالت له أمي: يا أخي أتأذن لي حتّى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم (أي: يصلح) جوفك؟ فقال لها: ويحك، أخاف أن يقول لي: من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري إيش أقول له؟ فبكت أمي، وبكى معهما، وبكىّ معهم.

قال عمر: ورأت أمي ما به من شدة الجوع، وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا، فقالت له أمي: يا أخي، ليت أمّك لم تلدني، فقد والله تقطعت كبدي ممّا أرى بك. فسمعته يقول لها: وأنا ليت أمي لم تلدني، وإذ ولدتني لم يدرّ ثديها عليّ.

قال عمر: وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار. أي: لما ترى من شدة اجتهاده ورياضته لنفسه.

وقال أحمد بن حرب النيسابوري الزاهد: يا عجبًا لمن يعرف أنّ الجنة تزيّن فوقه، وأن النار تُسعر تحته، كيف ينام بينهما؟!

إبراهيم بن أدهم:

وقال رجل من النُّسّاك: أتيت إبراهيم بن أدهم، فوجدته قد صلى العشاء، فقعدتُ أرقبه، فلفّ نفسه بعباءة، ثم رمى بنفسه على الأرض، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتّى طلع الفجر، وأذن المؤذن، فوثب قائمًا إلى الصلاة، ولم يحدث وضوءًا، فحاك ذلك في صدري، فقلت له: رحمك الله، قد نمت الليل كله مضطجعًا، ثم لم تجدد الوضوء؟!

فقال: كنتُ الليلَ كلَّه جائلاً في رياض الجنة أحياناً، وفي أودية النار أحياناً، فهل في ذلك نوم؟

وقال ثابت بن أسلم البُناني: أدركتُ رجالاً كان أحدهم يصلي، فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً.

منصور بن المعتمر:

وكان منصور بن المعتمر السُّلَمي الكوفي إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة، منكسر الطُّرف، منخفض الصوت، رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع^(١). ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تسكت! لعلك يا بني أصبت نفساً، لعلك قتلت قتيلاً. فيقول: يا أماه، أنا أعلم بما صنعت بنفسي^(٢).

عامر بن عبد الله بن عبد قيس:

وقيل لعامر بن عبد الله البصري من عبّاد التابعين: كيف صبرك على سهر الليل وظماً الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أنني صرفتُ طعام النهار إلى الليل، ونومَ الليل إلى النهار، وليس في ذلك خطير أمر!

وكان يقول: ما رأيتُ مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها. وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرُّ النار النوم، فما ينام حتّى يصبح. فإذا جاء النهار قال: أذهب حرُّ النار النوم، فما ينام حتّى يمسي. فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج، وعند الصباح يحمد القوم السُّرى^(٣).

(١) قال صاحب التاج: وجاءت عيناه بأربعة، أي بدموع جرت من نواحي عينيه الأربع، وقال الزمخشري: أي جاء باكياً أشد البكاء. تاج العروس مادة (ر. ب. ع).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤١/٥).

(٣) رواه هناد في الزهد (٥١٠).

وقال بعضهم: صحبتُ عامر بن عبد القيس أربعة أشهر، فما رأيتهُ نام بليل ولا نهار^(١).

علي بن أبي طالب:

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: صليتُ خلف عليّ الفجر، فلما سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة، فمكث حتّى طلعت الشمس، ثمّ قلب يده، وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله، وما أرى اليوم شيئاً يشبههم، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سُجّداً وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحن بين أقدامهم وجباههم. وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتّى تبلّ ثيابهم، وكأنّ القوم باتوا غافلين. يعني من كان حوله^(٢).

أبو مسلم الخولاني:

وكان أبو مسلم الخولاني اليماني قد علّق سوطاً في مسجد بيته، يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفنّ بك زحفاً، حتّى يكون الكلل منك لا مني. فإذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه، ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي^(٣).

وكان يقول: أیظن أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله، لنزاحمهم عليه زحاماً، حتّى يعلموا أنهم قد خلّفوا وراءهم رجالاً!

(١) رواه أحمد في الزهد (١٢٣١).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٨٨/١٠).

(٣) المصدر السابق (١٢٧/٢).



صفوان بن سليم:

وكان صفوان بن سُليم المدني الفقيه العابد قد تعقدت ساقاه من طول القيام في الصلاة، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غدًا، ما وجد مزيدًا.

عبد الرحمن بن الأسود:

وقال محمد بن إسحاق بن يسار المدني: لما وردَ علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًا، اعتلّت إحدى قدميه، فقام يصليّ على قدم واحدة، حتّى صلّى الصبح بوضوء العشاء^(١).

سيما الصالحين:

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: سيما الصالحين، صفرة الألوان من السهر، وعمّش العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين.

وقيل للحسن البصري: ما بال المتهجّدين أحسن النّاس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نورًا من نوره^(٢).

وكان عامر بن عبد القيس البصري يقول: إلهي، خلقتني ولم تؤامرني، وتُمتيني ولا تعلمني، وخلقت معي عدوًا، وجعلته يجري مني مجرى الدم، وجعلته يراني ولا أراه، ثمّ قلت لي: استمسك. إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي، في الدنيا الهموم والأحزان، وفي الآخرة العقاب والحساب، فأين الراحة والفرح^(٣)؟

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (١٠٧)

(٢) رواه الآجري في قيام الليل (٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن (٩٥).

زمعة بن صالح العابد:

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب (موضع قرب مكة) وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرّسون، أكُل هذا الليل ترقّدون! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون، فيسمع من هاهنا باك، ومن هاهنا داع، ومن هاهنا قارئ، ومن هاهنا متوضئ. فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السُرى^(١). وهو السّير آخر الليل.

وقال بعض الصالحين من أهل المراقبة: بينما أنا أسير في مسير لي، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، وأستظل بظلها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ، فقال لي: يا هذا، قم فإن الموت لم يمت! ثمّ هام على وجهه، فاتبعته، فسمعتة وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، اللهمّ بارك لي في الموت. فقلت: وفيما بعد الموت. فقال: من أيقن بما بعد الموت شمّر مئزر الحذر، ولم يكن له في الدنيا مستقر.

ثم قال: يا مَنْ لوجهه عنت الوجوه، بيّض وجهي بالنظر إليك، واملاً قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذلّ التوبيخ غداً عندك، فقد آن لي الحياء منك، وحن لي الرجوع عن الإعراض عنك. ثمّ قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أمني. ثمّ مضى وتركني.

«فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النّفس ومراقبتها. فمهما تمردت نفسك عليك، وامتنعت من المواظبة على العبادة، فطالع أحوال هؤلاء، فإنه قد عز الآن وجود مثلهم. ولو قدرت على مشاهدة

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٦٨).

من اقتدى بهم، فهو أنجع في القلب، وأبعث على الاقتداء، فليس الخبر كالمعاينة.

وإذا عجزت عن هذا، فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمغزى، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم - أي: جماعتهم وكثرتهم - وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك.

ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى، وتقنع بالتشبه بالأغبياء، وتؤثر مخالفة العقلاء، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوىاء لا يُطاق الاقتداء بهم، فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس، لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة، فأخسيس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها»^(١).

المجتهدات في طاعة الله من النساء:

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات. فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة، قامت على سطح لها، وشدت عليها درعها وخمارها، ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها. فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهناً، أم رددتها علي فأعزى! وعزتك، لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني. وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت، لِمَا وقع في نفسي من جودك وكرمك.

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤١١ - ٤١٤).

ويروى عن عجدة أنها كانت تُحيي الليل، وكانت مكفوفة البصر؛ فإذا كان في السَّحَر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دُجى الليالي، يستَبِقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين، في درجة المقربين، وأن تُلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء، يا كريم. ثم تخرُّ ساجدة، فيسمع لها وجبة، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر^(١).

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شَعْوَانَة، فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت، فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك. قال: فأتيناها، فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً، فكان أقوى لك على ما تريد؟ قال: فبكت، ثم قالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي دمًا حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي، وأنى لي بالبكاء؟ وأنى لي بالبكاء؟ فلم تزل تردد: وأنى لي بالبكاء؟! حتى غشي عليها.

وقال عبد الله بن الحسن: كانت لي جارية رومية، وكنتُ بها معجباً، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي، فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقامت أطلبها، فإذا هي ساجدة، وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي! فقلت لها، بعد أن فرغت: لا تقولي: بحبك لي، ولكن قولي بحبي لك. فقالت: لا يا مولاي، بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٤٥) بنحوه.



أتراها تظنُّ أنك لا ترى سوء فعالها:

وقال أبو هشام القرشي: قدمت علينا مكة، امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية، فنزلت في بعض ديارنا. قال: فكنْتُ أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا، فقلت يوما لخادم لي: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها، فما رآها تصنع شيئا، غير أنها لا ترد طرفها عن السماء، وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك، فلتة بعد فلتة، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها؟ وأنت عليم خبير، وأنت على كل شيء قدير.

هل يوجد مع الله غربة؟

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ، وهو يقول: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ويبيكي. فلما قرب مني السواد، إذا هي امرأة عليها جبة صوف، وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فرعة مني. فقلت: رجل غريب. فقالت: يا هذا، وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقلولها، فقالت لي: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح، فأسرع في نجاحه. قالت: فإن كنت صادقاً، فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكي؟ قالت: لا. قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب. فسكت متعجباً من قولها.

ليت عفيفة إذا رفعت رأسها لم تعص:

وقال أحمد بن عليّ: استأذنا على عفيفة، فحجبتنا، فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك، قامت لتفتح الباب لنا، فسمعتها وهي تقول: اللهم إني

أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك. ثم فتحت الباب ودخلنا عليها، فقلنا لها: يا أمة الله، ادعي لنا. فقالت: جعل الله قراكم في بيتي المغفرة. ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمي أربعين سنة، فكان لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرة، فخر مغشياً عليه، فأصابه فتق في بطنه. فيا ليت عُفيرة إذا رفعت رأسها لم تعصر، ويا ليتها إذا عصت لم تُعد.

جارية سوداء من سبئي الحبشة:

وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق، ومعني جارية حبشية، فاحتبستها في موضع بناحية السوق، وذهبت في بعض حوائجي، وقلت: لا تبرحي حتى أنصرف إليك. قال: فانصرفت فلم أجدها في الموضع. فانصرفت إلى منزلي، وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأته عرفت الغضب في وجهي، فقالت: يا مولاي، لا تعجل عليّ، إنك أجلسني في موضع لم أر فيه ذاكرًا لله تعالى، فخفت أن يُخسف بذلك الموضع. فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرة. فقالت: ساء ما صنعت، كنتُ أخدمك، فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما.

بريرة العابدة:

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبّدت، وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت. فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء! فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها (أي: ننصحها ونلومها) في كثرة البكاء. قال: فدخلنا عليها، فقلنا: يا بريرة، كيف أصبحت؟ قالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة، ننتظر متى ندعى فنجيب! فقلنا لها: ما هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه! فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير، فما

يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر، فسيزيدهما بكاء أطول من هذا. ثم أعرضت عنا. قال: فقال القوم: قوموا بنا، فهي والله في شيء غير ما نحن فيه.

معاذة بنت عبد الله العدوية:

وكانت معاذة العدوية أم الصهباء البصرية، إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه. فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التي أموت فيها. فتصلي حتى تصبح.

رابعة العدوية:

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة، فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة تصلي وتبكي وتدعو إلى السحر. فلما كان السحر، قلت: ما جزاء من قوَّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له غدًا^(١).

زُجْلة العابدة:

وقال إبراهيم بن أحمد الخوَّاص: دخلنا على زُجْلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودَّت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت، وكانت تصلي قاعدة. فسلمنا عليها، ثم ذكرناها شيئاً من العفو، ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت، ثم قالت: علمي بنفسني قرَّح فؤادي، وكلم كبدي. والله لوددت أن الله لم يخلقني، ولم أك شيئاً مذكوراً. ثم أقبلت على صلاتها.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦٩)، وفيه: جعفر بن سليمان قال: ضفت عند رابعة. بدل أبو سليمان الداراني.

قال الإمام الغزالي بعد أن سردَ قصص العابدين والعبادات من المجتهدين والمجتهدات: «فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تُطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين، لينبعث نشاطك، ويزيد حرصك.

وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك، فإنك إن تُطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله.

وحكايات المجتهدين غير محصورة، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر. وإن أردتَ مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب: «حلية الأولياء»، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبُعد أهل عصرك من أهل الدين، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك، وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان، لكثرة الأعوان عليه، وأما الآن فإن خالفت أهل زمانك، رأوك مجنونًا، وسخروا بك، فوافقهم فيما هم فيه وعليه، فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم، والمصيبة إذا عمّت طابت وهانت.

فإياك أن تتدلَّى بحبل غرورها، وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أريت أيتها النفس، لو هجم سَيْل جارف، يُغرق أهل البلد، وثبتوا على مواضعهم ماكثين، ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت على أن تفارقهم، وتركبي في سفينة تتخلّصين بها من الغرق، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمّت طابت، أم تتركين موافقتهم، وتستجهلينهم في صنيعهم، وتأخذين حذرک ممّا دهاك؟!

فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق، وعذابُ الغرق لا يتمادي إلا ساعة، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد، وأنت متعرضةٌ له في كلِّ حال؟!!

ومن أين تطيبُ المصيبة إذا عمّت، ولأهل النار شُغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٢٣].

فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك، وحملها على الاجتهاد فاستعصت، ألا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها بعصا المواعظ والزواجر، وتعريفها سوء نظرها لنفسها، فعساها تنزجر عن طغيانها»^(١).

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤١٤ - ٤١٦).

وقفه مع مبالغات الصوفية في العبادة

ذكر الإمام الغزالي هذه الجملة الوافرة من الوقائع والحكايات عن المجتهدين في عبادة الله تعالى، نقلنا كثيرًا منها لما فيه من تقوية «الحوافز» على طاعة الله تعالى، وحسن التعبد له والتقرب إليه، والانتصار على «المثبطات» عن الجد في العبادة، وعلى الكسل عن استباق الخيرات واكتساب الصالحات، وأعرضنا عن البعض الآخر من الوقائع المروية؛ لأنَّ فيها مبالغات شديدة، لا يقبلها الشرع، ولا يستحسنها العقل، ولا يمكن تعميمها؛ لأنَّها غير مستطاعة لدى جمهور الناس، ولأنَّها لو اتَّسعت وانتشرت لأدت إلى وهن الأمة الإسلامية، وتخلفها عن سائر الأمم، بل لو ازداد اتساعها وانتشارها لأدت في النهاية إلى خراب العالم، الذي خلقه الله تعالى لنعم أرضه، ونقوم بخلافته فيه. كما قال تعالى على لسان نبيِّه صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ولا ريب أنَّ هؤلاء الذين غلوا في تعبدهم واجتهادهم إنَّما دفعهم إلى ذلك نيات صالحة، وقوة رغبة فيما عند الله من مثوبة، وابتغاء مرضاته وعِجَلِهِ، فأذهلهم ذلك عن الوقوف عند المنهج القرآني والنبوي المتوازن الذي شرعه الله للأمة الوسط، التي كلفها الله الشهادة على

الناس، وغفلوا عن تحذير الله تعالى وتحذير رسوله ﷺ من الغلو في الدين، كما حذر أهل الكتاب من قبلنا حين قال: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال الرسول ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»^(١)، وقال في مقام آخر: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» وكرّرها ثلاثاً^(٢). والمتنطعون هم المتعمقون المغالون المتشدّدون على أنفسهم وعلى النَّاس في فهم الدين والتعامل معه.

النية الصالحة لا تكفي وحدها لقبول العمل:

ومن المقرّر أنّ علماء هذه الأمة - حتّى علماء القلوب، والمشغولين بعلم الآخرة - يقرّون هذه الحقيقة، وهي أن النية الصالحة وحدها لا تكفي لقبول العمل عند الله تعالى، ما لم يكن مؤسّساً على المنهج الشرعي الذي يعبرون عنه بـ «السنة» أي: الطّريق النبوي.

سئل العالم الزاهد المعروف أبو علي الفضيل بن عياض عن قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. يا أبا عليّ، ما أحسن العمل؟ قال: أحسن العمل: أخلصه وأصوبه. قيل: وما أصوبه وأخلصه؟ قال: إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، ولا يُقبل إلا إذا كان خالصاً صواباً، وخلوصه: أن يكون لله. وصوابه: أن يكون على السنة^(٣).

(١) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن

ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، ثلاثتهم في الحج، والحاكم في الصوم (٤٦٦/١)،

وصححه على شرطهما، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٥٥)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٠)، وأحمد (٣٦٥٥)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨).

وهذا كلام في غاية الأصالة والدقة والروعة، من أحد الرجال الربانيين، الذين لهم قدم راسخة في التربية الإيمانية.

ولذا أعرضت عن ذكر عدد من القصص التي فيها مبالغة شديدة عامداً؛ حتى لا أشوّش على المسلم الراغب في سلوك طريق الآخرة، وفي إصلاح نفسه، وإصلاح الناس من حوله، والجمع بين دينه ودنياه، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وكان من دعاء النبي ﷺ الذي رواه مسلم: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شرٍّ»^(١).

من ذلك ما ذكره في «الإحياء» عن بعض المجتهدين: أنه كان يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه، فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى. ثم قال: عجبْتُ للخلقة كيف أرادت بك بدلاً منك؟ عجبْتُ للخلقة كيف أنست بسواك^(٢)؟!

وقد ذُكر عن غير واحد من المجتهدين أنه كان يصلي في اليوم ألف ركعة!

وأنا أسأل هنا: كيف يعدُّ هذا العدد الهائل؟! وهل ينبغي أن يشغل المتعبّد لله نفسه بعد هذا كله إذا كان ذلك ممكناً؟! وهل فعل الرسول ﷺ ذلك أو أمر به أحداً من أصحابه؟!

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٩).

وكيف يتسع الوقت لألف ركعة؟! هب أن الركعة تأخذ ٣ دقائق، فالألف ركعة تستغرق ثلاثة آلاف دقيقة، واليوم بليته هو «١٤٤٠» دقيقة (٦٠×٢٤) أي: أن الألف ركعة تحتاج إلى يومين بليتين، ثم متى يأكل؟ ومتى ينام؟ وفي اليوم أوقات يُنهي فيها عن الصلاة، مثل: ما بعد صلاة الفجر حتّى تطلع الشمس، وما بعد صلاة العصر حتّى تغرب الشمس.

ولو قلت: إنّ الركعة تأخذ دقيقتين لكانت الألف تستغرق ٢٠٠٠ دقيقة؛ ثمّ أليس على هذا الشخص أية مسؤولية أخرى نحو عمله الذي يعيش منه، نحو أهله وولده؟! ألا يبزر والده أو والدته؟! ألا يصل رَحِمًا؟! ألا يعود مريضًا؟! ألا يتبع جنازة؟! ألا يأمر بالمعروف؟ ألا ينهى عن المنكر؟! ألا يخدم المجتمع في دعوة أو تعليم؟!

ثم كيف يعدّ هذه الألف؟! وهل ينشغل بالصلاة أو بعدد الركعات؟! وذكر عن الجنيد أنه قال: ما رأيت أعبد من السّري (السقّطي)؛ أتت عليه ثمان وتسعون سنة، ما رُئي مضطّجًا إلا في علة الموت^(١)!

فهل هذا مقدور عليه بمقتضى الطبيعة البشريّة؟! ولا بدّ للإنسان من النوم والاضطجاع. وإذا كان مقدورًا عليه، فهل هو مطلوب من الناس؟! وقد أثنى الله على أولي الألباب من عباده بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذكر عن عبد الله بن داود قال: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة، طوى فراشه! أي: كان لا ينام طول الليل^(٢)!

(١) رواه القشيري في رسالته (٤٥/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٤١٠/٤).

وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة، ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة^(١)!

وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش، ونزل الماء في إحدى عينيه، ومكث عشرين سنة لا يعلم به أهله^(٢).

وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمَرْمَلُ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿[المزمل: ١-٤]، ثم خفف الله عنهم في آخر السورة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُحْصِيَهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿[المزمل: ٢٠].

فانظر كيف خفف الله عن صحابة رسوله، فلم يلزمهم بقيام الليل، لما ينتظرهم من مهام ومن ابتلاءات دينية، ودنيوية، جهادية، ومعيشية، واكتفى منهم بأن يقرؤوا ما تيسر من القرآن.

العناية بالكم على حساب كيف:

كما يؤخذ على هؤلاء المجتهدين في العبادة أنهم عُنُوا بالكم وبالإكثار من الصلاة والذكر والتسبيح والقيام والصيام، وهناك من علماء الطريق من يرى أن المدار على كيف لا على الكم، وأن المهم هو الإخلاص والصدق في الطاعة والعبادة، بحيث لا تشوبها شائبة، كما في الحديث: «أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ»^(٣).

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤١٠).

(٢) المصدر السابق (٤/٤١١).

(٣) رواه الحاكم في الرقاق (٣٠٦/٤)، وصححه إسناده، وتعقبه الذهبي فقال: لا. ولم يذكر سبب رده للتصحيح، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٤٤٤)، وضعفه بالإرسال - أي بالانقطاع: بين معاذ عن عمرو بن مرة الجملي - عن معاذ بن جبل.

وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَصُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

وقد روى أحمد بن أبي الحواري قال: دخلت على أبي سليمان الداراني رحمته الله، فقال: ما جئت به يا أحمد؟ قال: غبطت بني إسرائيل! قال: بماذا؟ قال: بثمانمائة عام يتعبدون فيها، حتى يصيروا كالأوتار والحنايا، وكالشنان (القرب) البالية من العبادة! فقال: ما ظننتك قد جئت بشيء والله! ما يريد الله منّا أن تيبس جلودنا على عظامنا، ولا أن نصير كالأوتار وكالحنايا وكالشنان! إنه لا يريد إلا صدق النية، هذا إذا صدق في عشرة أيام، نال ما ناله ذلك في عمره الطويل^(٢) اهـ.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله في «حكمه»: «رُبَّ عَمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عَمْرٍ قَلِيلَةُ أَمَادِهِ، كَثِيرَةُ أَمْدَادِهِ!».

وقال أيضاً: «ومن بُورِكَ له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة!»^(٣).

إضاعة أصناف من العبادات:

وكذلك ممّا يمكن أن يقال لهؤلاء المجتهدين في العبادات الشعائرية المعروفة: إنكم حرمت أنفسكم من ألوان كثيرة من العبادات، مثل: إغاثة الملهوف، وتنفيس الكربة عن المكروب، ومسح دمة المحزون، ومسح رأس يتيم، وإعانة أرملة ضعيفة، والأخذ بيد مسكين محروم، وإطعام كبد جائع، وكسوة عريان، وتعليم جاهل، وتنبيه عاقل، وتذكير ناسٍ،

(١) سبق تخريجه ص ٩٦، وفيه: «التقوى هاهنا».

(٢) انظر: شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق ص ٤٣٩.

(٣) شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق ص ٤٣٨، ٤٣٩.

وإرشاد ضالّ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتفقيه الناس في دينهم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك ممّا يُسمّى في الحديث «صدقة»، فهذا من العبادات إذا صدقت فيه النية، وأدّى على وجهه.

بل العمل الدنيوي ضرب من العبادة، إذا نوى المسلم به الخير وقام بحقه من الأمانة والإنفاق، ومراعاة حدود الله وحقوق الناس.

بل الشهوة إذا قَصِدَ بها وجه الله، كانت عبادة، كما في الحديث الصحيح: «وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟! قال: «أليس إذا وضعها في حرامٍ كان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كان له أجر»^(١).

ونقل الغزالي عن صفوان بن سليم: أنه كان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد، وإذا كان الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام^(٢)!

فهل هذه الوقائع والحكايات موافقة لما جاء في كتاب الله، أو لما صحّ في هدي النبي محمد ﷺ؟! ومن المتفق عليه أن أصدق الحديث كتاب الله، وأن خير الهدي هدي محمد ﷺ، لقد قال النبي ﷺ، للثلاثة من أصحابه، الذين سألوا أهل بيته عن عبادته، فاستقلّوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر. وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أنام. وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال:

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٤١٢).

«أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطُرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

ولمَّا بلغه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَا يَنَامُ، وَيَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ فَلَا يَفْطُرُ، وَأَنَّهُ أَهْمَلُ زَوْجِهِ، فَلَا يُعْطِيهَا كُلَّ حَقِّهَا، أَحْضَرَهُ، وَقَالَ لَهُ: «لَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَبَحْسِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»^(٢).

وفي إحدى روايات الحديث ذَكَرَ لَهُ: أَنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيَفْطُرُ يَوْمًا^(٣).

وكذلك فعل سلمان مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنه، وأقره النبي ﷺ^(٤).

فهذا هو النهج الراشد المعتدل الذي هدى إليه الرسول الأمين، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وليتنا نقتصر عليه، ونسعى جهدنا في أدائه وتعليمه للأمة، لتربي أبنائها وبناتها عليه.

* * *

(١) سبق تخريجه ص ١٥٩.

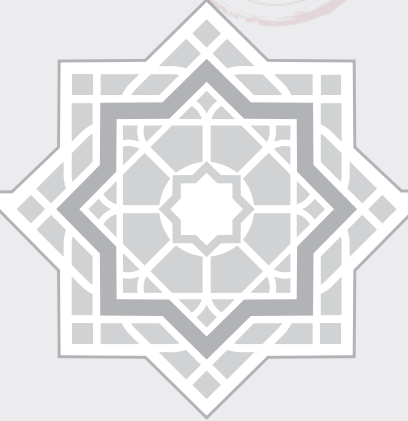
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨).



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.





فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾	٧ - ٢	٨٣ ، ٨٥
﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾	٤	٨٣ ، ٢٤٧
سورة البقرة		
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾	٣٤	٢١٨
﴿ فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾	٣٧	٢١٧
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾	٤٠	٤٠
﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾	١١٠	٢٣٧
﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾	١١٥	٢٠٦
﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾	١٣٠ - ١٣٣	١٦٥
﴿ فَادْكُرُوايَ أذْكَرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾	١٥٢	٢٦٠
﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾	١٥٥ ، ١٥٦	١٧٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمُرَوَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ ﴾	١٥٨	١٥٧
﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾	١٧٧	٢٥٠
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾	١٧٩	٨٣
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾	١٨٠	١٦٢
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾	١٨٥	١٨٩
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾	١٨٦	٢٣٩
﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾	١٨٧	١٥٩
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾	١٨٨	٨٤
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾	١٨٩	١٧١
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾	١٩٥	١٤٦، ٩٩
﴿ وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾	١٩٦	١٥٧
﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ ﴾	١٩٧	١٩٤، ١٧٠
﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ ﴾	٢٠١	٢٩٦
﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	٢١٢	١٠٩
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾	٢١٤	١٣
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾	٢١٧	١٧٣
﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾	٢٣٠	٦٠
﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَقَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾	٢٣٤	١٧٠
﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾	٢٣٥	٢٣٥، ٥٠، ٣٣، ٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾	٢٣٨ ، ٢٣٩	٢٠٧
﴿ وَلَا يَتُودُهُ حَفَظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾	٢٥٥	٢٤٧ ، ٢٣٤
﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ ﴾	٢٦٩	٢٢
﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾	٢٧٨ ، ٢٧٩	٨٤
﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ﴾	٢٨١	٢٤١
سورة آل عمران		
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾	٥	٣٥ ، ٧
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾	٧	٢٢
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾	١٤	١٤
﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	٢٧	١٠٩
﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ ﴾	٣٠	٢٤٣ ، ٢٤١
﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾	٦٤	٨١
﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾	٧٩	٢٦٢
﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾	٩٧	١٥٦ ، ١٧٢
﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾	١٠٢	٢٦١
﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾	١٢٠	٩٥
﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ ﴾	١٣٣	٢٢٥
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ﴾	١٨٥	٢٨٦
﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾	١٩١	٢٩٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النساء		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾	١	٤، ٢٨، ٣٢، ٥٥، ٢٣٣، ٢٣٤
﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾	١٤	٢١٨
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾	٣١	٨٥
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾	٣٦	٢١٩
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾	٤٠	٢٢٥
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾	٨٦	٢٣٨
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾	٩٤	٢٤٠
﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾	١٠٢	٢٠٧
﴿وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾	١١٣	٧٧
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾	١٣١	٩٥
﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾	١٣٤	٢٣٧
﴿وَكُفِّنِي بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾	١٦٦	٢٣٩
سورة المائدة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾	٢	١٧٣
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾	٣	٢٦٠
﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	٨	٢٤٠
﴿فَنُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾	٢٧ - ٣٠	١٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾	٤٨	٢٢٥
﴿ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾	٧٧	٢٩٥
﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾	٨٨	٩٤
﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾	٩٣	٩٤، ٩٣
سورة الأنعام		
﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾	٣٨	٨٥
﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ ﴾	٥٩	٢٣٦، ٢٣٥
﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ ﴾	٦٢	١١٠
﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾	٩٦	١٠٩
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾	١١٢	١٥
﴿ وَذَرُوا ظِلَهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ ﴾	١٢٠	١٣٠، ١٠٢
﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾	١٢٢	٢٢
﴿ وَءَاتَوْا حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾	١٤١	١٧٣، ١٧٢
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾	١٥٣	٢٦١، ٩
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	١٦٣، ١٦٢	٧١
سورة الأعراف		
﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾	٦	٢٤٥
﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾	٩، ٨	٢٤٤
﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ﴾	١٠	٢٢٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾	١٢	٢١٨
﴿فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	١٦، ١٧	١٤، ٧٣
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾	٢٣	٢١٧
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾	٩٦	٩٥
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾	١٧٩	٢٩
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾	١٨٠	٢٣٢
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	٢٥١
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾	١٩٤	٧٢
﴿أَمْ لَهُمْ آعِينَ يُبْصِرُونَ﴾	١٩٥	٢٣٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾	٢٠١	٣٢، ١٠٢، ١٢٢، ١٤٦
سورة الأنفال		
﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	١٩	٩٠، ٢٣٥
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾	٢٩	٩٥
سورة التوبة		
﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾	١٩	١٣٩
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾	٣٦	٩٠، ١٧١، ١٧٢، ١٩٤
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾	٣٨	١٥٧
﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾	٤٠	٩١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	٦٣	٢٣٥
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾	٧٢	٨
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾	١١٩	٢٥٠
سورة يونس		
﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾	٥	١٠٩
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾	٦١	٦٠، ٦٦، ٢٣٦، ٢٣٥
﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	٦٢	٩٦، ٦٧
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾	٦٣	٩٦
﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	١٠١	٢٩
سورة هود		
﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾	٦	١٦٨
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾	٧	١٥٠
﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾	٦١	٢٣٨، ٢٩٤
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾	١١٤	٢٠٥، ٢١٠
سورة يوسف		
﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾	١٦ - ١٨	١٩
﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾		
﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾		

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾	٢٣	١٠٣، ١٠٤
﴿ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾	٢٤	١٠٣
﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾	٣٢	١٠٣
﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾	٣٣	١٠٣
﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾	٥٣	١٨، ١٤
سورة الرعد		
﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ ﴾	١٠	٢٣٦
﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾	٢٨	٢٣
﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾	٣٣	٣٢، ٤
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾	٣٨	١٦١
سورة إبراهيم		
﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾	٧	٢٦٠، ١٥١
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾	٣٤	١٣٤، ١٨
﴿ وَاجْتَبَيْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ ﴾	٣٥	١٦٥
﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾	٤٠	١٦٥
سورة الحجر		
﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	٩٣، ٩٢	٢٤٥
﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾	٩٩	١٦٧
سورة النحل		
﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٨	٢٤٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾	٩	٧٧
﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾	٤٣	٧٧
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾	٧٢	١٥٩
﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾	٧٧	٢٤٨
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ﴾	٩٧	٩٠
﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾	١١١	٢٤١
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾	١٢٨	٢٣٥، ٩٠
سورة الإسراء		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	١	١٨٤
﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْبُولًا﴾	١١	١٨
﴿لِنَعْلَمَ مَا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾	١٢	١٠٩
﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾	١٣، ١٤	٢٤٢
﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَسْمَعَ وَالْبَصَرَ الْفُؤَادَ﴾	٣٦	١٣٥، ١٣٠، ٧٦
﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٥٣	٢٢٥
﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾	٦٢ - ٦٥	٧٣
﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾	٩٦	٢٣٩
﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾	١٠٠	١٨
سورة الكهف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٧	١٥٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾	٢٨	٢٥١، ٢٦٢
﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾	٤٩	٢٤٢، ٢٦١
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾	١١٠	٧١
سورة مريم		
﴿يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾	٤٢	٢٣٧
﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾	٦٣	٩٥
﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾	٦٥	١٣
﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧١ - ٧٢	٩٥
سورة طه		
﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾	٧	٣٢، ٣٣، ٦٠، ٢٣٦، ٢٣٥
﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾	٤٣ - ٤٥	٩٢
﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾	٤٦	٩٢، ٥٠
﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾	٥٥	٢٩
﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾	٨٨	١٩
﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾	٩٦	٢٠
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾	١٢١، ١٢٢	٢١٧
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾	١٢٤	٢٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾	١٢٦	٢٣
﴿ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾	١٣٢	٢٦٢
سورة الأنبياء		
﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴾	٧	٧٧
﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾	٨	٢٢١
﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾	٢٨	٢٤٧
﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾	٤٧	١١١، ١١٠، ٦١، ٧، ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٣٨
سورة الحج		
﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾	٢، ١	٢٤٩
﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْبُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾	٣٢	٢١٥، ٩٦
﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾	٧٥	٢٣٧
سورة المؤمنون		
﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾	٢، ١	٢٠٨، ٩٩
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾	٩	٢٠٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾	٥٧ - ٦١	٢١٦
﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴾	١٠٤ - ١٠١	٢٤٤
سورة النور		
﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾	١٢، ١٣	٨٧
﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّلَامِ قَالُوا قُلْ بَشِيرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ عَلَمٌ ﴾	١٥	٨٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ ﴾	١٦	٨٧
﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	٢٤، ٢٥	٢٤٦
﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	٣١	٢٢٨، ١٢٢
﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾	٣٢	١٦٠، ١٥٩
﴿ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾	٣٦، ٣٧	٢٤٨
﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾	٣٧	٢٤٨، ٢٢٢
سورة الفرقان		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾	٢٠	٢٢١
﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾	٢٧، ٢٨	١٥
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾	٣١	١٥
﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾	٥٤	١٥٩
﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾	٦٤ - ٦٦	٢١٠
﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾	٦٨ - ٧٠	٨٥
سورة الشعراء		
﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾	٦١، ٦٢	٩٢، ٩١
﴿ أَنْ أُضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾	٦٣ - ٦٦	٩٢
﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾	٨٨، ٨٩	٢١٥
﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾	١١٣	١١٠
﴿ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴾	٢١٨، ٢١٩	٣٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النمل		
﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾	١٩	١٦٥
﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾	٢٥	٢٣٦
﴿وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْفِقُونَ﴾	٥٣	٩٥
﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾	٦٥	٢٣٥
﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ﴾	٨٨	٩٧
سورة القصص		
﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾	٧٧	٧٩
سورة العنكبوت		
﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾	٢	١١٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾	١٧	٧٢
سورة الروم		
﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾	٢١	١٥٩
سورة لقمان		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾	١٦	٢٤٠
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾	٣٣	٢٤٩
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾	٣٤	٢٤٠
سورة السجدة		
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾	٧	٩٧
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	١٧	٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحزاب		
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾	٥٢	٢٣٣، ٢٨
﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾	٦٧	١٥
﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾	٧٢	١٧
سورة سبأ		
﴿وَرُبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾	٢١	٢٣٤
﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾	٥٠	٢٣٩
سورة فاطر		
﴿فَلَا تَعْرَظْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾	٥	٢١٧
﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾	١٤	٢٣٧
﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ﴾	٣١	٢٤٠
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾	٣٢	١٢١، ٢٠
سورة يس		
﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾	٦٥	٢٤٦
سورة الصافات		
﴿أَءَنَّا لَمَدِينُونَ﴾	٥٣	١١٤
﴿يَبْنِي إِلَهِي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آتِيَّ أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ^٤ ﴾	١٠٢	١٩٦
سورة ص		
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾	٢٦	١٠٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزمر		
﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾	٣	٧٢
﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	١٠	١٠٩
﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾	٤٧	٢٨٩
﴿ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾	٥٦	١٣٣
سورة خافر		
﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾	١٦، ١٧	٢٤٧
﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾	١٩	٢٣٥، ٣٢
﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾	٤٦	٢٤٨
سورة فصلت		
﴿ وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾	١٠	٢٢٢
﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾	١٩	٢٤٦
﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾	٢٠، ٢١	٢٤٦
﴿ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ ﴾	٢١	٢٤٦
﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ ﴾	٢٢	٢٤٦
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾	٣٣	٢٦١
﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾	٥٣	٢٣٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشورى		
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾	٢٠	١٣٢
﴿وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾	٣٧	١٤٧
سورة الزخرف		
﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾	٢٣	٢٩٣
﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾	٦٧	٢٥١، ٢٥١
﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ﴾	٨٠	٢٤٢
سورة الدخان		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾	٤، ٣	١٨٨
سورة الجاثية		
﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٢٩	٢٤٢
سورة الأحقاف		
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾	١٥	١٦٤، ١٦٥
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾	٤	٢٣
﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾	١٨	٢٣
سورة الحجرات		
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾	٨، ٧	٢٦٠
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾	١٠ - ١٢	٢٢٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾	١٤	٢١٥
﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾	١٥	٢٥٠
﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ ﴾	١٧	٢٦٠
سورة ق		
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِءَ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾	١٦	٢٣٨ ، ٣٣
﴿ إِذْ يَتْلَفِي الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ ﴾	١٧ ، ١٨	٢٤٢
﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾	٣٣	٢١٥
سورة الذاريات		
﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾	١٧ ، ١٨	٢١٠
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾	٥٦ ، ٥٧	٨١
سورة النجم		
﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾	٢٦	٢٤٧
﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾	٣٢	١٤٧
سورة الرحمن		
﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾	٥	١٠٩
﴿ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾	٤٦	٦٥
﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾	٥٠	٦٦
﴿ مِن كُلِّ فَكَهَةٍ زَوْجَانِ ﴾	٥٢	٦٦
﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾	٦٠	٦٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾	٦٦	٦٦
﴿فَكَهْمُهُ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾	٦٨	٦٦
سورة الواقعة		
﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾	٨٣	٢٣٨
﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ	٨٤ - ٨٥	٢٣٨
سورة الحديد		
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾	٤	٣٣، ٣٥، ٦٠، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠
﴿أَعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾	٢٠	١٤
﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾	٢١	٢٢٥
سورة المجادلة		
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾	١	٢٣٦
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾	٦	٦٠، ١٢٥، ٢٣٩
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	٧	٦٠، ٩٠، ٢٣٩
﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	١٣	٢٤٠
سورة الحشر		
﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾	٧	١٠١
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَتَّ لِعَدِّ﴾	١٨	٤، ١١٢، ١٢٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الجمعة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾	٩	٢٠٢
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾	١٠	٢٠٢، ١٦٩
سورة الطلاق		
﴿وَمَنْ يَعِدْ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾	١	٧٨
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾	٢	٩٥
﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾	٣	١٤٧، ٩٥
﴿وَالَّتِي بَاسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ﴾	٤	١٧٠، ٩٥
سورة التحريم		
﴿نَبَأْنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾	٣	٢٤٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾	٦	٢٦٢، ٨٨
سورة الملك		
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٢	٢٩٥، ١٥٠، ٩٧
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾	١٣، ١٤	٢٣٧، ٣٢
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾	١٥	١٦٨
سورة الحاقة		
﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ، بِإِمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْبِي﴾	١٩ - ٢٤	٢٤٦، ٢٤٣
﴿يَلْبِسُنِي لَمْ أَوْتِ كَيْبِي * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي * يَلْبِسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾	٢٥ - ٢٩	٢٤٣

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
سورة المزمل		
٢٩٨	٤ - ١	﴿يَأْتِيهَا الزَّمْلُ﴾ قُرْ الْإِلَّ إِلَّا قَلِيلًا ﴿نُصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾
٢٤١	١٧	﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾
٢٩٨	٢٠	﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي إِلَّالٍ وَنُصْفَهُ، وَثُلُثَهُ﴾
سورة المدثر		
١٦٧	٤٧ - ٣٨	﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾
سورة القيامة		
١١٣، ٢٠	١	﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾
٢٥٣، ١١٣، ٢٠	٢	﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾
١١٣	١٥، ١٤	﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾
٧٧	١٩	﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾
سورة الإنسان		
٢٤٩	١٢ - ٧	﴿يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾
سورة النازعات		
٢٤٨	٤٦	﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾
سورة عبس		
٢٤٩	٣٧ - ٣٤	﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿وَصَحْبُهُ وَبَنِيهِ﴾
سورة الانفطار		
٢٤٢	١٢ - ١٠	﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿كِرَامًا كَنِينٍ ﴿يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾
٢٤٧	١٩ - ١٧	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الانشقاق		
﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾	٧ - ٩	٢٤٦
سورة البروج		
﴿ الَّذِي لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾	٩	٢٣٩
سورة الغاشية		
﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾	٢٥ ، ٢٦	٢٤٥
سورة الفجر		
﴿ وَلَيْالٍ عَشْرٍ ﴾	٢	١٩٤
﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾	١٤	٣٥
﴿ يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾	٢٧ - ٣٠	٢٣
سورة الشمس		
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾	٧	١٧
﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾	٨	١٧ ، ١٦
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾	٩	١٧
سورة الليل		
﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾	١٢	٧٧
سورة الشرح		
﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾	٧ ، ٨	١٦٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العلق		
﴿الْمَرِئِمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾	١٤	٢٣٧، ٦٠، ٣٢
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	٢١٦، ١٣١
﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾	٨	٤٩
سورة الزلزلة		
﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾	٦	٢٤٣، ٢٤١، ٦١
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	٨، ٧	٢٤١، ٦١، ٧
سورة العاديات		
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾	٦	١٨
سورة التكاثر		
﴿ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾	٨	٢٤٥
سورة الماعون		
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ * ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ * ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ * ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ * ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ * ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءَوْنَ﴾ * ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾	٧ - ١	٢٢٠
سورة الكوثر		
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾	٢	١٩٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾	١	٢١١
سورة الفلق		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾	١	٢١١
سورة الناس		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾	١	٢١١

* * *







فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحدث	رقم الصفحة
أ	
اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ	٣٧، ٥
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك	٩٣، ٥٥
احفظ الله تجده تجاهك	٤٠
اجتنبوا السبع الموبقات	٨٦
أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ	٢٩٨
إذا أتاكم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فزَوْجُوهُ	١٦١
إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله	٢١٣
إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وصُفدت الشياطين	١٨٩
إذا سألتُم الله فاسألوهُ الفردوسَ، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة	٢٢٥
أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات	٢٠٥
استحيوا من الله عَجَلًا حقَّ الحياء قال: قلنا: يا رسول الله	٤٣
اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك	٤٨
اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك من الموتى	٤٣
اعبد الله كأنك تراه وكن في الدنيا كأنك غريب	٥٧

رقم الصفحة	الحديث
١٦٧	أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة
١٦٧	أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك
٢٦٤	اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك
٥٧	أفش السلام وابذل الطعام واستح الله استحياء رجل ذي هيبة
١٧٤	أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة
٢١٤	أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصَلَّتْ عليكم الملائكة
٢١١	أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا؟
٢١٥	ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله
٢١٣	الله أكبر - ثلاث مرات - سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين
٢٩٦	اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري
٢١٤	اللهم أطعمت وأسقيت وأقنيت وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت
٢٦٣	اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني
٢١٣	اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك
٢٦٣	اللهم إني أسألك العفو والعافية
٢١٣	اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل، أو أزل، أو أظلم أو أظلم
١٩٩	اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام
١٥٩	أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد
١٤٢	أمك قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك
١٣٦	إن الله عجل لي تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم به
١٦٣	إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث
٩٧، ١٢١، ١٦٩، ١٤٦	إن الله كتب الإحسان على كل شيء



رقم الصفحة	الحديث
٢٩٩، ٢١٥، ٩٦	إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَصُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ
١٤٦، ١٢١	إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ
٩٦	إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمَلَ أَنْ يُحْسِنَ
٥٤، ٣٦، ٣٥ ٢٣٣، ٦٥	أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ
٩٨	إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْلِيَ وَلَعَلَّهُ أَلَّا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عَشْرُهَا، أَوْ تُسَعِّهَا
٣٠١	إِنْ لَرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ
٣٠١	أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّنِي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ
١١٠	إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ
٨٦، ٤٠	إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ
٢١٦	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
٢٥٢، ١٢٢	إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ
١٤٨	إِنِّي كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي، فَأَكَلْتُهَا، ثُمَّ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَهَذَا الَّذِي أَرَّقَنِي
٥٧	أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ أَنْ أَخْشَى اللَّهَ كَأَنِّي أَرَاهُ
٢١١	أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ
١٨٠	أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلُ
١٨٠	أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ
٢١٧	إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا
٧٦	إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ
٢٩٥	إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفَ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ
٨٨	إِيَّاكُمْ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ



رقم الصفحة	الحديث
١٩٨	أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى
٥	الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث
١٣٩	الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله
٢١٠	أيها الناس، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام
١٥٦	أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا
ب	
٢١٣	باسم الله، اللهم صل على محمد. وإذا خرج قال: باسم الله
٢١٢	باسمك ربّي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها
٤١	بينما ثلاثة نفر يمشون، أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل
ت	
٩٩	تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب قرص الشمس
ث	
٢١٧	ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه
١٦٠	ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله
١٦٨	ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم
١٦٤	الثلاث، والثلاث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة
ح	
١٩٧	الحج عرفة
١٩٨	الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة
٢٠٩	حفظت عن رسول الله ﷺ عشر ركعات

رقم الصفحة	الحديث
٢٠٢	حقٌّ على كلِّ مسلمٍ في كلِّ سبعةِ أيامٍ يومٌ يغسل فيه رأسه وجسده
٢٢٠	حقُّ المسلم على المسلم ستُّ قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟
١٤٧، ٨٢	الحلال بيِّن والحرام بيِّن
٢١٢	الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور
٢١٤	الحمدُ لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوَّة
٢١٤	الحمدُ لله الذي جعله عذاباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا
٢١٢	الحمدُ لله الذي عافاني في جسدي، وردَّ عليَّ رُوحِي، وأذنَ لي بذكرِهِ
٢١٤	الحمدُ لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفيٍّ، ولا مودَّعٍ، ولا مستغنٍ عنه ربَّنَا
٤٣	الحياءُ من الإيمان
ذ	
١٠٠	ذاك الذي عليك، فإن تطوعتَ بخيرٍ، آجركَ الله فيه، وقبَلناه منك
١٨٠	ذلك يومٌ وُلِدْتُ فيه
ر	
٢٢٠، ٨٢	الراحمون يرحمهم الرحمن
١٨٥	رجبُ شهر الله، وشعبانُ شهري، ورمضانُ شهر أُمَّتِي
١٥٥	رُفِعَ الْقَلَمُ عن ثلاثة: عن الصَّبِيِّ حتَّى يحتلمَ، وعن النَّائم حتَّى يستيقظَ
س	
١٠٤، ٤٢	سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: الإمامُ العادل
ش	
١٨٨	شهرٌ يغفلُ النَّاسُ عنه بين رجبٍ ورمضان

رقم الصفحة	الحديث
ص	
١٨٦	صَمُّ مِنَ الْحُرْمِ وَاتْرُكُ
٢٠٠	صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ صَوْمُ الدَّهْرِ وَإِفْطَارُهُ
٢٠٠	صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ (أَيَّ رَمَضَانَ) وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ
٢٠٠	صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ
١٧٤	صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ
١٩٥	صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي لَأَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالَّتِي بَعْدَهُ
ع	
٥٨	عَرَفْتُ فَالزَّمْ. عَبْدُ نَوَّرِ اللَّهِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ
٢٦٢	عَلِّمُوهُمْ الْخَيْرَ
غ	
٢٠٢	غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ
ف	
٧٦	فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مَطَاعًا، وَهَوًى مَتَّبَعًا، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ
١٩١	فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ
ق	
٨٣	قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ
ك	
٢٠٨	كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ
٢١٢	كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلِّ لَيْلَةٍ
٦٨	كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ



الحديث	رقم الصفحة
كلُّ جسمٍ نَبَتَ من حرامٍ فالنَّارُ أولى به	٨٩
كُنَّا نَعُدُّ له في المجلس الواحد مائة مرة	٢٥٢
الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها	١١٤، ٥
ل	
لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن عمره فيم أفناه	٢٤٥
لا تفعلْ، صُمْ وأفطرْ، وقُمْ ونَمْ، فَإِنَّ لجسَدِكَ عليك حقًّا	٣٠١
لا عدوى ولا طيرةَ ولا هامةَ ولا صَفَرَ، وفِرَّ من المجذوم	١٧٩
لا يبلغُ العبدُ أن يكون من المتّقين، حتّى يدعَ ما لا بأسَ به حذرًا لما به بأس	١٤٧، ٣٠
لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاثٍ	١٩٦
لا يدخلُ الجَنَّةَ إلّا رحيماً قالوا: كُلُّنا رحيماً يا رسولَ الله!	٢١٩
لا يدخلُ الجَنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من كِبَرٍ	٢١٧
لا يقبلُ اللهُ صلاةً بغيرِ طُهورٍ، ولا صدقةً من غُلُولٍ	٢٠٨
لئن عشتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التاسعَ	١٧٤
لن تزولَ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتّى يُسألَ عن أربعٍ: عن علمه ماذا عمِلَ به؟	٢٢٣
م	
ما آمنَ بي من باتِ شبعانَ وجارُه جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم	٢١٩
ما أسرَّ عبدٌ سريرةً، إلّا ألبسه اللهُ رداءها علانيةً، إنَّ خيرًا فخيرٌ، وإنَّ شرًّا فشرٌّ	٣٨
ما تقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه	٢١٠، ١٩٣
ما تقَرَّبَ المتقرَّبونَ إليَّ بمثلِ أداءٍ ما افترضتُ عليهم	١٤١
ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يريدُ أن يوصيَ فيه يبيتَ ليلتين	١٦٢
ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ استكملَ صيامَ شهرٍ قطٍ إلّا رمضان	١٨٧

رقم الصفحة	الحديث
١٩٤	ما من أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام
٢٠٩	ما من عبدٍ مسلمٍ يصلي لله تعالى كلَّ يومٍ ثِنْتَي عشرة رَكعةً تطوُّعًا
٢٢٠	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
٢٦٦	من أفطر يومًا من رمضان متعمدًا من غير عذر
٨٢	من أَمَنه النَّاسُ على دِمَائِهِم وأَمْوَالِهِم
١٥٨	من جَهَّزَ غَازِيًا في سبيلِ الله فقد غزا، ومن خَلَفَ غَازِيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا
١٩٨	من حجَّ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجعَ من ذنوبِهِ كيومِ ولدته أمُّهُ
٧٧، ٥	مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ
١٥٨	مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ
١٩١	مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
١٩٣	من صامَ رمضانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا من شَوَّالٍ كانَ كصيامِ الدَّهْرِ
٢١٢	مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ
١٩١	مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
١٩١	من قام ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
١٥٨	من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدث به نفسه، مات على شُعبةٍ من نفاق
١٧٥	مَنْ وَسَّعَ عَلَى أَهْلِهِ فِي عَاشُورَاءَ، وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي سَنَتِهِ
٢٦٢، ٨	مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ
ن	
١٨٠، ١٧٤	نحن أولى بموسى منكم
٢٦٣	نِعْمَتَانِ مَغْبُوتٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ



رقم الصفحة	الحديث
هـ	
٢٩٥	هلك المتنطعون
٢٠٨	هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها
و	
١١٤	والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي
١٩٣	وصيام شهر رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بعده بشهرين
٢٦٣	وعافني فيمن عافيت
١٧٩	وَفِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ
٣٠٠	وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله
١٣٨	وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان
ي	
٩١	يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾
٢٥٢	يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة
٨٧	يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته
٢٢٨	يا عبادي، إنكم تذبنون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً
٣٩	يا غلام، إنني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك
١٦٠	يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج
٢٢٢	يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه: أمن الحلال أم من الحرام؟
١٨٩	يطلع الله ﷻ إلى خلقه ليلة النصف من شعبان
٢٤٥	يُنظر في عقابك وذنوبهم، فإن كان عقابك دون ذنوبهم، كان لك الفضل



فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤
- ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥
- مقدمة ٧
- تمهيد: المراقبة والمحاسبة ١١
- ❖ ١ - خصائص الطريق إلى الله ١٣
- ❖ ٢ - كلمة عن النفس البشرية ١٦
- ١ - النفس الأمّارة بالسوء ١٦
- الصفات المذمومة في الإنسان ١٧
- أول خطيئة وقعت في الأرض ١٩
- ٢ - النفس اللّوامة ٢٠
- الضمير الحي ٢١
- ٣ - النفس المطمئنة ٢٢
- كيف تطمئن النفس؟ ٢٢
- الفصل الأول: المراقبة ٢٥
- ❖ ١ - المراقبة معناها وفضلها وأهميتها ٢٧
- ما المراقبة؟ ٢٧



- ٢٧ من أسماء الله الحسنى: الرقيب
- ٢٨ المراقبة الذاتية من داخل الإنسان
- ٢٨ آفة الغفلة
- ٣٠ أهمية الرقابة الذاتية
- ٣٢ رقابة الله سبحانه على خلقه
- ٣٣ المؤمن الحق يراقب الله
- ٣٤ المراقبة التي تصنع القلب الحي
- ٣٤ الآيات والأحاديث الواردة في المراقبة
- ٣٦ كلام قيم لابن القيم على قول رسول الله في الإحسان
- ٣٧ اتق الله حيثما كنت
- ٣٩ احفظ الله يحفظك
- ٤٠ مراقبة الصحابة
- ٤١ أحاديث نبوية أخرى عن المراقبة
- ٤٥ من أقوال السلف في المراقبة
- ٤٦ حكايات عن المراقبة
- ٤٨ كلام الحارث بن أسد المَحَاسبي عن المراقبة
- ٥٢ كلام ابن القيم في المراقبة
- ٥٤ ٢ - حقيقة المراقبة ودرجاتها
- ٥٤ الإحسان بين المشاهدة والمراقبة
- ٥٦ المشاركة والمرابطة قبل المراقبة والمحاسبة بعدها
- ٥٩ حقيقة المراقبة
- ٥٩ أولها: العنصر المعرفي في المراقبة
- ٦١ ثانيها: العنصر النفسي الشعوري في المراقبة



- ٦١..... ثالثها: العنصر الحركي العملي السلوكي في المراقبة
- ٦٢..... المراقبة على درجتين
- ٦٢..... درجة المقرين
- ٦٣..... استغراق الصالحين بمشاهدة الله تعالى
- ٦٤..... درجة أصحاب اليمين
- ٦٥..... اختلاف الجزاء بين المقرين وأصحاب اليمين
- ٦٦..... أقسام المراقبة

❖ ٣ - مراحل المراقبة

- ٦٨..... المراقبة قبل العمل وبعده
- ٦٨..... المراقبة بالنظر قبل العمل
- ٦٩..... وقفة مع النفس قبل العمل
- ٧٠..... ثلاثة أسئلة يسأل عنها الإنسان عند كل عمل: لماذا؟ وكيف؟ ولمن؟
- ٧١..... اعبد الله كأنك تراه
- ٧١..... التوقف قبل العمل واجب محتوم على أهل المراقبة
- ٧٣..... ضرورة العلم المتين بأغوار النفس وآفات الأعمال لأهل المراقبة
- ٧٤..... الهم بالمعصية هو الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع
- ٧٥..... الاستضاءة بنور العلم وعلماء الدين
- ٧٦..... التحذير من الخوض في الشبهات
- ٧٧..... المراقبة عند الشروع في العمل
- ٧٨..... المراقبة في الطاعة والمعصية والمباح
- ٧٨..... أحوال العبد في المراقبة
- ٧٩..... الساعات ثلاث
- ٧٩..... الحذر من طول الأمل



❖ ٤ - مجالات المراقبة ٨١

- ١ - أن يراقب الله في أداء حقوقه سبحانه ٨١
- ٢ - أن يراقب الله في أداء حقوق نفسه وحقوق خلقه ٨٣
- ٣ - أن يراقب الله في أداء ما بعد الواجبات ٨٤
- ٤ - أن يراقب الله في ترك المحرمات: كبائر وصغائر ٨٥
- ٥ - أن يراقب الله في ترك الشبهات والمكروهات ٨٨
- ٦ - راقب الله في أمورك كلها ٨٨

❖ ٥ - من ثمرات المراقبة ٩٠

- ١ - الشعور بالسكينة والقوة ٩٠
- ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ٩١
- إنَّ معي ربِّي سيهدين ٩١
- إنني معكما أسمع وأرى ٩٢
- ٢ - إحسان العبادة وإتقان العمل ٩٣
- مرتبتا الإحسان ٩٣
- ٣ - المراقبة أساس التقوى ٩٥
- سرُّ التقوى ٩٦
- والتَّقْوَى أَيْضًا تُثْمِرُ إِتْقَانَ الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ ٩٦
- صلاة المراقبين لله تعالى ٩٧
- عبادات أهل المراقبة ٩٩
- ٤ - الأمانة ورعاية المسؤولية ١٠٠
- ٥ - تجنُّب معصية الله ١٠٢
- يوسف الصِّدِّيق وامرأة العزيز ١٠٣
- فوالله لولا الله تخشى عواقبه ١٠٥



• الفصل الثاني: المحاسبة ١٠٧

❖ ١ - معنى محاسبة النفس وأهميتها ١٠٩

ما المحاسبة؟ ١٠٩

محاسبة النفس ١١١

ضرورة المحاسبة لكل مسلم ١١٢

الآيات والأحاديث في محاسبة النفس ١١٢

ومن الأحاديث الواردة في محاسبة النفس ١١٣

من أقوال السلف في المحاسبة ١١٤

أركان المحاسبة ١١٧

المحاسبة سبيل لتزكية النفس ١١٨

❖ ٢ - كيفية المحاسبة ١٢٠

أولاً: قبل العمل ١٢٠

ثانياً: تحاسبها في أثناء العمل ١٢٠

ثالثاً: تحاسبها بعد العمل ١٢١

حقيقة المحاسبة بعد العمل ١٢٢

المحاسبة على جميع العمر ١٢٤

طريقة محاسبة النفس عند الإمام العز بن عبد السلام ١٢٥

طريقة محاسبة النفس عند الإمام ابن القيم ١٢٦

أفضل الأوقات للمحاسبة ١٢٧

محاسبة الصالحين أنفسهم قبل النوم حتّى على الخواطر ١٢٨

❖ ٣ - مجالات محاسبة النفس ١٣٠

١ - المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة ١٣٠

٢ - المحاسبة على النية والقصد ١٣١

- المحاسبة على النية والقصد قبل العمل ١٣١
- المحاسبة في أثناء العمل وبعده ١٣٢
- ٣ - المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات ١٣٣
- ٤ - المحاسبة على النعم ١٣٤
- ٥ - محاسبة النفس عند الخواطر ١٣٦
- معالجة الخواطر السيئة ١٣٧
- ❖ ٤ - فقه الأولويات في المحاسبة ١٣٩
- الاشتغال بأعمال الجوارح على حساب أعمال القلوب ١٤٠
- الاهتمام بالنوافل على حساب الفرائض ١٤٠
- معرفة رُتَب الطاعات ١٤٣
- وإرادة الله تعالى بالأعمال الصالحات أقسام ١٤٤
- ❖ ٥ - من ثمرات المحاسبة ١٤٥
- ١ - حياة الضمائر ١٤٥
- ٢ - إتقان الأعمال ١٤٦
- ٣ - تلافي التقصير ١٤٦
- ٤ - اجتناب الحرام ١٤٧
- ٥ - نشدان الأحسن ١٥٠

• الفصل الثالث: الجدول الزمني المتكامل لأعمال المسلم في حياته ١٥٣

- ❖ ١ - الأعمال العُمرية للمسلم ١٥٥
- ١ - حج الفريضة ١٥٦
- هل العمرة واجبة كالحج؟ ١٥٧
- ٢ - الجهاد أو نيّته ١٥٧



- ٣ - الزواج من امرأة سالحة ١٥٩
- ٤ - كتابة الوصية ١٦٢
- وقفه على رأس الأربعين ١٦٤
- هذا هو شأن الإنسان المسلم إذا بلغ هذه المرحلة من العمر ١٦٥
- ووقفه أخرى على رأس الستين ١٦٦
- ٥ - تدبير ما يتعيش منه من الحلال ١٦٨
- ❖ ٢ - الأعمال السنوية للمسلم ١٧٠
- ارتباط بعض الأحكام الشرعية بالأشهر القمرية ١٧٠
- أ - الزكاة ١٧١
- ب - الأعمال الشهور ١٧٢
- عمل شهر المحرم ١٧٢
- حكم القتال في الأشهر الحرم ١٧٣
- بداية العام الهجري ١٧٣
- استحباب الصيام في شهر المحرم ١٧٤
- مُحدثات يوم عاشوراء ١٧٥
- الزواج في المحرم ١٧٨
- شهر صفر ١٧٨
- شهر ربيع الأول ١٧٩
- حكم الاحتفال بمولد النبي ١٧٩
- من ربيع الآخر إلى جمادى الآخرة ١٨٤
- شهر رجب ١٨٤
- صيام رجب ١٨٦
- شهر شعبان ١٨٧
- ليلة النصف من شعبان ١٨٨



- شهر رمضان ١٨٩
- شهر شوال ١٩١
- ١ - صدقة الفطر ١٩١
- ٢ - صلاة عيد الفطر ١٩٢
- ٣ - صيام ست من شوال ١٩٣
- شهر ذي القعدة ١٩٤
- شهر ذي الحجة ١٩٤
- الأيام العشر ١٩٤
- شعائر يوم العيد ١٩٥
- الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ١٩٧
- تحريم صيام أيام العيد ١٩٨
- ❖ ٣ - الأعمال الشهرية للمسلم ١٩٩
- دعاء رؤية الهلال وصيام الأيام البيض ١٩٩
- ❖ ٤ - الأعمال الأسبوعية للمسلم ٢٠١
- صيام الاثنين والخميس ٢٠١
- يوم الجمعة ٢٠١
- ❖ ٥ - الأعمال اليومية للمسلم ٢٠٤
- الصلوات الخمس ٢٠٤
- السنن الراتبية للصلاة ٢٠٩
- ومهمّة هذه السنن ٢٠٩
- قيام الليل ٢١٠
- صلاة الضحى ٢١١
- أذكار وتسابيح مستحبة كل يوم وليلة ٢١١



- ٢١١ دعاء النوم والاستيقاظ
- ٢١٢ ودعاء الخروج من البيت ودخوله
- ٢١٣ الدعاء عند دخول المسجد والخروج منه
- ٢١٣ دعاء الركوب
- ٢١٣ دعاء بداية الأكل
- ٢١٤ دعاء الفراغ من الأكل
- ٢١٤ دعاء شرب الماء
- ٢١٤ دعاء الضيف لمن أكل عنده
- ٢١٥ أعمال القلوب
- ٢١٦ الحذر من معاصي القلوب
- ٢١٨ الحذر من معاصي الجوارح
- ٢١٨ الواجبات الاجتماعية
- ٢٢١ عمل الخير اليومي المطلوب من المسلم
- ٢٢١ العمل المعيشي للمسلم
- ٢٢٤ ❖ ٦ - جدول يومي للمحاسبة

• الفصل الرابع: البواعث على المراقبة والمحاسبة ٢٢٩

- ٢٣٢ ❖ ١ - استحضار أسماء الله الملائمة
- ٢٣٢ أسماء الرقيب والحفيظ والعليم والسميع والبصير
- ٢٣٣ التعبد باسم الله الرقيب
- ٢٣٤ التعبد باسم الله الحفيظ
- ٢٣٥ التعبد باسم الله العليم
- ٢٣٦ التعبد باسمي الله تعالى: السميع والبصير
- ٢٣٨ أسماء أخرى: الحسيب والقريب والشهيد والخير



❖ ٢ - استحضر الحساب وأهواله ٢٤١

اقرأ كتابك ٢٤٢

نصب الموازين ٢٤٤

موقف السؤال ٢٤٥

موقف الحساب ٢٤٦

شهادة الجوارح ٢٤٦

مالك يوم الدين ومملكه ٢٤٧

مصير الخلائق ٢٤٨

أهمية تذكر الآخرة ٢٤٨

❖ ٣ - الاعتبار بسير أهل المراقبة والمحاسبة ٢٥٠

المثل الأعلى في المراقبة والمحاسبة ٢٥٢

تيقظ السلف للمراقبة والمحاسبة ٢٥٤

ورع عمر عن تمسح زوجته بالمسك عند وزنها له ٢٥٥

تنبيه عمر بن عبد العزيز للمتكلم أن يشير بيمينه ٢٥٥

الحافظ المنذري يستلقي في الطريق ولا يجلس على مسطبة حانوت ٢٥٦

التقي السبكي ينهى ابنه عن زجر الكلب بتحقيق ٢٥٦

أبو يوسف قاضي الرشيد يحاسب نفسه عند الوفاة ٢٥٧

ابن حامد الوراق يمتنع عن شرب الماء قبيل موته ليعرف مصدره ٢٥٧

❖ ٤ - تذكر نعم الله والعمل على شكرها ٢٦٠

نعمة الهداية للإسلام ٢٦٠

كيف نشكر نعمة الإسلام؟ ٢٦١

نعمة العلم والفقه في الدين ٢٦٢

نعمة الصحة والفراغ ٢٦٣

الغيرة على الوقت حتى لا يضيع سدى ٢٦٤





• خاتمة : وقائع وحكايات عن المجتهدين في عبادة الله تعالى

٢٦٩	ومعاقبة النفس ومجاهدتها
٢٧٦	كلام الغزالي في مجاهدة السلف للنفس
٢٧٧	إيراد الإمام الغزالي لأوصاف المجتهدين في العبادة
٢٧٨	عمر بن عبد العزيز والشاب الناحل
٢٧٨	أحمد بن رزين
٢٧٩	مسروق بن الأجدع
٢٧٩	ثلاث حبّيت العيش لأبي الدرداء
٢٧٩	العلاء بن زياد
٢٨٠	دعاء ثابت البناني
٢٨٠	أويس القرني
٢٨١	عتبة الغلام
٢٨١	الربيع بن خثيم
٢٨٢	بشر بن الحارث
٢٨٢	إبراهيم بن أدهم
٢٨٣	منصور بن المعتمر
٢٨٣	عامر بن عبد الله بن عبد قيس
٢٨٤	علي بن أبي طالب
٢٨٤	أبو مسلم الخولاني
٢٨٥	صفوان بن سليم
٢٨٥	عبد الرحمن بن الأسود
٢٨٥	سيما الصالحين
٢٨٦	زمنة بن صالح العابد
٢٨٧	المجتهدات في طاعة الله من النساء



- أتراها تظنُّ أنك لا ترى سوء فعالها ٢٨٩
- هل يوجد مع الله عُربة؟ ٢٨٩
- ليت عُفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ٢٨٩
- جارية سوداء من سَبِي الحبشة ٢٩٠
- بَريرة العابدة ٢٩٠
- معاذة بنت عبد الله العدوية ٢٩١
- رابعة العدوية ٢٩١
- زُجْلة العابدة ٢٩١
- ❖ وقفة مع مبالغات الصوفية في العبادة ٢٩٤
- النية الصالحة لا تكفي وحدها لقبول العمل ٢٩٥
- العناية بالكم على حساب كيف ٢٩٨
- إضاعةُ أصنافٍ من العبادات ٢٩٩
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٣٠٥
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٣٢٩
- فهرس الموضوعات ٣٣٩

* * *

